رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
المركز العالمي للتعليم الإسلامي

الحركة الفكرية ضد الإسلام

للدكتور / بركاتي عبد الفتاح دويدار

إشراف الدكتور محمد أحمد كاريني
رئيس قسم المركز العالمي للتعليم الإسلامي

طبع على المركز العالمي للتعليم الإسلامي
طبع على نفقة الجامعة

عام ١٤٠٦هـ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
المركز العالمي للتعليم الإسلامي

الحركة الفكرية ضد الإسلام

للدكتور / بركات عبد الفتاح دويدار

إشراف الدكتور محمود حسن زيني
مدير عام المركز العالمي للتعليم الإسلامي

مطبوعات المركز العالمي للتعليم الإسلامي
طبع على نفقة الجامعة

عام ١٤٠٦هـ

حقوق الطبع محفوظة للمركز

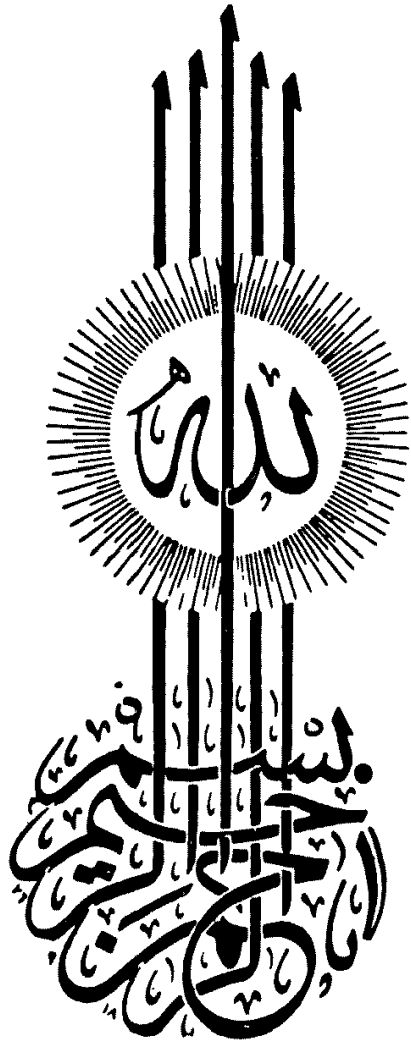
الله
بسم الله الرحمن الرحيم

آية قرآنية :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

سورة آل عمران ـ الآية ٦٤

حديث شريف :

قال رسول الله صلى الله وسلم :

« والله لو كان موسى حيًّا بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتَّبعني »

رواه الحافظ أبو يعلى .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم أحمده سبحانه وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا ونبينا محمد ﷺ .

وبعـــــد :

فيسر المركز العالمي للتعليم الاسلامي بجامعة أم القرى أن يقدم اليوم للقراء الكرام كتاباً يؤرخ « للحركة الفكرية ضد الاسلام » ويبين أهدافها ووسائلها وطرق مقاومتها .

وإني إذ أقدم هذا الكتاب لإخواني القراء أذكر قول الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل في سورة البقرة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً . ولا تُسألُ عن أصحاب الجحيم . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم قل إنّ هُدى الله هو الهُدى ولئن اتّبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ .

ففي هذه الآيات الكريمات يقرر الله تبارك وتعالى حقائق ثابتة لا تقبل الشك أو الجدل بأن اليهود والنصارى لن يرضوا عن سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين والمرسلين ﷺ ولن يرضوا عن الاسلام والمسلمين أبداً في كل زمان ومكان إلّا من هداهم الله إلى الاسلام وآمنوا بنبوة محمد ﷺ وانسلخوا عن اليهودية أو النصرانية .

أما اليهود والنصارى فدأبهم في كل زمان ومكان أن يكيدوا المكايد ويدسوا الدسائس على الاسلام والمسلمين . وهذه الآيات درس إلهي موجّه للمسلمين جميعا أن يتنبّهوا إلى ما جبل عليه اليهود والنصارى من كراهية وحقد على الاسلام والمسلمين وإن

كان النصارى أقل كراهية وحقدا على المسلمين من اليهود . ويحذّر الله تبارك وتعالى المسلمين من الوقوع في حبائل اليهود والنصارى ووسائلهم وحيلهم ودعواهم من ضرورة التقارب بين الأديان الثلاثة حسب مزاعمهم ، وضرورة التلاقي وعقد الندوات واللقاءات للحوار أو النقاش والجدل بين أهل الكتاب وبين المسلمين وإزالة الحواجز والشبه فيما بينهم . وكل هذه الحيل مزاعم منهم والحقيقة التي لا تقبل الجدل أبداً واضحة وضوح الشمس في كبد السماء ، و هي : ﴿ إنّ الدّين عند الله الاسلام ﴾ .

وقد فضح القرآن الكريم نوايا اليهود والنصارى وبيّن سوء ما يبيتون للاسلام والمسلمين وأن أقوالهم لا تتفق وأفكارهم في ضوء الحقيقة القرآنية : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتّى تتبع ملّتهم .. ﴾ .

وقد ثبت من التاريخ البشري بطوله وعرضه أن اليهود والنصارى لم يظهروا حسن النيّة تجاه الاسلام أو المسلمين طوال أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان . وما الحروب الصليبية والمكايد والدسائس التي يبذلها اليهود والنصارى في أرض الله المتمثلة في تشكيك أبناء المسلمين في دينهم وتضليلهم وصرفهم عن هذا الدين الحنيف ، واتخاذ جميع الوسائل والسبل والضغوط عليهم وقهرهم واستغلال جميع ظروفهم لاخراجهم عن الاسلام إلّا أمثلة من سوء النية تجاه الاسلام والمسلمين .

ومن أجل هذا كان لزاماً على المسلمين أن يتدبّروا قول الله تبارك وتعالى ويصدقوه ويؤمنوا بقوله الحكيم ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتّى تتبع ملّتهم .. ﴾ .

وما سبب هذه الكراهية والحقد ؟ إن السبب يكمن في نزول القرآن الكريم على المسلمين وأن الله اختارهم دعاة أمناء على دينه الحنيف لنشره في الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وصدق الحق تبارك وتعالى إذ قال عن أهل الكتاب : ﴿ ما يَوَدُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزَّل عليكم من خير من ربّكم والله يختص برحمته من يشاء . والله ذو الفضل العظيم ﴾ . وقال في سورة البقرة : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كلّ شيء قدير ﴾ . وقال تعالى كذلك في سورة آل عمران : ﴿ ودّتْ طائفة من أهل الكتاب لو يُضِلّونكم وما يُضِلُّون إلّا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

ويوجه الله جلت قدرته الأسئلة واللوم على الكافرين من أهل الكتاب ويبيّن سوء نواياهم بدينه الحنيف .

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ يـٰأهْلَ الكتب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يـٰأهْلَ الكتاب لِمَ تلبسونَ الحقَّ بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون . وقالتْ طائفةٌ مِن أهل الكتاب آمِنُوا بالّذي أُنزِلَ على الذين آمنوا وجْه النَّهار واكفرُوا آخرَهُ لعلّهم يرجعون . ولا تُؤمنوا إلّا لمن تَبِعَ دِينَكم قل إنّ الهُدَى هُدَى الله أنْ يُؤتَى أحدٌ مِثْلَ ما أُوتيتم أو يحاجُّوكم عند ربّكم قل إنّ الفضل بيَدِ الله يُؤْتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ .

ويُبيّن الله في سورة المائدة السرّ والسبب الرئيسي في كراهية أهل الكتاب للمسلمين قال تعالى : ﴿ قُلْ يـٰأهْلَ الكتاب هل تَنْقِمُون منّا إلّا أن آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل مِن قَبْلُ وأنّ أكثرَكم فاسقون ﴾ .

وفي ضوء هذه الحقائق القرآنية التي لا تقبل الشك أو الجدل نستطيع أن نفهم أنه ما من سبيل أفضل في التقارب أو الحوار مع أهل الكتاب إلا دعوتهم إلى الرجوع إلى دين الله العزيز والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبمحمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين . وأنه لابدّ على المسلمين من اتخاذ النهج الربّاني في توجيه الدعوة إلى أهل الكتاب إلى الايمان الخالص بالله جل جلاله وتوحيده وإظهار العبودية الخالصة له سبحانه وتعالى .

ثم إن أسلوب الدعوة إلى الله ودينه الحنيف قد قرره الله تبارك وتعالى ووضّح معالمه في سورة آل عمران في قوله الحكيم : ﴿ قُلْ يـٰأهْلَ الكتاب تَعَالوا إلى كَلِمَةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألّا نَعْبُدَ إلا الله ولا نُشْرِك به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دُون الله فإنْ تَوَلَّوا فقُولوا اشْهَدُوا بأنّا مسلمون ﴾ . ففي هذا الأسلوب الالهي في الدعوة إلى الله الخير كل الخير لأهل الكتاب أن يتوبوا إلى الله وأن يكونوا من المؤمنين قال تعالى : ﴿ ولَوْ آمَن أهلُ الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ . وقال في سورة المائدة : ﴿ ولو أنّ أهْلَ الكتاب آمنوا واتّقوا لكفَّرْنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنّات النعيم ﴾ .

وإذا كان اليهود والنصارى يبذلون قصارى جهدهم في سبيل إخراج المسلمين من دينهم فأولى بالمسلمين ثم أولى بالدُّعاة إلى الله أن يُذَكِّروا أهل الكتاب بقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يـٰأهْلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبَيِّنُ لكم كثيراً ممّا تُخفُون من الكتاب ويَعْفُواْ عن كثير . قد جاءكم من الله نُورٌ وكتابٌ مُبين . يَهْدِي به الله مَن اتَّبَعَ رضوانه سُبُلَ السَّلام ويُخرِجُهم مِنَ الظُّلُمات إلى النُّور بإذْنِه ويَهْدِيهم إلى صراط مستقيم ﴾ . وأولى

بالدعاة إلى الدين الاسلامي الحنيف كذلك أن يوضحوا لأهل الكتاب قول الله جل جلاله : ﴿ يـٰأَهْلَ الكتاب قد جاءكم رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكم على فَتْرَةٍ من الرُّسُلِ أن تقولوا ما جاءنا مِنْ بشير ولا نذير فقد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ والله على كُلِّ شيء قدير ﴾ والله الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

سبحان ربك رب العِزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله ﷺ وآله وصحبه أجمعين .

مدير المركز العالمي للتعليم الإسلامي

غرة محرم سنة ١٤٠٦ هـ
مكـــــة المكـــــرمة

دكتور محمود حسن زيني
أستاذ الأدب العربي الإسلامي
بجامعة أم القرى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مقدمة المؤلف :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وبعـــــد :

فإن الله أرسل محمدا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وأنزل عليه القرآن الكريم ليصير به الانسان كما قال سبحانه :

﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ .

ولم يكن طريق المسلم في هذه الحياة سهلا ، بل بين له القرآن الكريم أنه ما دام يود المحافظة على دينه فإن عليه أن يكون على يقين بأن الحرب بينه وبين أعداء الدين لن تهدأ . جاء ذلك في أكثر من آية . قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[1] .

وقال عز من قائل : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾[2] .

وإن العدو لن يسكت عند مجرد عدم الايمان بل سيسلك كل الطرق لرد المسلمين عن دينهم . إنه سيستعمل السيف . قال الله تعالى : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[3] .

كما سيستعمل الكلمة قال سبحانه :

﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[4] .

---

(١) البقرة : ١٢٠ (٢) البقرة : ١٤٥ .
(٣) البقرة : ٢١٧ . (٤) آل عمران : ١٨٦ .

الحرب إذا لن تهدأ ـــ كما أخبر القرآن الكريم وكما أثبت الواقع ـــ وما دام الأمر كذلك فقد أصبح على المسلمين أن يداوموا دراسة ما يريده الأعداء حتى يستطيعوا الرد عليهم .

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم « الحركة الفكرية ضد الاسلام : أهدافها ومقاومتها » سيجد فيه القارىء أن الحركة الفكرية ضد الاسلام ليست جديدة ، بل بدأت مع بدء الاسلام وأنها برغم تغير شكلها تعتبر في الحقيقة متصلة الحلقات .

* * * * *

إن العدو الحديث ـــ كسلفه ـــ خائف من الاسلام وهو لا يكتم خوفه بل طالما صرح به :

« إن الحركات الفكرية في الاسلام تستعد في خفاء ، وصمت ، وتندلع فجأة ، دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى » ..

ثم يحذر هذا القائل قومه « يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أي أساس واه تقوم عليه المنشآت الأوربية في بلاد الاسلام . فبعد أعوام من السكينة ربما تندلع بغتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعا » .

وخوف العدو من الاسلام لا يختص بموقع دون موقع . إن الاسلام قد استطاع أن يغزو أوربا نفسها واعتنقه الكثير . ثم نجد النجاح في الشرق حتى دخل الصين . قال : « فإذا اعتنقت الصين التي تضم ثلث البشر على الأقل دين الاسلام ، تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيرا عظيما . وأمكن دين محمد الذي يمتد إذ ذاك من جبل طارق إلى المحيط الهادي أن يهدد النصرانية من جديد » .

وكلما سار العدو شوطا ضد الاسلام زاد خوفه . لقد جرب السيف ولم يأت بنتيجة فلم يترك المسلمون دينهم . ففي أثناء الحروب الصليبية ، كانت دماء المسلمين تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث ، ولم يكن بين تلك الجماعات الكبرى واحد يرضى بالنصرانية دينا » .

وانتقل العدو إلى حرب المسلمين في لغتهم وعقيدتهم وعبادتهم وقانونهم وزيادة نسلهم ، محاولا زحزحتهم عن عقيدتهم بالتدريج ما دام لم يستطع ذلك دفعة واحدة .

وهو في أثناء ذلك كله ، يعقد المؤتمرات ، ويدرس ويناقش ، وينتفع من أخطائه السابقة .

والعجيب في الأمر أن عناية الله ــ رغم تقصيرنا ــ كانت معنا . فكثيرا ما اختلف الأعداء على أنفسهم وردوا تهما وجهوها إلى الاسلام . حتى إنك لو تخيلت صورة كفار مكة وهم يأتمرون بالاسلام ويتناقضون في أحكامهم ثم تخيلت صورة للأعداء في الحدث . وعقدت مقارنة بينهما لوجدتهما متشابهتين . ففي وسط الهجوم على الاسلام في مكة تجدهم لا يستطيعون كتمان ما يكنونه للاسلام من احترام .

وفي وسط الهجوم على الاسلام في الحديث ترى ريتان الذي كان من أكبر أعداء الاسلام تأتي عليه لحظة يقول فيها : « إنني لم أدخل مسجدا من غير أن أهتز خاشعا ، أي من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلما » .

هذه هي داخلية العدو كما قال تعالى : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] .

ومن هنا يجب أن يكون أمامنا ــ ونحن نكافح عن الاسلام ــ أن النصر آت إن شاء الله تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[2] .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يرزقنا جميعا النجاح والتوفيق والسداد إنه سميع مجيب .

بركات عبد الفتاح دويدار

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

(٢) التوبه : ٣٢ ، ٣٣ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وبعـــد :

فإن الله أرسل محمداً ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وأنزل عليه القرآن الكريم ليصير به الإنسان كما قال سبحانه .

﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ .

ولم يكن طريق المسلم في هذه الحياة سهلا ، بل بين له القرآن الكريم أنه ما دام يود المحافظة على دينه فإن عليه أن يكون على يقين بأن الحرب بينه وبين أعداء الدين لن تهدأ .

جاء ذلك في أكثر من آية .

قال تعالى ﴿ ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[1] .

وقال عز من قائل : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾[2] .

وإن العدو لن يسكت عند مجرد عدم الإيمان بل سيسلك كل الطرق لرد المسلمين عن دينهم .

إنه سيستعمل السيف .

قال الله تعالى ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾[3] .

---

(١) التوبة : ١٢٠ . (٢) البقرة : ١٤٥ . (٣) البقرة : ٢١٧ .

كما سيستعمل الكلمة قال سبحانه : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[1] .

الحرب إذا لن تهدأ ــ كما أخبر القرآن الكريم وكما أثبت الواقع ــ وما دام الأمر كذلك فقد أصبح على المسلمين أن يداوموا دراسة ما يريده الأعداء حتى يستطيعوا الرد عليهم .

وهذا الكتاب الذي أقدمه اليوم « الحركة الفكرية ضد الإسلام : أهدافها ومقاومتها » سيجد فيه القارىء أن الحركة الفكريه ضد الإسلام ليست جديدة ، بل بدأت مع بدء الإسلام وأنها ــ برغم تغير شكلها ــ تعتبر في الحقيقة متصلة الحلقات .

* * *

إن العدو الحديث ــ كسلفه ــ خائف من الإسلام وهو لا يكتم خوفه بل طالما صرح به :

« إن الحركات الفكرية في الإسلام تستعد في خفاء ، وصمت ، وتندلع فجأة ، دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى » .

ثم يحذر هذا القائل قومه « يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أي أساس واه تقوم عليه المنشآت الأوربية في بلاد الإسلام .

فبعد أعوام من السكينة ربما تندلع بغتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعا لها » .

وخوف العدو من الإسلام لا يختص بموقع دون موقع ، إن الإسلام قد استطاع أن يغزو أوربا نفسها واعتنقه الكثير : ثم يجد النجاح في الشرق حتى دخل للصين . فإذا « اعتنقت الصين التي تضم ثلث البشر على الأقل دين الإسلام ، تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيراً عظيماً . وأمكن دين محمد الذي يمتد إذ ذاك من جبل طارق إلى المحيط الهادي أن يهدد النصرانية من جديد » .

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .

وكلما سار العدو شوطا ضد الإسلام كلما زاد خوفه لقد جرب السيف ولم يأت بنتيجة فلم يترك المسلمون دينهم .

ففي أثناء الحروب الصليبية « كانت دماء المسلمين تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث .

ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد يرضي بالنصرانية ديناً » .

وانتقل العدو إلى حرب المسلمين في لغتهم وعقيدتهم وعبادتهم وقانونهم وزيادة نسلهم . محاولا زحزحتهم عن عقيدتهم بالتدريج ما دام لم يستطع ذلك دفعة واحدة .

وهو في أثناء ذلك كله ، يعقد المؤتمرات ، ويدرس ويناقش ، وينتفع من أخطائه السابقة .

والعجيب في الأمر أن عناية الله ــ رغم تقصيرنا ــ كانت معنا .

فكثيرا ما اختلف الأعداء على أنفسهم وردوا تهما وجهوها إلى الإسلام حتى إنك لو تخيلت صورة كفار مكة وهم يأتمرون بالإسلام ويتناقضون في أحكامهم ثم تخيلت صورة للأعداء في الحديث وعقدت مقارنة بينهما لوجدتهما متشابهتين . ففي وسط الهجوم على الإسلام في مكة تجدهم لا يستطيعون كتمان ما يكنونه للإسلام من احترام .

وفي وسط الهجوم على الإسلام في الحديث ترى رينان الذي كان من أكبر أعداء الإسلام تأتي عليه لحظة يقول فيها : « إنني لم أدخل مسجداً من غير أن أهتز خاشعا ، أي من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلماً » .

هذه هي داخلية العدو كما قال تعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] .

من هنا يجب أن يكون أمامنا ــ ونحن نكافح عن الإسلام ــ أن النصر آت إن شاء الله ، تحقيقا لقوله تعالى :

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يرزقنا جميعاً النجاح والتوفيق والسداد إنه سميع مجيب .

بركات عبد الفتاح دويدار

---

(١) التوبة : ٣٢ ، ٣٣ .

الفصـــل الأول
الإســـلام والفـــكر المعـادي

تمهيـــــد :

كان العصر الذي بعث فيه الرسول ﷺ عصراً يموج بأنواع الثقافات المختلفة التي قامت عليها حضارات أمم لازال التاريخ يقف أمامها دارساً ومتفهما :

فكان هناك فلسفة اليونان التي لازالت تشغل العالم حتى الآن تأييداً أو هجوماً أو رفضاً ، بحيث يمكن القول أن دارسي الثقافة الإنسانية لابد لهم من محاولة الوقوف على ما كان لليونان من فكر ، سواء كانت النتيجة تأييداً أم معارضة ، وجاءت الحضارة الرومانية بما فيها من ثقافة ، وما لها من قانون لازال يدرس في كليات الحقوق حتى الآن .

وبجانب هذا كانت في الطرف الآخر من العالم حضارة الهند والصين والفرس الديانات المتعددة .

والجزيرة العربية نفسها كان فيها ــ فوق ديانات الشرك ــ اليهودية والنصرانية ولليهود والنصارى أثر في جميع أنحاء بلاد العرب ، وكتبهم في أيدي الكثير هنا وهناك .

في وسط هذا الجو استطاع الرسول ﷺ بفضل الله تعالى أن يخرج للعالم أعظم أمة قادت البشرية ، وجيلا له خصائصه التي بها يتميز عن جميع من حوله من بني الإنسان .

وكان الأساس الذي تقوم عليه عقيدة هذا الجيل ربط الإنسان بخالقه . وعلى أساس هذه العقيدة يرى الإنسان نفسه أمام الله مسئولا مسئولية كاملة عن كل تصرفاته ، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم ، فالحاكم والمحكوم يعتبر نفسه

عبد الله وليس المؤمن متروكا لعقيدته دون تعهد آخر ، بل مع العقيدة تلك العبادات التي يقوم بها المسلم لا كما يريد بل كما يريد ربه . وبالعقيدة والعبادة تصبح نفسه جديرة بأن تدخل معترك الحياة مطمئنة إلى النجاح في أمورها .

فاذا ما دخل المسلم معترك الحياة وجد الإسلام يأخذ بيده من وقت أن يستيقظ من نومه حتى يأوى إلى فراشه .

إن الإسلام يرسم له خطوط حياته مع نفسه ، ومع أسرته ، ومع مجتمعه الذي يعيش فيه ، بل ورزقه كيف يكسبه ، ويجعل كل خطوة يخطوها عبادة مادامت متفقة مع الإسلام .

يقود خطوات المسلم نحو كل هذا القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ . والقرآن الذي تربى عليه ذلك الجيل لازال بين أيدينا لم يتغير منه حرف .

وأحاديث الرسول ﷺ وسيرته وسيرة خلفائه رضي الله عنهم وصلت إلينا خالية من الشوائب . ونسأل لماذا استطاع عليه السلام أن يخرج جيلا خلقه القرآن ولماذا نفشل نحن في تخريج جيل آخر يقترب من الأول ؟

وإذا أصبنا نجاحا فهو نجاح جزئي ؟ السبب هو أن الرسول ﷺ لم يتبع في تربية أمته إلا الطريق الواضح طريق الله ، ليس هناك ترقيع يأخذ مرة من هنا ومرة من هناك ، بل الأمر في غاية الوضوح ، هذا الأمر من الله خذ به ، هذا الأمر مخالف لما جاء من عند الله لا تأخذ به ، ولو ظننت أن فيه فوائد .

لقد كانوا ينظرون إلى ما في كتابهم فيعملون به لا يبتعدون عنه قيد أنملة . سئل الرسول ﷺ عن الخمر تتخذ دواء ، فقال : « هي الداء » .

ويروي البخاري في قول الله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ الآية .

أنها نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثه النبي ﷺ في سرية . فإن عبد الله بن حذافة خرج على جيش فغضب ، فأوقد ناراً وقال اقتحموها فامتنع بعضهم ، وهم بعض أن يفعل . وكان كل من الفريقين يحاول أن يفعل ما يرضي الله سبحانه ، فالذين هموا بالطاعة وقفوا عند امتثال الأمر بالطاعة ، والذين امتنعوا عارضه[1] عندهم الفرار من النار ، فنزل في ذلك ما يرشدهم إلى ما يفعلونه عند التنازع وهو الرد إلى الله وإلى رسوله ، أي إن تنازعتم في جواز الشيء وعدم جوازه فارجعوا إلى الكتاب والسنة[2] .

هنا نجد الأمة تستقي من نبع واحد هو الإسلام ، أما هذه الثقافات التي يعج بها العالم والأخذ عن الأمم الأخرى فلا حاجة إليها ، فالإسلام ليس في حاجة إلى ما يكمله . أخرج الطبري وغيره عن طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب وقد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود ، فقال النبي ﷺ : « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » فنزل ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ .

ويقول ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسوله ﷺ حدث تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله تعالى وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا[3] .

وغضب الرسول ﷺ وعندما وجد صحيفة من التوراة بيد عمر وقال : « والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني »[4] .

---

(١) اي عارض الأمر بالطاعة الأمر بالفرار من النار .

(٢) فتح الباري بشرح البخاري ص ٢٢٢ جـ ٩ بتصرف يسير .

(٣) البخاري .

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر .

كل هذا يرينا حرص الرسول ﷺ على أن يكون جيلا قرآنيا خالصا غير موزع الفكر أو العقيدة ، إنه بكليته يتجه إلى الله .

فإذا ما قرأ كتاب الله كانت قراءته وحفظه ليعرف حكم الله في أمر من أموره وأمور الأمة التي ينتسب إليها .

لقد استمعوا إلى كتاب الله للعمل به ولم يستمعوا إلى غيره لأنهم — بعده — لم تعد لهم حاجة إلى هذا الغير . إن المسلم رأى أن وجوده من ربه فلا بد أن تكون شريعته من ربه ، وكان الإسلام واضحا غاية الوضوح في دلالة المسلم على خيرى الدين والدنيا .

ان ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والأخلاق والقانون الذي يحكمه ليس للمسلم أن يتجه في ذلك كله إلا إلى ما جاء به الإسلام .

أما ما يتعلق بالأمور التي يحتاجها في معاشه ، كيف يزرع الأرض ، كيف يمهد الطريق ، كيف يتقدم في هذه الصناعة او تلك ، كل ذلك لا يعترض عليه الدين ما دام يحافظ على الطابع الديني العام مثل عدم الغش وعدم الخداع . الخ .

قال رسول الله ﷺ « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

علاقة المسلم بغير المسلمين :

في الفصول القادمة سنحاول أن نعرف طبيعة المعركة التي تدور بين الإسلام وغيره من الأديان وبخاصة اليهودية والنصرانية . أما في هذا الفصل فسنحاول أن نتبين الطريق الذي رسمه الإسلام للمسلم في علاقته بغيره كيف تكون نظرته لمخالفيه في الدين .

وابتداء نرى الإسلام يفرق بين نوعين من العلاقة :

أولا : علاقة موالاة ومحبة وصداقة ، وهذه يقصرها الإسلام على المسلم فقط .

ثانيا : علاقة تبادل المصالح ، وهذه لا يمنع الإسلام من وجودها مع غير المسلم ما دامت لا يترتب عليها إضرار بالدين .

وموقفنا الآن مع النوع الأول .

ونريد أن نستوضح رأي الإسلام في أربع نقط .

(أ) هل هناك فرصة للقاء دائم بين المسلم من ناحية وأهل الكتاب ـــ اليهود والنصارى ـــ من ناحية أخرى .

(ب) ماهي أساليب الأعداء ـــ وخاصة اليهود والنصارى ـــ التي جربت بالفعل وأخبرنا بها القرآن الكريم .

(جـ) ماهي توجيهات الإسلام ونصائحه للمسلم حتى يسلم من كيد هؤلاء الأعداء .

(د) ماهو رد الدين على الحجج التي يحتج بها من يوالي الكفار .

(أ) أما بالنسبة للنقطة الأولى وهي :

هل هناك فرصة للقاء دائم بين المسلم من ناحية وأهل الكتاب ـــ اليهود والنصارى ـــ من ناحية أخرى ، فنرى رأي القرآن في هذه النقطة واضحاً كل الوضوح .

إن العدو لن يهدأ في يوم من الأيام ، وليست هناك فرصة للقاء دائم بين المسلم وبين هؤلاء الأعداء وأن الحرب بين المسلم وبين اليهود والنصارى لا يمكن أن تنتهي .

ان الإسلام تتسع رقعته وتنتشر دعوته وبشارة الله ﴿ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ لابد أن تتحقق .

هذا من جهة الواقع ، ومن جهة إخبار الصادق ، فاذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر أهل الكتاب نجد أن ما يرضيهم أمر واحد هو ترك المسلم لدينه واتباع ملتهم لأن لهم مطلبا محددا هو القضاء على الإسلام ، يقول تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[1] .

هل يمكن للرسول أن يترك دعوته ؟ لا يمكن . هل هم يتركون دعوتهم إذا تبينوا أن الإسلام حق ؟ لا يمكن . . النزاع إذاً مستمر يقول تعالى : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾[2] .

إن أهل الكتاب لن يتبعوا قبلتك ؛ لأن ابتعادهم عن الحق إنما هو عن مكابرة وعناد . مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[3] .

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يؤكد أن فرصة الالتقاء النهائي معدومة .

ومعرفة الحق والتنكر له كما كان في الماضي نراه في العصور الحديثة . فمن أظهر المتعصبين ضد الإسلام (رينان) وكم جادل وكتب ضد الإسلام ومن يقرأ ما كتب يعتقد أنه يكتب عن إيمان بما يقول ، ولكن مفكراً فرنسياً ينقل لنا مشاعر رينان الحقيقية نحو الإسلام فيقول ــ بعد أن يروي شيئاً كثيراً عن تعصب رينان نحو الإسلام ــ : « ثم يظهر الكاتب الفاضل مسيو رينان أسفا احيانا على سوء رأيه في العرب ، ويصل إلى النتيجة غير المنتظرة الآتية التي تنم كذلك عن ما بين ذاتية الإنسان القديمة التي هي وليدة الماضي) وذاتيته العصرية

---

(١) ١٢٠ البقرة .
(٢) ١٤٥ البقرة .
(٣) البقرة ١٤٦ .

(التي هي وليدة المشاهدة الشخصية) من التنازع . ويأسف على أنه ليس من أتباع النبي فيقول : (إنني لم أدخل مسجداً من غير أن اهتز خاشعاً ، أي من غير أن أشعر بشيء من الحسرة على أنني لست مسلماً[1] أليس هذا مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ .

(ب) وأما بالنسبة للنقطة الثانية وهي :

ماهي أساليب الأعداء ـــ وخاصة اليهود والنصارى ـــ التي جرّبت بالفعل وأخبرنا بها القرآن الكريم ؟

تقدم أن الطلب المحدد لأعداء الإسلام هو القضاء عليه ، وهم ـــ كما أخبرنا القرآن الكريم ـــ لم يسكتوا عند مجرد الأماني ، بل عملوا بالفعل ضد الإسلام محاولين القضاء عليه ، وسلكوا طرقا منها : ـــ

١ ـــ محاولة تشكيك المسلمين

منتهزين الفرصة التي ظنوها سانحة لهم وهي ما كان ينال المسلمين من هزيمة في بعض الأحوال . فنرى العدو يتحرك بعد غزوة أحد وما كان فيها من هزيمة للمسلمين جعلت أبا سفيان قائد جيش الشرك المنتصر ، آنذاك يفكر في الذهاب إلى المدينة لاستئصال شأفة الإسلام لولا حكمة الرسول ﷺ في تضميد جراح المسلمين وخروجه بهم مرة أخرى عقب الهزيمة حتى لا يطمع فيهم عدو . بعد هذه الغزوة نجد فنحاص بن عازورا وزيد بن قيس ونفرا من اليهود يجتمعون بحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ويقولون لهما :

ألم تروا ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم ، فارجعوا إلى ديننا فهو

---

(١) ص ٥١٩ حضارة العرب تأليف جوستان لوبون .

خير لكم وأفضل ونحن أهدى منكم سبيلا . فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد ، قال : فإني قد عاهدت ألا أكفر بمحمد ما عشت ، فقال اليهود : أما هذا فقد صبأ .

وأما حذيفة فلم يكن موقفه بأقل من موقف صاحبه تمسكا بدينه لأنه قال لهم في وضوح إنه قد رضي بالقرآن إماماً ، وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا . فعلموا أنه لا يمكن ارتداده عن دينه كذلك ، ورجع حذيفة وعمار إلى رسول الله ﷺ وأخبراه بذلك فسر بموقفهما ، وقال : « اصبتما خيراً وأفلحتما » . ونزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾[1] .

٢ ــ طريقة فرّق تسد

جربت هذه الطريقة من قديم ، واستغل فيها بعض ما كان بين العرب قبل الإسلام من قتال ، ومعروف أن الأمة العربية قبل الإسلام كانت تعيش في قتال دائم يقتل بعضهم بعضا ، ويغير بعضهم على بعض ، يدفعهم إلى ذلك حمية الجاهلية والنزاع على الماشية والمراعي والمياه أو لمجرد إظهار البطولة والفروسية ويغذي ذلك كله الشعراء بامتداحهم للفارس . بذلك اصبح حب القتال داء لا يمكن استئصاله ، وما من معركة تمر إلا وتترك ثأراً يفرض نفسه ، يلاحق العربي في كل مكان .

وبعد كل حرب وعندما يشعر الفريقان المتحاربان بشبح الفناء يخيم على الجميع ، عند ذلك يستمعون إلى قول من يتدخل للإصلاح ، وتبعاً للتقاليد العربية يتم الصلح من اخذ شروط ودفع دية . . الخ .

لكن إذا كان القتال قد انتهى هل يمكن نسيان النزاع نفسه وما حصل فيه ، نصر لهذا الفريق وهزيمة لذلك .

---

(١) البقرة : ١٠٩ .

إن الأخبار يتناقلها القوم الذين لا يجدون ما يشغلون به فراغهم ، وأبيات الشعر التي قيلت في بسالة الأبطال وجبن الجبناء لا يمكن أن تفارق العربي في حله وترحاله .

من هذه المواقع التي كان لها شأنها بين العرب قبيل الإسلام (يوم بعاث) . كان بين الأوس والخزرج بالمدينة وكاد يهلك الطرفان رغم أنهما تربطهما القرابة الشديدة (أبناء عمومة) وكانت اليهود تغذي هذه العداوة ، وجاء الإسلام وقضي على حمية الجاهلية ، وانضوى الناس تحت لوائه ، وجلس الأوسى مع الخزرجي ناسياً كل ما كان في الجاهلية .

ومر شاش بن قيس اليهودي ـــ وكان عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم ـــ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدثون . ورأى اجتماعهم والألفة التي أصبحت بينهم بعد أن كانوا أعداء ، وامتلأ بالغيظ ، وعرف أنه لا يمكن أن ينتصر عليهم بحرب ما داموا مؤتلفين لابد إذاً من عمل لفض اجتماعهم . فأرسل إليهم شابا من اليهود ، وامره أن يجلس إليهم ، ويذكرهم بيوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار . وأدى الشاب اليهودي مهمته بأمانة وعند ذلك ثارت في القوم العصبية القديمة، ونادوا : السلاح ، السلاح . وكادت المعركة تنشب بين الفريقين وعلم النبي ﷺ بالأمر فخرج مسرعاً ومعه ناس من المهاجرين والأنصار حتى وصل إليهم ، وناداهم قائلا : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » . فعرف القوم أنها كانت خدعة شيطانية ، وأنهم كانوا ضحية لها حين دبرها لهم عدوهم فالقوا السلاح ، وبكوا وتعانقوا ، وانصرف الجميع مع رسول الله ﷺ ، ونزل في ذلك قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد

إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

٣ ــ التظاهر بالإسلام :

فكرت مجموعة من أهل الكتاب في حيلة غريبة كان لها أثر كبير في تفريق المسلمين في كل العصور . وتتلخص هذه الطريقة في أن هذه المجموعة تظهر الإسلام ، وتدعى أنها تؤمن بكل ما جاء من عند الله ، وما نزل على محمد ﷺ ويراهم المسلمون ، الذين آمنوا أيضا بعد كفر ، ويعتقدون أخوتهم في الدين .

وبعد أن يطمئن الجميع إلى هذه الطائفة وإسلامهم ، تبدأ هذه الطائفة في المرحلة الثانية ، وهي رجوعهم عن الإسلام ، وإعلان الكفر مرة أخرى ، ويعللون الكفر بعد الإيمان بأنهم نظروا في دين محمد فوجدوه كذبا وباطلا .

وهم في الحقيقة مصدقون بينهم وبين أنفسهم بأن ما جاء به محمد إنما هو من عند الله مثل الذي جاء به موسى ، ولكنهم لا يعلنون ذلك إلا لأشياعهم .

والثمرة التي يجنونها من هذا العمل هو أن دخولهم في الإسلام سيجعل المسلمين يطمئنون إليهم ، فاذا ما خرجوا إليه معلنين أنهم ما وجدوا في الإسلام شيئاً فانهم بذلك سيشككون كثيرا من المسلمين في دينهم وبالطبع هم لم يطمعوا في تشكيك أبي بكر أو عمر أو عثمان أو علي ، ولكنهم يطمعون في هؤلاء الذين لم يصلوا إلى هذه الدرجة من الإيمان وتجوز عليهم الحيلة .

قال تعالى في ذلك :

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . قل إن الهدى

---

(١) آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١ .

هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ، قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[1] .

٤ ــ إتخاذ مراكز في داخل المسملين ، ظاهرها طاعة وباطنها كيد للإسلام

ومن أمثلة ذلك مسجد الضرار ، ومن قصة هذا المسجد أن أبا عامر الراهب ــ وهو الذي سماه الرسول ﷺ الفاسق . قال لرسول الله ﷺ يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، وكان أبو عامر على دين هرقل ممن تنصر معهم من العرب ، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام ، ولم يسكت عند هذا الحد بل حاول استعمال طرق أخرى فأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وعرفهم بأنه سيذهب إلى قيصر ويستنصره على محمد ، ويطلب منه إمداده بجنود ليستطيع إخراج محمد وأصحابه من المدينة فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء ، وقالوا للنبي ﷺ .

بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة .

فقال النبي ﷺ :

« اني على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا ــ إن شاء الله ــ صلينا فيه ، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزل قول الله تعالى :

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في

---

(١) آل عمران : ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) الليلة المطيرة : الكثيرة المطر والليلة الشاتية : شديدة برد الشتاء .

نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾[1] .

فلما نزلت دعا رسول الله ﷺ بمالك بن الدُّخْشُم ، ومعبد بن عدى وعامر بن السكن ، ووحشى قاتل حمزة فقال لهم : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه » ففعلوا .

وأمر أن تتخذ مكانه كناسة تلقي فيها الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ ، اي واعداداً لاجل من حارب الله ورسوله ، وهو الراهب أعدوه له ليصلي فيه ويظهر على رسول الله ﷺ .

فقد كان أبو عامر الراهب (الفاسق) يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين ، فبنوا هذا المسجد في الصورة الظاهرة وباطنه دار حرب ، ومقر لمن يفد من عند أبي عامر ، ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين .

وكان الرسول ﷺ شديداً مع هؤلاء الذين يتخذون أوكاراً يتجمعون فيها ، فكما حرق مسجد الضرار بعد غزوة تبوك نجده قبل الغزوة يبلغه أن (ناسا) من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، وكان بيته عند جاسوم ـــ يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره ان يحرق عليهم بيت سويلم ففعل طلحة . .

٥ ـــ النفـــاق :

يلقون المؤمنين بوجوه المصادقين ، ويوهمونهم بأنهم معهم ، فاذا مارجعوا إلى الخبيثين من قومهم كشفوا لهم عن كل ما في صدرورهم .

---

(١) التوبة : ١٠٧ ـــ ١١٠ .

وهؤلاء المنافقون لهم دور ضخم في التاريخ الإسلامي من وقت ان هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى الآن ، وهم شر عدو أصيب به الإسلام . وقد عالج القرآن الكريم مسألة النفاق في عدة مواضع حتى لا تكاد تخلو منها سورة مدنية وروي أن عبد الله بن أبيّ وأصحابه خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال عبد الله : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم ، فأخذ بيد أبي بكر فقال مرحبا بالصديق سيد بني تميم ، وشيخ الإسلام ، وثاني رسول الله في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر ، فقال مرحبا بسيد بني عدى الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله .

ثم أخذ بيد علي ، فقال مرحباً بابن عم رسول الله وختنه ، سيد بني هاشم ما خلا رسول الله ، ثم افترقوا ، فقال لأصحابه :

كيف رأيتموني ، فعلت : فاثنوا عليه خيرا .

وفي ذلك نزل قوله تعالى :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شاطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾[1] .

٦ ــ المقاطعة الاقتصادية :

ما تقدم كان محاربة للإسلام بنوع من الخبث والمداراة ، ولكن الأمر كان لا يقف عند هذا الحد ، بل كان هناك أنواع من الحروب العلنية ، ونحن لن نتعرض لتلك الحروب التي كانت بين المسلمين وأعدائهم من اليهود والنصارى ، بل سنقصر الكلام على تلك الحروب التي يطلق عليها بلغة العصر الحاضر الحرب الباردة .

من هذه الأنواع الحرب الاقتصادية ، ومحاربة تجويع المسلمين ، حتى إذ

---

(١) البقرة : ١٤ .

ما عضهم الجوع تركوا الإسلام وتفرقوا عن رسول الله ، ويقول سبحانه وتعالى في ذلك :

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾[1] .

٧ ــ الكذب وشهادة الزور :

نزل الرسول ﷺ إلى المدينة وكان فيها ــ مع الأوس والخزرج ــ اليهود ، وآخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار ، وعقد المعاهدات مع اليهود ، وبدأ نصر الله ، وبدأ اليهود يوقنون أن محاولة تفريق الأنصار ، أو محاولة إثارة الضغائن بين المهاجرين والأنصار ، أو محاولة تشكيك المسلمين في دينهم أن هذه المحاولات وأمثالها إنما هي محاولات فاشلة .

وبدءوا يفكرون في الاتجاه إلى الأعداء التقليديين لرسول الله ﷺ والمسلمين وهم مشركوا مكة .

وخرج حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى مكة مع جماعة من اليهود وكان الغرض الذي يرمون إليه من هذه الرحلة هو محالفة قريش على محاربة رسول الله ﷺ وأرادت قريش أن تطمئن لنفسها حتى لا تقع في فخ نصب لها فقالوا للوفد اليهودي : أنتم أهل كتاب ، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ، ففعلوا وبدأ أبو سفيان في الاستفهام عن أمر آخر : ان الحرب بينه وبين محمد بن عبد الله حرب دينية . أبو سفيان يدافع عن آلهته من الأصنام وينقمون من محمد أنه عاب آلهتهم وسفه أحلامهم ، وفي سبيل إرجاع محمد عن دعوته عرضوا عليه المال حتى يكون أكثرهم مالا ، وعرضوا عليه الملك . ولكن هذا كله هان أمام عقيدتهم حتى لا تعاب آلهتهم .

---

(١) المنافقون : ٧ .

إذا الحرب من ناحية قريش دينية ، ومن ناحية الرسول ﷺ دينية إنه الحق يدعو إليه ، ليس الملك ولا الجاه ولا الدنيا بأكملها « والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

من هنا أراد أبو سفيان أن يعرف رأي هؤلاء من اليهود في عقيدتهم فبعد أن سجدوا لأصنامهم سأل أبو سفيان هذا السؤال : ـــ

أنحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ وردّ وفد اليهود قائلين : وما دينكم ؟ قال أهل مكة : نحن ولاة البيت ونسقي الحاج ونقري الضيف ونفك العاني ، وذكروا أفعالهم التي كانوا يقومون بها في الجاهلية ، باعتبارهم حماة البيت الحرام ، ورد اليهود على سؤال أهل مكة قائلين : أنتم أهدى سبيلا .

وأنزل الله سبحانه في ذلك :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾[1] .

وايمانهم بالجبت والطاغوت لأنهم سجدوا للأصنام ، وأطاعوا إبليس فيما فعلوا .

فنجد الكيد للإسلام هنا يحملهم على ارتكاب الصعب . انهم يسجدون الأصنام تطمينا للمشركين أنهم ليسوا على الباطل ، ثم يشهدون أن عبادة الأصناف خير من عبادة الله سبحانه .

كل ذلك ليصلوا إلى كسب حزب جديد ضد محمد ﷺ . والقرآن الكريم يخبرنا أن مجرد موالاتهم للمشركين ما كان يصح منهم لو كانوا حقا متمسكين بدينهم الذي يدينون به .

---

(١) النساء : ٥١ .

يقول تبارك وتعالى :

﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾[1] .

فمجرد موالاة المشركين دليل على أن إيمانهم بدينهم ليس بإيمان ، فلو كانوا يؤمنون بالله وموسى ــ كما يدعون ــ ما اتخذوا المشركين أولياء .

ان أصحاب الأديان السماوية رسالتهم هي أن يحاربوا الشرك وهذا ما أوصى به القرآن الكريم عندما يقول في سورة الروم : ﴿ ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾[2] .

ففرح المؤمنين هنا بنصر الله لتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وهذه هي سنة الإسلام في التفريق بين من له كتاب ومن ليس له كتاب .

٨ ــ السخرية بأركان الإسلام ، واسماع المؤمنين أنواع الأذى :

كما أن من سنة الحياة أن يواجه الانسان من أنواع الابتلاء في النفس والمال والأهل ، كذلك لابد أن يعلم المسلم أنه لن يسلم من سماع الأذى ، والأذى الكثير من مخالفيه في الدين ــ أهل كتاب ومشركين ــ وعليه أن يوطن نفسه على هذا وإلا فاذا كان يبغيها حياة اسلامية دون أن يتعرض لأنواع الأذى فهو واهم .

---

(١) المائدة : ٨٠ ، ٨١ .
(٢) الروم : ١ ــ ٥ .

سماعه الأذى كان ولابد ، وعليه أن يصبر ويتقي وأن يعلم أن الصبر من الأمور التي أوجبها الله مع المسلم في مثل هذه الأحوال .

يقول تعالى : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين اشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور ﴾[1] .

وأنواع الأذى التي كان يسمعها المسلمون قد قص علينا القرآن بعضها . . منها السخرية بأركان الإسلام .

قال تعالى : ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾[2] ؛ ومنها استعمال الكلمات التي تحتمل وجهين كما في قوله تعالى : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا في الدّين ﴾[3] فكانوا ـــ سخرية بالدّين وهزءا برسول الله ﷺ ـــ يكلّمونه بكلام محتمل يَنوون به الشّتيمة والاهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام (ليًّا بألسنتهم) .

فَتْلاً بها وتحريفا أي يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل حيث يضعون « راعنا »[4] موضع « أنظرنا » و « غير مسمع » بوضع « لا اسمعت مكروها »[5] . إنهم ـــ أهل الكتاب ـــ مصممون على هذه العداوة من أول الأمر .

عن صفية بنت حيي : لما قدم رسول الله ﷺ قباء ـــ قرية بني عوف ـــ عدا إليه أبي وعمى أبو ياسر بن أخطب مغلسين ، فوالله ما جاءانا

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .
(٢) المائدة آية ٥٨ .
(٣) النساء بعض آية ٤٦ .
(٤) ابن كثير البداية والنهاية ص ٢١٢ جـ ٣ .

إلا مع مغيب الشمس فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا فبششت إليهما كما كنت اصنع ، فوالله ما نظر إلى واحد مهما فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ قال نعم والله : قال تعرفه بنعته وصفته قال : نعم والله قال : فماذا في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت .

أمام هذه العداوة غير المحدودة لابد من الصبر .

(جـ) وأما بالنسبة للنقطة الثالثة وهي :

ماهي توجيهات الإسلام ونصائحه للمسلم حتى يسلم من كيد هؤلاء الأعداء ؟ المسلم في هذه الحياة الدنيا صاحب رسالة لابد أن يؤديها كاملة هو ليس طالب دنيا أو ما يشبه ذلك ، لذلك نجد تربية الإسلام للمسلم تسير دائما في طريق ليست فيه ليونة ، تربية للنفس بفطامها عن الشهوات ، ونهى لها عن الهوى ؛ ثم العبادات نفسها تراها كلها تقريبا تسير في هذا المنهج ، صلاة تبدأ من أول النهار إلى آخره مقسمة على أوقاته ، حيث نوم الصباح لذيذ ينادى مؤذن الفجر ، وحيث المشاغل والجرى وراء الدنيا أو حب الراحة وقت القيلولة ينادى مؤذن الظهر والعصر ، وحيث الذهاب إلى السمر وما فيه من ميل للشهوات ينادى مؤذن المغرب والعشاء ، وحيث الليل بسكونه ودفء الفراش تكون سنة قيام الليل .

وهكذا الزكاة : المال شقيق الروح ولكن في هذا المال حق للسائل والمحروم ، والصوم وما فيه من تربية النفس ومنعها عن الطعام والشراب برغم أنهما أمامها ، والحج وما فيه من بذل المال ، وترك الأهل والولد إلى رحلة فرضها الله تعالى .

بهذا المنهج يربي الإسلام المسلم على الصبر ، وتحمل المشاق وطاعة الأوامر .

وإذا ما وصلنا إلى موضوعنا هذا نجد أن القرآن الكريم قد أوضح أن :

هؤلاء الأعداء لا يمكن أن نرضيهم ، ولن يسكتوا عن تدبير أنواع الضرر بالمسلمين فكان حكم الإسلام هو :

ممنوع على المسلم ــ والأمر كذلك ــ أن يوالي اليهود والنصارى . ويرى الإسلام أن الرابطة الحقيقية التي يجب أن يرتبط بها المسلم هي رابطة الدين ، تلتئم الجماعة حيث يوجد الإسلام فيهم وتفترق حيث يفترقون في الدين .

ولا اعتبار بعد ذلك لأي من العلائق سواء كانت علائق نسب أو جوار أو اقتصاد أو غيرها . هذا حكم لا يتركه الإسلام لاجتهاد المجتهدين . وإنما يحدده تحديدا واضحا لا شبهة فيه . يقول تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾[1] .

ومعنى الآية ــ كما جاء في تفسير الكشاف للزمخشري ــ لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين .

ثم علل النهي بقوله (بعضهم أولياء بعض) أي إنما يوالى بعضهم بعضا لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم ؟ (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) من جملتهم وحكمه حكمهم ، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين ، واعتزاله كما قال رسول الله ﷺ :

(لا تراءى ناراهما) .

---

(١) المائدة : ٥١ ، ٥٢ .

ومنه قول عمر رضي الله عنه لأبي موسى في كاتبه النصراني : لا تكرموهم إذ أهانهم الله . ولا تأمنوهم إذ خونهم الله . ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله[1] .

وروي أنه قال له أبو موسى : (لا قوام لأهل البصرة إلا به) فقال له (مات النصراني والسلام) يعني هب أنه قد مات . فما كنت تكون صانعا حينئذ فاصنعه الساعة ، واستغن عنه بغيره .

﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

يعني الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفر يمنعهم الله الهدى ويخذلهم مقتا لهم .

(يسارعون فيهم) .

ينكمشون[2] في موالاتهم ، ويرغبون فيها ، ويعتذرون بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان ، أي صرف من صروفه ، ودولة من دوله ، فيحتاجون إليهم وإلى معونتهم .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : « ان لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني ابرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم واوالي الله ورسوله .

فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالي يهود بني قينقاع . هكذا يحدد القرآن الكريم الموقف الذي يجب أن يتخذه المسلم حيال اليهودي والنصراني ، وخير ما يوضح رأي القرآن الكريم هو موقف عمر رضي الله عنه من النصراني الذي اتخذه أبو موسى كاتبا له وعلل ذلك بأن أهل البصرة لاغنى لهم عنه . فكان جواب عمر واضحا : هبه مات هل تتعطل

(١) وخالد بن الوليد كان له مع عمر مثل هذا حين أخبره بأنه محتاج الى الكاتب النصراني .
(٢) في القاموس كمشه أعجله وتكمش أسرع كانكمش .

الدنيا . إن اختلاف الدين يجعل القريب بعيدا ، ويضرب الله لنا المثل في قصة نوح حين يقول ﴿ ونادى نوح ربه فقال ربّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾[1] .

فالله سبحانه نفى أن يكون ولد نوح من أهله وعلل ذلك بقوله ﴿ انه عمل غير صالح ﴾ فقرابة الدين فوق قرابة النسب ، وإن من لم يكن على دينك بعيد عنك وإن كان قريبك في النسب ، وإن المتفق معك في الدين هو أخوك ولو كان حبشيا وأنت قرشي :

القرابة الحقيقية إذاً هي قرابة الدين .

أليس اختلاف الدين من موانع الميراث في الإسلام ؟ وإذا كان اختلاف الدين له كل هذا الأثر فيجب على المسلم أن يحتاط للأمر ، فلا يتخذ في الدين خصيصين ، أصفياء يفضي إليهم بشعوره ويثق فيهم ، لأن هؤلاء المخالفين لا يقصرون في إيصال الفساد إليه ، وهم يتمنون أن يضروه في دينه ودنياه ، أشد الضرر وأبلغه .

وأنت إذا تتبعت هؤلاء المخالفين الذين يبدون شيئا من المودة للمسلمين تجد أنهم مهما كان ضبطهم لأنفسهم وتحاملهم عليها لابد أن ينفلت من ألسنتهم ما يعلم به بغضهم للمسلمين :

ومهما يكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تعلم

إن الآيات القرآنية هنا ــ كما هي في مواضع أخرى ــ تأتي بالحكم مسببا يقول تبارك تعالى :

---

(١) هود آيات ٤٥ ــ ٤٧ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾[1] .

هذه هي النصائح ــ بل الأوامر ــ التي يقدمها الإسلام للمسلم في أخطر مسألة تتوقف عليها حياته المستقبلة .

إن أي خطأ فيها قد يودي بحياته ليس كفرد ولكن كأمة لها رسالة تعيش من أجلها .

والنزاع نزاع عقائدي : إما إسلام كما يحب المسلمون ، وإما لا إسلام كما يريد غير المسلمين . فاذا ما أخذنا ناحية مثل سخريتهم بالإسلام ، نرى أن من يرضي بموالاة من يسخر بدينه يجب عليه أن يتعلم كيف يحافظ على الكرامة ، كما يجب أن يعلم أن عباد الأوثان غضبوا عندما رأوا النبي ﷺ يعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم ، ورأوا أنهم ماداموا قد ارتضوها آلهة لابد أن يدافعوا عنها ولو كلفهم ذلك بذل الروح . وكان الواحد منهم لا يرضي بالسخرية مما يعبد إلا بعد أن يترك عبادته ويعلن إسلامه . . إن عقيدتي هي أثمن شيء أحرص عليه ، انها الطريق الذي اخترته لنفسي ليوصلني إلى سعادتي الدينية والدنيوية ، عليها أحيا ، وفي سبيلها أبذل الغالي والرخيص ، فإذا لم أكن كذلك فلا داعي لأن أصف نفسي بأنني صاحب عقيدة .

إنني عندما أوالي من يسخر من عقيدتي أكون قد هنت على نفسي والرسول ﷺ يقول :

---

(١) آل عمران : ١١٨ ، ١٢٠ .

« من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فقد برىء من ذمة محمد »[1] .

حقيقة قد يسخر مني إنسان ومن عقيدتي . وأرى أن السكوت أولى في هذه اللحظة عملا بقول الله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾[2] . ولكن هناك فرق كبير بين مداراة السفيه وموالاته .

(د) وأما بالنسبة للنقطة الرابعة وهي :

ماهو رد الدين على الحجج التي يدلي بها من يوالي الكفار ؟ . . إن الذين يوالون الكفار لا يعدمون حجة يحتجون بها ويرمون بها في وجه من يعارضهم .

إن السبب الأساسي في موالاة الكفار ــ في الحقيقة ــ هو ضعف العقيدة . ولكنهم لا يصرحون بهذا ، بل يظهرون حججا أخرى أهم هذه الحجج هي :

١ ــ الاستنصار بهم .
٢ ــ مخافة الفقر بقطع الصلة بهم .
٣ ــ صلة القرابة .

والقرآن الكريم يرد على هذه الحجج .

فبالنسبة للاستنصار بهم

يقول تعالى : ﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى

---

(١) روي ابن ماجه ــ فتن ــ ٣١ [لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه] .
(٢) من آية ٦٣ الفرقان .

أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) .

ان الآية توضح أن أساس المسارعة والرغبة في موالاتهم إنما هو المرض في القلب ، وسوء الاعتقاد في الله سبحانه . إذا كان هذا هو السبب الحقيقي فإن القرآن يرد على ما أظهروا من أسباب . إنهم يقولون « نخشى أن تصيبنا دائرة » فهم ـــ كما يقولون ـــ لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان أو صرف من صروفه أو دولة من دوله ، وعندئذ يصبحون في حاجة إلى معونتهم .

هذه حجة من يئس من ربه ويأخذ الأمور بالنظر القصير .

انه لو نظر إلى التاريخ لعرف أن الأيام دول ، وكم من قوى أصبح ضعيفاً ومن هنا يكون من الخطأ بيع الدين من أجل مخلوق ، بل عليه أن يطيع ربه ولا شأن له بما بعد ذلك ، ومن هنا يكون رد الله على هذه الحجة .

﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ بإظهار المسلمين ﴿ أوامر من عنده ﴾ باستئصال شأفة هؤلاء الذين تعتمدون عليهم : فيصبح هؤلاء الذين في قلوبهم مرض نادمين على ما حدثوا به أنفسهم .

إن الله سبحانه يبين مصدر النصر وأنه منه وحده حين يقول :

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ إذاً فلكى تحصل على نصر الله عليك أن تقوم بما يطلبه منك وهو الطاعة وتنفيذ ما أمر وأن تحذر المعصية ، وتهب نفسك لله وتأخذ في الأسباب التي أمرك بها وبعد ذلك لا تسأل ماذا سيكون ؟ ولكن هؤلاء مرضى القلوب ـــ ككثير من الذين ينتسبون إلى الإسلام في كل وقت ـــ كانوا يشكون في أمر رسول الله ﷺ ولا يظنون أن أمره سيظهر ، أو هم لحقدهم كانوا يتمنون ألا يظهر ، وكان اعتقادهم أو هم يتمنون ، أن الغلبة تكون لهؤلاء الأعداء عليه .

وبالنسبة للأمر الثاني

وهو اعتذارهم بخوف الفقر ، نجد الدّين يقطع أن الأرزاق بيد الله لا بيد غيره ، لو أراد الاعداء افقار احد او إغناءه ما استطاعوا إلا بارادة الله .

لمّا أراد الأعداء أن يجرّبوا عملية التجويع وقالوا (لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) رد الله عليهم بقوله :

﴿ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ لن يستطيع كائن من كان أن يتحكم في أرزاق عباده ، يقول تعالى ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيزالحكيم ﴾[1] .

أي شيء يرسله الله من رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو أولاد أو غير ذلك من انواع النعمة لا أحد يقدر على امساكه وحبسه وأي شيء يمسكه الله فلا أحد يقدر على اطلاقه ، هذه قاعدة يؤكدها الشرع في كل موطن . يخشى فيه الإنسان على رزقه ، كما نراه هنا ، وكما نراه مع الذين يقتلون اولادهم خوف الفقر حين يقول سبحانه :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم واياهم ﴾[2] .

وعندما نزل النهي عن السماح للمشركين بأن يقربوا المسجد الحرام بعد هذا العام ــ التاسع الهجري ــ بين الله سبحانه أن انقطاع هذا المورد ــ الذي كان يأتي عن طريق المشركين ليس معناه قطع رزق مرزوق ، يقول تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ان الله عليم حكيم ﴾[3] .

---

(١) فاطر : ٢ .
(٢) الأنعام : ١٥١ ومن املاق أي من أجل فقر ومن خشيته .
(٣) التوبة : ٢٨ .

امنعوا المشركين من ان يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم فقراً بسبب هذا وخشيتم على ما كان لكم في قدومهم من المكاسب ، فاعلموا أن الأرزاق بيد الله ، وان سلاح التجويع ضعيف أمام الايمان ، ما أتى بثمرة للذين استعملوه من مشركي مكة عندما قاطعوا المسلمين ، وكتبوا بذلك صحيفة ،ولا اليهود عندما حاولوا ذلك مرارا .

وأما بالنسبة للاحتجاج بصلة القرابة

فانه ـــ كما تقدم ـــ لا شيء يقدم على قرابة الدين . وهناك فترة من حياة الدعوة الإسلامية قبل فتح مكة كان الواحد من المسلمين لا يتم إيمانه إلا إذا هاجر إلى المدينة ، والبعض سألوا الرسول ﷺ وقالوا يا رسول الله : ان نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا ، وخربت ديارنا وبقينا ضائعين .

فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان أباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[1] .

ويقول الزمخشري في تفسير هذه الآية : ﴿ فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ وعن الحسن : هي عقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها ، كأنها تنعي على الناس ماهم عليه من رخاوة في عقد الدين واضطراب حبل اليقين فلينصف أروع الناس وأتقاهم من نفسه ، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الأباء والأبناء والأخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لآجله ، أم يزوي الله عنه أحقر

---

(١) التوبة : ٢٣ ، ٢٤ .

شيء منها لمصلحته ، فلا يدري أي طرفيه أطول ، ويغويه الشيطان عن أجل حظ من حظوظ الدين فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره .

ويقول الرسول ﷺ : « لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله ، حتى يحب في الله أبعد الناس ، ويبغض في الله أقرب الناس إليه »[1] .

ويقول الله سبحانه : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعلمون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[2] .

فنجد أن إبراهيم والذين آمنوا معه يصرحون ببراءتهم من قومهم ويعلنون عداوتهم وبغضهم . وإن سبب هذا هو كفر قومهم بالله . ومادام السبب قائما فالعداوة قائمة فاذا زال السبب وآمنوا بالله تبدلت العداوة موالاة والبغضاء محبة ، وأصبحوا إخوانا تحت راية الدين ، لاراية القرابة ! ويقول سبحانه بعد الآية السابقة بآية واحدة ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغني الحميد ﴾ .

تأكيد بعد تأكيد على ترك صلة القرابة كأساس للموالاة والمحبة ، واتباع صلة الدين ، وتهديد لمن لم يسلك هذا الطريق ، ولذلك نرى المؤمنين يقطعون كل صلة إلا صلة الدين .

لما نقضت قريش صلح الحديبية ، وأعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ بعثت أبا سفيان إلى المدينة يشد العقد ، ويزيد في المدة وقد خافوا العاقبة . ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ،

---

(١) تفسير الكشاف المجلد الثاني طبعة الحلبي .
(٢) الممتحنة : ٣ ، ٤ .

فدخل على ابنته أم حبيبة . فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته . فقال يا بنية : ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أو رغبت به عني ؟ فقالت هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس ، فلم أحب ان تجلس على فراشه . فقال با بنية : والله لقد أصابك بعدي شر[1] .

النوع الثاني : علاقة تبادل المصالح مع غير المسلمين

ما تقدم كله كان عن علاقة الموالاة والمحبة واتخاذهم بطانة . وأما غير هذه العلاقة فان الإسلام لا ينهى عنها فهناك العلاقة مع الذي يعيش بيننا برغم مخالفته لنا في الدين ، لابد من المحافظة عليه لا يحل ماله ولا دمه إلا بحقه قال رسول الله ﷺ :

« من قتل قتيلا من أهل الذّمة بغير حق لم يجد ريح الجنة »[2] .

ان الذي مع المسلمين في ديارهم ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، ومادام يعيش بينهم فلا بد من التعامل معه ، لأن الحاجة تحتم هذا التعامل . وللمعاملة حدود وقواعد لابد من اتباعها . وإذا عقد المسلمون معاهدة مع المخالفين في الدين يجب الوفاء بها ما داموا هم ـــ المخالفون ـــ يحافظون عليها يقول تعالى :

﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾[3] .

وهذا الوفاء بالعهد واجب حتى ولو كان في نقضه إعانة المسلم ، إن أخاك يجب أن تنصره إلا على القوم الذين عاهدتهم قال تعالى :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ص ٢٨٠ جـ ٤ .
(٢) النسائي .
(٣) التوبة : ٤ .

﴿ وإن استنصروكم في الدّين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾[1] .

والعدل واجب ، حتى ولو كان مع الأعداء ، ولا يجوز لك ان تتخذ العداوة مبررا لظلمه يقول تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[2] .

والمعنى لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل ، فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم ، وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثله ، أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك .

﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ نهاهم أولا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدا وتشديدا ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله ﴿ هو أقرب للتقوى ﴾ أي العدل أقرب للتقوى وادخل في مناسبتها[3] .

وهكذا نجد القرآن الكريم يأمر بالعدل حتى مع هؤلاء الذين كانت لهم سابقة في الإضرار بالمسلمين . وإن استثارة الأحقاد القديمة واتخاذها سببا لظلم هؤلاء أمر لا يجوزه الشرع بحال . والولد المسلم مع أبيه الكافر وصاه الله بوالديه حسنا بقوله سبحانه ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[4] .

---

(١) الانفال : ٧٢ .
(٢) المائدة : ٨ .
(٣) تفسير الكشاف .
(٤) العنكبوت : ٨ .

وإلى هنا نرى الإسلام يقف بالمسلم أمام أمرين : ـــ

الأول : الولاية والثقة واتخاذ البطانة وهذه كلها خاصة بالمسلم لاصلة لها بالقرابة ولا النسب ولا الجوار .

الثاني : تبادل المصالح واستعمال العدل والوفاء بالوعد فهذه أمور لا يمنعها الشرع مع المخالفين في الدين .

الفصـــل الثاني
عداوة أوربـــا للإســـــلام

إن الدول الأوربية الموجودة اليوم ماهي إلا امتداد للدولة الرومانية ومن قبلها الدولة اليونانية .

وقد ورثت أوربا الحديثة عن اليونان والرومان عقيدة احتقار غيرهم وأنه يجب أن يطبق عليهم من القوانين ما لا يطبق على الأوربي .

وكانت هذه عقيدة عامة في اليونانيين لا يختص بها واحد دون واحد ، بل نجدها سيطرت على كبار المفكرين فحرمتهم أن ينظروا إلى البشر نظرة المساواة .

فأفلاطون يقصر العدالة على اليونانيين ولا يجعلها تتعداهم إلى غيرهم من بني البشر . ويذهب إلى التفرقة بين اليونانيين وغيرهم وينصح للمدن اليونانية أن تتعهد فيما بينها العلائق الودية بل أن تتحالف ، وتؤلف أسرة واحدة ، فإن تحاربت فلا تدمر ولا تحرق ولا يسحق الغالب جميع أهل المدينة المغلوبة كأنهم أعداء بل يضرب الأقلية التي أثارت الخصام ، ويعامل الباقي معاملة الأصدقاء . ويقصر التدمير والتحريق والسحق على محاربة الأعاجم .

ثم يصرح بأن اليونان لا يسترق بعضهم بعضا . وإنما يسترقون الأعاجم ، لأن الرجل العادل لا يسترق قريبه وصديقه ، بل يسترق عدوه »[1] .

هنا نجد أفلاطون عنصريا بكل ما في الكلمة من معنى رأفة ورحمة مع بني جنسه ومع غيرهم الحرق والتدمير والسحق .

---

(١) ص ١٠٨ تاريخ الفلسفه اليونانية يوسف كرم عن الجمهورية .

هل كان أفلاطون عنصريا في وسط شعب لا يعرف العنصرية ؟

لا يمكن أن يكون هذا ، بل ورث العنصرية ورضعها مع لبن أمه . فلم يستطع أن يتخلص منها وبدلا من أن يلطفها جعلها شرعا يجب أن يطاع . وكان لعنصريته تأثير على أحكامه على الشعوب اذا ما تعرض للمقارنة بين شعبه وشعب آخر ، فنجده عند المقارنة بين الآثينيين والمصريين يصف (الأثينيين) بأنهم محبون للمعرفة والمصريين بأنهم محبون للثروة[1] .

ولذلك نجد « ول ديورانت » يرد عليه في هذه النقطة بقوله « ولعل في هذا الوصف كثيراً من المغالاة دفعته اليها النعرة الوطنية »[2] .

هذه هي نظرة الأوربي القديم لنفسه . وكل ماجاء بعد ذلك كان يعمق هذه النظرة ، ويزيد في الفوارق بين أوربا والإسلام ، فلقد انضم إلى العامل العنصري العامل الديني .

أوربا المسيحية التي كانت تنظر إلى الشرق هذه النظرة وجدت نفسها أمام الإسلام وجها لوجه .

وقد تعودت أوربا أنها تنتصر في معظم الحالات ، وحرب الاسكندر لازالت عنواناً على تفوق أوربا .

فلما جاء الإسلام تغيرت هذه النظرة ، وأصبحت أوربا ترى نفسها مهددة ومهزومة من الإسلام .

وكانت الحروب الصليبية كنتيجة لأحقاد استمرت أزماناً طويلة ، ووجدت أوربا نفسها موحدة ضد العالم الإسلامي .

---

(١) ص ١٥٠ قصة الحضارة جـ ٢ مجلد ١ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٠ .

« ويمكننا أن نقول ـــ من غير أن نوغل في المبالغة ان أوربا ولدت من روح الحروب الصليبية .

لقد كان ثمت قبل ذلك الزمن ، أنكلوسكسون ، وجرمان ، وفرنسيون ، ونورمان ، وإيطاليون ، وديناركيون ، وسلاف ، ولكن في أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة المدنية الغربية ، وأصبحت هدفا واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوربية على السواء .

وكانت تلك المدنية الغربية عداوة للإسلام وقفت عرابا في هذه الولادة الجديدة[1] .

هنا نجد أوربا بدأت مدنيتها بعداوة الإسلام وأخذت تفكر من يومها لا في الانتصار على الإسلام في معركة حربية بل في القضاء عليه نهائياً فنجد مثلا (غليوم دادان . . الردمنيكاني) يؤلف بين سنة ١٣١٠ م وسنة ١٣١٤ كتاباً يسميه كيفية استئصال المسلمين[2] .

واستمر الأمر حتى اليوم حيث نرى العداوة مستمرة ، ومحاولة القضاء على المسلمين لم تتوقف ، يقول ستودارد في تعليقه على حرب أوربا لتركيا : وهذا الذي نتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم . النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلة الوطنيين وبين اليونان في آسيا الصغرى إنما هو حلقة من سلسلة حروب بين الإسلام والنصرانية .

حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة .

وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحروب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأنجادها[3] .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٦ وكلمة عراب تعبير كنسي يقصد به وكيل الطفل المعمد .
(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٢١ .
(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ١٥ جـ ١ .

هنا نجد عقدة العداوة بين أوربا والإسلام قد استحكمت[1] .

ومما زاد استحكامها أن نهضة أوربا ولدت من حروب دينية بين الشرق والغرب هي الحروب الصليبية .

« إن الحرب الصليبية هي التي عينت في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربا من الإسلام لبضعة قرون تتلو . ولقد كانت الحروب الصليبية في ذلك حاسمة لانها حدثت في اثناء طفولة أوروبا في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها وكانت لا تزال في دور تشكلها .

والشعوب كالأفراد إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطناً مدى الحياة التالية ، وتظل تلك المؤثرات محفورة حفراً عميقاً ، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخر من الحياة والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة ، ثم يندر أن تزول آثارها تماماً .

وهكذا كان شأن الحروب الصليبية .

فإنها أحدثت أثراً من أعمق الآثار وأبقاها في نفسية الشعب الأوربي وأن الحمية الجاهلية العامة التي أثارتها تلك الحروب في زمنها لا يمكن أن تقارن بشيء خبرته أوربا من قبل ولا اتفق لها من بعد[1] .

ان هذا الحقد الذي امتلأ به الأوربي على الإسلام سيكون له أثره في كل حكم يصدر منه بعد ذلك .

فإذا ما حلت بالمسلمين نكبة على يد الأوربيين فإنما هو أمر طبيعي ، وقهر

---

(١) ويبدو من أسلوب المؤلف أنه يرى أن أوربا وحدها صاحبة مدنية وإن غيرها هم البربر الخ . . مع أن التاريخ يبين أن تركيا في حربها كانت عند انتصارها على أوربا أكثر احتراماً للانسانية من أوربا عند انتصارها على تركيا .

(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٥ ، ٥٦ .

المسلمين واستذلالهم ليس شيئاً ضد الأخلاق ، وانما كان من أحكام الزمان القاضية بسيطرة القوى على الضعيف[1] .

ان الفكر اليوناني الذي عبر عنه أفلاطون والذي ورثه الرومان فيما بعد ، ان هذا الفكر لازال مسيطراً على أوربا في العصر الحديث ، واذاً فقد ورث الأوربي الحديث عنصرية اليونان والرومان ، وأضاف اليها حقد الصليبيين .

وهنا نجد المنطق قد انعدم نهائياً عند اصدار اي حكم فيما يتعلق بالمسلمين فليس هناك الا الدعوة باستعمال القوة واستئصال المسلمين كما سنبينه فيما بعد .

ونسأل : هل هناك فرصة بعد كل هذا للقاء بين الأوربيين والمسلمين ؟

الجواب : لقد أصبح هذا اللقاء بين أوربا والإسلام شبه مستحيل .

يقول محمد أسد وهو الأوربي الذي اعتنق الإسلام ، يقول في ذلك إن اللقاء بين أوربا والإسلام غير ممكن .

إن التجارب التاريخية اصطبغت اصطباغا شديداً بعداوة الإسلام وهذا أيضاً الى حد ما إرث أوربا من اليونان والرومان :

« ان اليونانيين والرومان نظروا الى انفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون اما كل من كان أجنبياً عنهم ، وعلى الأخص اولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط فقد كان اليونانيون والرومانيون يطلقون عليهم لفظ البرابرة .

ومنذ ذلك الحين والأوربيون يعتقدون أن تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع .

ثم ان احتقارهم الى حد بعيد أو قريب لكل ما ليس أوربياً من أجناس

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٠ جـ ٤ .

الناس وشعوبهم قد أصبح احدى المميزات البارزة في المدنية الغربية[1] . على أن هذا الاحتقار للغير لم يكن سلبياً ، بل كان إيجابياً إذ ترى أوربا تربي أولادها على محاربة وغيرها وبخاصة المسلمين . ففي القرون الوسطى كان الإقطاع وكانت الفروسية وكان للفروسية قوانين عشرة ، يجب على الفارس اتباعها : القانون السادس منها أن يحارب غير المسيحيين بغير مهادنة ولا هوادة .

ومعظم المواقع الشهيرة التي ذكرت في كتاب (أغاني البطولة) كانت في محاربة المسلمين[2] .

أضاف الأوربي إلى رصيد العداوة أمراً آخر وهو التغني بحرب المسلمين . يشب الطفل فيسمع أنباء البطولة من بني جنسه ، وضد من ؟ ضد المسلمين .

وكما كان للفروسية قوانين ، كانت هناك الهيئات العسكرية الصليبية التي تنشىء أعضاءها تنشئة معينة . وكان على الأخوة الأعضاء أن ينذروا على أنفسهم الفقر والعفة والطاعة ، ثم دخل الآن ضمن واجباتهم حماية الحجاج بقوة السلاح .

وقد نشأت من ذلك المنظمات الحربية الكبرى للفرسان . وحروبهم التي لا تنقطع مع المسلمين[3] .

لم يعد موقف الأوربي من المسلمين موقف كره من غير مبالاة ، بل كره يتبعه حروب ، وتأصلت العداوة حتى أصبحت أغنية شعبية تتردد ، وتأصلت البغضاء . « ونمت مع تقدم الزمن ، ثم استحالت عادة ، ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة «مسلم » .

ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوربي رجلا كان أم امرأة .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٢ .
(٢) تاريخ العالم بحث ر . ب . موات أستاذ التاريخ في جامعة برستول .
(٣) المرجع نفسه ص ٣٨٥ .

وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافي[1] . لقد حصل لأوربا تغير فكري في العصر الحديث وذهبت قيم وجاءت أخرى .

كانت الكنيسة في العصور الوسطى هي المسيطرة ، وهي الموجهة ، ودور البابوات في الحروب الصليبية معروف لايحتاج إلى تأكيد . ثم تغير الأمر وذهبت سلطة الكنيسة ولكن الذي لم يتغير هو الموقف العدائي بالنسبة للمسلمين . تجد الموقف العدائي للمسلمين من أوربا هو هو . حتى من عادى المسيحية بقى محافظاً على عدائه للمسلمين .

والمثل على ذلك فولتير كان عدو الكنيسة ومع ذلك كان عدواً إلى درجة المغالاة للمسلمين .

ونسأل إذا كان عداء أوربا للمسلمين دينياً ، وقد ذهب التمسك بالدين في أوربا فلماذا يبقى العداء ؟

والجواب إن العداء لم يكن دينياً فحسب كما تقدم بل هو شيء آخر منذ أيام اليونانيين . عنصري من أيام اليونان .

ثم إن أوربا ـــ برغم كثرة الملحدين فيها ـــ لم تترك التمسك بالدين نهائياً ، وعلى فرض أنها تركت الدين فإنه لا غرابة أن تبقى العداوة .

وأنا أنقل هنا تحليل جوستاف لوبون لبقاء عداوة أوربا للإسلام والمسلمين ونكران أوربا كل فضل للعرب . حتى ولو كان هذا الفضل ظاهراً لا يحتاج إلى دليل يقول :

« إن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر في الحقيقة ، وإننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٩ ـــ ٦٠

فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية . والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأجداد وكانت خلاصة ماض طويل .

والشخصية غير الشاعرة وحدها ، ووحدها فقط ، هي التي تتكلم عند أكثر الناس . وتمسك منهم المعتقدات نفسها وهي مسماة بأسماء مختلفة ، وتملي عليهم آراءهم فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حراً في الظاهر فيحترم .

والحق أن أتباع محمد ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهابا ، عدة قرون ، وأنهم كانوا عندما لا يروعوننا بأسلحتهم ، كما في زمن شارل مارتل والحروب الصليبية ، أو يهددون أوربا بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس .

وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ، وصارت جزءاً من مزاجنا ، وأصبحت طبيعة متأصلة فينا ، تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحيانا ، والعميق دائما .

إذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ، ضد المسلمين مبتسرنا الموروث الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة : إن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي ، أدركنا بسهولة سر جحودنا . لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربا .

ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يرى ان اوربا النصرانية مدينة لأولئك الكافرين في خروجها من دور التوحش ، فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة[1] .

وهذا الحكم الذي توصل إليه « جوستاف لوبون » لا يختص به . وحده

---

(١) حضارة العرب ص ٥٧٨ ــ ٥٧٩ .

بل نجد الكثير يوافقه عليه .

فنجد محمد أسد يقول في تحليله بقاء عداوة أوربا للإسلام ، رغم ان الدين لم يعد هو المسيطر في اوربا :

« ولقد يتساءل بعضهم فيقول : كيف يتفق أن نفوراً قديماً مثل هذا ـــ وقد كان دينياً في أساسه وممكنا في زمانه بسبب السيطرة الروحية للكنيسة النصرانية ـــ يستمر في اوربا في زمن ليس للشعور الديني فيه إلا قضية من قضايا الماضي ؟

ليست مثل هذه المعضلات موضع استغراب أبدا ، فإنه من المشهور في علم النفس أن الإنسان قد يفقد جميع الاعتقادات الدينية التي تلقنها في اثناء طفولته ، بينما تظل بعض الخرافات الخاصة ـــ والتي كانت تدور من قبل حول تلك الاعتقادات المهجورة ـــ في قوتها تتحدى كل تعليم عقلي في جميع ادوار ذلك الإنسان .

وهذه حال الأوروبيين مع الإسلام .

فعلى الرغم من ان الشعور الديني الذي كان السبب في النفور من الإسلام قد اخلى مكانه في هذه الأثناء لاستشراف على الحياة اكثر مادية ، فإن النفور القديم نفسه قد بقي عنصراً من الوعي الباطني في عقول الأوروبيين .

واما درجة هذا النفور من القوة فإنها تختلف ـــ بلا شك ـــ بين شخص وآخر ولكن وجوده لا ريب فيه .

إن روح الحروب الصليبية ـــ في شكل مصغر على كل حال ـــ ما زال يتسكع فوق أوروبا ، ولا تزال مدنيتها تقف من العالم الإسلامي موقفا يحمل آثارا واضحة لذلك الشبح المستميت في القتال[1] .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٦١ .

(الخوف من الإســـلام)

وصلنا فيما تقدم إلى أن اللقاء بين أوربا والإسلام وعقد هدنة بينهما غير ممكن ، وأنه يقف في سبيل هذا عوامل أهمها . العنصرية الموروثة عن اليونان والرومان ، ثم ما خلقته الحروب الصليبية من أثر لم يستطع الأوربي أن يتخلص منه حتى بعد تخلصه من سيطرة الكنيسة ، بل ولا بعد الحاده وكفره بالأديان .

ونضيف هنا عاملاً آخر وهو : الخوف المسيطر على الغرب من الإسلام . وأن الإسلام مهما بدا ضعيفاً لا يمكن أن يؤمن جانبه ، بل يجب الحذر واتقاء شره . كيف يتقي شره ؟ . هو ما سنتكلم عنه فيما بعد .

أما لماذا يجب الحذر منه فهو ما نتكلم عنه الآن .

إن الكتّاب الغربيين يعيشون حيارى مع الإسلام .

ان الإسلام معجزة في نشأته ، وفي انتشاره ، وفي بقائه حتى الآن .

إنهم عندما يكتبون عن الإسلام ونبيه وكتابه وقادته دائماً يقعون في خطأ وهو أنهم يكتبون وكأنهم يكتبون عن قصص لأشخاص تعودوهم في تاريخهم .

وهذا الخطأ الذي يقعون فيه لا يحتاج إلى من يلفت نظرهم إليه من غيرهم ، بل هم أنفسهم يفاجأون بغير ما توقعوه .

والعجيب أنهم ــ على الرغم من الخطأ الذي وقعوا فيه ــ لا يغيرون أسلوبهم في الكتابه عن الإسلام ، لأن التغيير معناه الاعتراف بالإسلام كدين سماوي ، وهذا يعني اعتناقهم له وهو ما لم يوفقوا له حتى الآن .

إن الإسلام لا يخضع للقواعد العقلية الانسانية . إنه معجزة في جميع أدوار حياته . هو معجزة في نشأته ، « فلو قام في الثلث الأول من القرن السابع

الميلادي أحد وتكهن بأن دولة خاملة الذكر وضيعة الجانب ، تخرج من مجاهل جزيرة العرب ثم تقضي على الدولتين العظميين المعروفتين فتقوض الدولة الواحدة ـــ دولة آل ساسان ـــ وتظفر بأملاكها ثم تقتطع من ولايات الثانية بيزنطة ـــ أزهي مقاطعاتها .

نقول : لو صدرت مثل هذا النبوءة من فم إنسان في ذلك العصر لحكم عليه بالجنون . والواقع أن هذا ما حدث فعلا .

فبعد الرسول تغيرت بلاد العرب الجدباء ، وأخذت تنشىء رجالا أبطالا يندر وجود من يشاكلهم في أي وصف كان . فكأن أعجوبة حلت فيها فالحملات العسكرية التي قام بها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص فاتحين بها العراق ، وفارس وسورية ، ومصر هي أعظم الحملات التي يرويها تاريخ الحروب المدون .

وقد كشفت عن نبوغ قوادها ؛ وتفوقهم في أساليب القتال . وخلدت أسماءهم مع أسماء نابليون ، وهانيبال ، ويوليوس قيصر ، والأسكندر[1] .

هذا هو رأي « فيليب حتى » في الإسلام وقادته .

إنه يرى أن في ظهور العرب على الدولتين العظميين أمراً ما كان يمكن التنبؤ به وأن القادة الذين خرجوا من جزيرة العرب من أمثال خالد وسعد وعمرو لا يقلون عن نابليون وهانيبال وبوليوس قيصر والأسكندر .

وهنا نجده يقع في الخطأ الذي يقع فيه أمثاله ، برغم ما يبدو في قوله من إنصاف .

إن خالداً وسعداً وعمراً عندما يذلوا الأرواح وجميع ما يملكون في سبيل فتح هذه البلاد إنما فعلوا ذلك ابتغاء وجه الله ثم لخير الانسانية ، ولذلك نرى هذه

---

(١) تاريخ العرب ص ١٩٣ ـــ ٩٤ جـ ١ .

البلاد التي فتحوها لازالت تنعم حتى الآن بآثار هذا الفتح ما داموا متمسكين بمبادىء الإسلام الذي تم الفتح باسمه .

أما القادة الآخرون الذين ذكرهم فأين الفائدة التي عادت على الانسانية من أعمالهم .

ان ما حقّقوه كان وبالا على أعدائهم ؛ بل وعلى قومهم والانسانية جمعاء . لأي هدف إنساني سيرت تلك الجيوش ؟ لا جواب .

ولذلك ما إن انتهى الواحد منهم حتى شعرت الانسانية بأن الكابوس قد انزاح عن صدرها ؛ ثم تبدأ في تضميد جراحها بخلافها مع القادة الاسلاميين . فقد تمسكت بالاسلام الذي حملوه إليها ولازالت تدافع عنه وليس هنا محل للمقارنة بل المقصود أن الغرب عرف أن انتشار الاسلام وانتصاره في الماضي ما كان يمكن التنبؤ به وما حصل للاسلام في الماضي لم يكن عرضاً عابراً ولكنه صفة أساسية لازالت تلازمه .

فما زالت فيه القوة الكامنة التي يمكن أن تظهر في أي وقت لتقضي على كل ما يقف أمامها . إن الحركات الفكرية في الإسلام ــ كما يقول لويس ماسينيون ــ « تستعد في خفاء وصمت وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ... يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أي أساس واه تقوم عليه المنشآت الأوربية في بلاد الاسلام . فبعد أعوام من السكينة ربما تندلع بغته نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعاً لها[1] .

ويعلق (جب) على هذا محذراً قومه بقوله :

« والأسطر القيمة التي كتبها الأستاذ (ماسينون) في مقدمة وصفه لتيارات الفكر في المغرب يجب أن تكفي في تحذير أكثر الباحثين ثقة بنفسه كيف

---

(١) وجهة الإسلام ص ٥٥ .

تميد الأرض من تحته وكيف تخدعه المظاهر الخارجية التي ينظر إليها[1] .

إن القوم هنا يقول بعضهم لبعض : كونوا على حذر ، لا تأمنوا للإسلام ولا تطمئنوا إليه .

وعدم اطمئنانهم إليه لا يقوم على وهم وخوف بدون سبب ، بل يقوم على أسباب مدروسة ينطق بها الواقع .

نجعلها فيما يأتي :

أولا : الإسلام له قوة غريبة في التوحيد بين المسلمين وإزالة فوارق الجنس واللون واللغة .

ان الاسلام ـــ دون ان يكون له مثل من أي دين آخر ـــ له قدرة عجيبة على ان ينسى المسلم كل ما كان يعتز به قبل الأسلام .

فقد نسى الناس ـــ كما يقول جب ـــ في كل الأقطار تقريباً ما كان لهم من ماض قبل الاسلام .

نسى المصريون فراعنتهم وبطالسهم .

ونسى الأتراك خواقينهم ... وهلمّ جرا .

ورجعوا إلى بلاد العرب والخلفاء الأولين يتخذون منهم أسلافا روحيين وبمثل هذا الاذعان لسلطان الاسلام زادت قوة دعوته وكسب وسيلة جديدة لنشر تقاليده وتعاليمه .

ان المسلمين في مجموعهم كانوا يشعرون بما بينهم من قربى وكانوا يظهرون عملياً في حياتهم الاجتماعية اثر هذا الاعتقاد :

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٠٦ .

فالمسلم في المغرب يحس في الهند أو جاوة كأنما هو في مراكش سواء بسواء وله الحق أن يغدو ويروح ويتزوج ويقيم كما يشاء ، لأن دار الإسلام كلها وطنه الذي لا وطن له سواه .

ربما ينصب ميله إلى مسقط رأسه ، ولكنه يفرق بين ولائه له وكل تلك العواطف التي نقرنها بحب الوطن على العالم الإسلامي وثقافته الدينية جميعا .

وعلى ذلك فإن الاسلام الذي هو موضوع بحثنا ليس دينا بالمعنى المجرد الخاص الذي نفهمه اليوم من هذه الكلمة . فحسب ،بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال ، يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الانسانية[1] .

هذه القدرة على جمع الأتباع دون النظر إلى جنس أو لون والتي انماز بها الاسلام يرى الأوربي أن أوربا نفسها عاجزة عن مثل هذا العمل بين الأوربيين . ففي أندونيسيا ــ كما يقول (ك . ك . برج) نجد شركة اسلام التي زاد عدد أعضائها على مليونين في بعض الأحيان .

وإن تاريخها ليبين أنها تكونت من عناصر غير متجانسه وأن هذه العناصر لم تشعر قط بما بينها من اختلاف نعرفه من القديم والحديث من المؤلفات في جاوه .

وليس في أوربا جمعية كانت تستطيع أن تفلح في الاحتفاظ بحياة مضطربة متقلبة الأطوار مدة عشرين سنة كما فعلت شركة اسلام[2] .

ثم يقول عن الحركة القومية : ــ

« والحق إن تاريخها أشد اندماجا بتاريخ الحركة الدينية المحضة التي تبوأت

---

(١) وجهة الاسلام ص ١٣ ــ ١٥ .

(٢) وجهة الاسلام ١٨٤ ــ ١٨٥ .

المكان الأول في العشرين سنة الأخيرة .

ولا يزال شعور الوحدة بحالة من تأثير عظيم يلعب اليوم ـــ كما لعب دائما ـــ دورا في وصل الحركات بعضها ببعض »[1] .

والأعداء يدركون أن الحوادث التي تنزل بالعالم الاسلامي تبين مدى قوة هذه الوحدة وأن المسلم في أقصى الشرق يحس احساسا حقيقيا بما ينزل بأخيه في الغرب . هذا ما يجعل أمثال ، روجر لابون ، ينادى قومه محذراً من هذا الشعور المشترك بين المسلمين حين يقول : ـــ

« ان الاهتمام الذي يراقب به العالم الاسلامي حركات الثائرين من مسلمي آسيا لأجل التخلص من ربقة الغرب هو إرهاص لا يجوز الاستخفاف به .

فإن فوز شعب اسلامي على حكومة أوربية لايخلو أبدا من رد فعل يمتد إلى أقصى البلدان عن مسرح المعركة .

فلو رأيت جرائد الاستانه أيام انكسار الاسبانيين في الريف كيف كانت تهلل وتكبر ، وتنشر في صفحاتها الأولى بشائر نصر المراكشيين المسلمين وخرائط ميادين الحرب لقضيت بالعجب .

وانك لترى أقل اضطراب يقع في برقة أو تونس أو سورية أو الهند مبالغا فيه أشد المبالغة في الصحف التركية .

مع ذلك سياسة محاسنة الاسلام لاتزال ماشية على ما فيها من تضليل الأفهام ونبذ النصائح المبنية على التجارب .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٨٥ .

ولا يبرح بعضهم معتقدين ألّا خطر من هذه السياسة[1] .

وإذاً فالعدو يدرك تأثير هذه الوحدة وهذا ما يجعله يطيل التفكير في القضاء عليها .

ثانيا : سهولة الاسلام وسرعة انتشاره .

أن الاسلام دين سهل يعرف طريقه إلى القلوب فاذا ما تمكن من هذه القلوب لا يخرج منها بل يسيطر عليها . والسهولة العجيبة التي ينتشر بها الاسلام ـــ كما يقول جوستاف لوبون ـــ شاملة للنظر تماما . فالمسلم أينما مر ترك خلفه دينه[2] .

وهو ـــ كما يقول (ك . ك . برج) دين الديمقراطية .

وقد استمد قوته على الدوام من حب الجماهير له حبا حماسيا .

إن الاسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانا وإن معتنقيه ليفخرون به ولكن مع فخرهم هذا لا يدفعون غيرهم .

[الاسلام يعلو] تلك صيحة الداعية المسلم يدعو بها الوثني لدينه : ادخل في الاسلام فتكون من الجماعة الاسلامية السامية .

وما أسهل اعتناق دين محمد ﷺ .

هو لا يستلزم دراسة معقدة فليس هناك إلا النطق بالشهادة التي تتضمن الأيمان بالله الذي لا شريك له ورسوله .

وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية[3] .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ٣٠١ .
(٢) حضارة العرب ٦١٦ .
(٣) وجهة الاسلام ١٦٠ .

وسهولة الاسلام ويسره وجذب الناس إليه وتمسكهم به ، كل هذه عوامل أضرت بالمسيحية وجعلت المعنيين بالدراسة الدينية منهم يلفتون نظر حكومتهم إلى مراقبة المسلم وعد حركاته .

يقول المستشرق « هور غرونيه » مخاطبا الحكومة الهولانديه :ـــ يجب على الحكومة أن تحذر وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام في البلدان التي أصلها وثنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . . . كما يؤثر جولان التجار المسلمين فيما بينهم .

ولعمرى لا يمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا في تلك الديار بحجة أنهم يدعون إلى الاسلام إذ يكون ذلك عملا مخالفا للعدل .

ولكن يجب تدبير الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين[1] .

فالاسلام إذاً عائق أمام تقدم النصرانية وطالما شكا الحكام مما يلاقيه المبشرون منه مر الشكوى ورأوا أنه عدو صعب المراس مهما بدا على اتباعه من علامات الضعف ، وأن مقاومة الاسلام للمبشرين المسيحيين شديدة في البلاد البعيدة ، وكلهم يعرفون ذلك ، ولا حاجة لأحد ـــ كما يقول (ك . ك. برج) ـــ ممن عنوا بدراسة الكفاح بين الاسلام والمسيحية في جهات العالم الأخرى أن يخبره أن في اندونيسيا أيضا يجد المبشرون المسيحيون من الاسلام منافسا خطيراً ، وخصما وأنهم لم يحرزوا إلا قليلا من النجاح ، ويجب أن نضع أمامه الخسائر التي عانتها المسيحية بسبب انتشار الاسلام بسرعة أكثر منها[2] .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي تعليق شكيب أرسلان ص ٣٤٠ .

(٢) وجهة الاسلام من ١٠٧ يجب أن تعرف أن التبشير في أندونيسيا الآن أصاب نجاحا ضد الاسلام وقد دخل للأسف عدد كبير في النصرانية وساعد المبشرين إمكاناتهم الضخمة وفقر البلاد وعدم تمكن المسلمين في أمور دينهم بسبب كثرة الجزر وصعوبة المواصلات والواجب أن تهتم البلاد الاسلامية بأمر الاسلام في أندونيسيا قبل أن تصبح الفلبين الثانية .

انهم هنا قد ضاقوا ذرعاً بهذا الدّين الذي يقف عقبة في سبيل نجاح دعوتهم .

ثالثا : ان الاسلام لا يقف موقف المدافع أو موقف المتفرج الذي يكتفي بالموقف السلبي .

بل ان الاسلام يهاجم ، وأتباعه يزيدون يوما عن يوم :

فاذا أخذنا الهند كمثال نرى المسلمين زادوا بنسبة ١٣٪ والهنود بنسبة ١٠٪ . .

ولقد كان المسلمون كما يروى (كولونيل م . ل . فرار) عن الأمير أغاخان ـــ منذ خمسين سنة خمس سكان الهند وهم الآن ربعه وقبل أن يكتهل أبناؤنا سيكون ثلثه .

ثم يقول (م . ل . فرار) : ـــ

« ويجب أن نضع إزاء هذا التقدير مسألة أخرى هي أن الهنود ازدادوا بنسبة عشرة في المائة .

ولكن نسبة زيادة المسلمين برغم هذا تعلو باستمرار .

وربما كان لهذا الازدياد السريع في الهند نظيراً في الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي التي يحكمها الأجانب أو يشرفون عليها[1] .

رابعاً : ان آمال المسلمين في نشر دينهم لا تقف عند حد أنهم يفكرون فحسب ، بل هم قد بدءوا فعلا في غزو المسيحية في عقر دارها .

فبدل أن ينتقل المسلمون إلى دين مستعمريهم ، نراهم يحاولون إدخال هذا المستعمر في دينهم .

---

(١) المرجع نفسه ص ١١١ . ومن هنا بدأت الدعوة لتحديد النسل .

فمثلا في الجزائر ـــ كما يقول لويس ماسينيون ـــ تسود الشعور الإسلامي عاطفة غريبة جداً ، وليست مجرد الأمل في كسب عطف الفرنسيين ، بل طموح من جانب المسلمين لأن يشقوا طريقا لا ـــ لأنفسهم أفرادا بل ـــ للاسلام في عقل وروح فرنسا ذاتها . وهناك طائفة من كتاب الجزائر المسلمين الذين يجيدون الفرنسية أيما إجادة ويحاولون استخدامها في بث الدعاية في فرنسا نفسها .

ثم إنهم لا يقصرون هذه الدعاية على أن يستردوا للاسلام أولئك المسلمين المقيمين في فرنسا والذين ربما استهدفوا لخطر الانفلات من دينهم ولكنهم يستشرفون إلى أغراض أبعد من ذلك .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض المسلمين البارزين بدءوا يدركون التأثير الذي تستطيع أن تحدثه الجاليات الإسلامية في فرنسا .
ولا يرغبون في أن يقل ذلك التأثير بعودة جميع المسلمين إلى بلادهم .

ومما يذكر أن قليلا من الفرنسيين في نواحي متفرقة قد اعتنقوا الإسلام بتأثير مسلمي المغرب ولكن من اعتنقه من النساء أقل من ذلك : ولم تعتنق بعض الفرنسيات الإسلام إلا في تونس ، حيث ظهر أن طابع الإسلام الروحي يبعث فيهن افتنانا خاصا[1] .

هذا القليل من الفرنسيين أو غيرهم الذين اعتنقوا الاسلام قد أزعج الذين يناصبون الاسلام العداء وما أكثرهم في الغرب .

ان أعداء الاسلام يرون أن دعاته وإن كانوا قد استطاعوا أن يدخلوا القليل من الأوربيين في الاسلام فإنهم قد استطاعوا أن يجعلوا كثيراً ينظرون إلى المسلمين بعين العطف على قضاياهم ، إما إرضاء للمسلمين وإما للكيد للدول الأوربية الأخرى وهو ما جعل « روجر لابون » ينادي قومه محذرا من هذا قائلا : نجد

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢١٥ ـــ ٣١٦ جـ ١ .

الناس في فرنسا ينظرون بدون قلق إلى القلاقل وإلى حركات العصيان البادية في العالم الاسلامي ، بل ربما ينظرون إليها مع شيء من الشماتة أو السخرية ببعض جيراننا الذين لا يوصفون بخلوص النية[1] .

ثم يدعو قومه إلى عدم التهاون مع المسلمين .

ونجد التحذير من الإسلام لا يقف عند واحد دون آخر بل يكاد يكون عاما بين الجميع منهم . وأن التفاؤل — كما يقول المسيو كوليه البلجيكي — إلى حد التأميل بأنه يمكن احتكار قوة الاسلام الحيوية في سبيل منفعة دولة أوربية ، هو حلم لذيذ لكنه غير مبني إلا على مطالعات كثيرة من ذوي العقول السطحية[1] .

و« لامنس » في أول كتابه « محمد » يغضب من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التي كانوا بدءوا يذوقونها .

ولم يقدر أن يغفر للقرآن إدخاله في الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر ، واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر في أفريقيا وآسيا بمرأي ومسمع من المبشرين المسيحيين[2] . ويتناول « جوستاف لوبون » الموضوع موضحا انتشار الاسلام وخوف أوربا من أن يهدد النصرانية من جديد فيقول :

« ويتقدم الاسلام في الصين تقدما يقضي بالعجب ويكتب للإسلام أسطع فوز في الصين ، حيث اضطر المبشرون الأوروبيون الى الاعتراف بالحبوط » .

وقد رأينا أن عدد أتباع محمد في الصين عشرون مليونا وفي مدينة بكين وحدها مائة ألف مسلم . ثم يقول لوبون :

« قال الأستاذ وازيلياف دخل الاسلام مملكة ابن السماء كما دخلتها

---

(١) المرجع نفسه ص ٣١٦ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣١٨ .

البدهية والبوذية . وسيقوم الاسلام ـــ ومسلمو الصين لا يشكون في ذلك ـــ مقام ديانة شاكية موتى وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية فاذا وقع مثل هذا الحادث ، واعتنقت الصين التي تضم ثلث البشر على الأقل دين الاسلام تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيراً عظيما وأمكن دين محمد الذي يمتد اذ ذاك من جبل طارق الى المحيط الهادي أن يهدد النصرانية من جديد »[1] .

هنا نجد الخوف يبدو واضحا من انتشار الاسلام . مع أن الصين ليست نصرانية ولكن ليكن أي دين ما عدا الاسلام .

إن الأديان الأخرى عقيمة لا يخشى من انتشارها أما الاسلام فإنه ـــ كما يقول آرثر بلكرين يخفي في مطاويه قوى يمكن أن ينشأ من انفجارها السريع الآتي ذات يوم ما يكون منه ثم تهديد أوربا ومدنيتها[2] .

إلى هنا اتضحت عداوة أوربا للاسلام . وأن هذه العداوة ليست مبنية على أسباب مرت وانتهى أمرها أو على خوف من المستقبل لا أساس له بل عداوة اجتمع لها كل الأسباب : من ناحية الأصل اختلاف عنصر زرع أصله من أيام اليونان والرومان ثم زادتها الحروب الصليبية ضراوة ولازال يشعل نارها حتى الآن الخوف من المستقبل ماذا سيكون موقف الاسلام ؟ إن كل كسب له معناه نقص للغرب وكل إضعاف له معناه : تقوية للغرب .

ومن هنا كان لابد ـــ في نظر الغرب ـــ من تجربة جميع الطرق في حرب الاسلام وكان من هذه الطرق الحروب الصليبية وقد منيت بالفشل .

وجاء العصر الحديث وأخذ الغرب يتجه من جديد الى الشرق بعد ضعف تركيا وجاء هذه المرة لا باسم الدين بل باسم التجارة والسيطرة على طرقها ولكنه ـــ في حقيقة الأمر جاء ونوايا الحروب الصليبية معه .

---

(١) حضارة العرب ص ١٠١ .

(٢) وجهة الإسلام ١٧٩ .

إنه لم يندم على هذه الحروب بل لازال سائراً في طريقها ، بل ولا يزال يعلن ذلك ويفكر فقط في أن يتجنب الطرق التي يسببها فشل أجداده في القضاء على الأسلام .

الدعوة إلى القوة لازالت موجودة ، والجميع مجمع عليها ، إلا أنهم يختلفون في أن البعض لا يستطيع أن يكتم حقده فيصرح بما في صدره ، والبعض الآخر يرى أن الوقت لما يحن بعد ، ولا بد من السير في الطريق ولكن بتؤدة .

وان الصليبي في العصر الحديث لا يسكت عند ما يسكت صوت المدفع وإنما يداوم للغزو الفكري عندما يكف عن الغزو المسلح أو معه أيضاً .

وفيما يأتي سنبين بعض أنواع الغزو التي تجرب ضد الإسلام .

الفصـــل الثالث
الحـــرب ضـد الإســـــلام

ماهي الوسائل التي رآها الأعداء توصلهم إلى ما يريدون من نتائج ؟ وهي القضاء على الأمة الاسلامية . ؟

إن العدو وضح من أقواله قديماً وحديثاً أن القضاء على الأمة الأسلامية قد يكون بأمور منها : ــ

١ ــ هزيمتها في ميدان القتال ، لتفقد استقلالها السياسي .

٢ ــ هزيمتها في ميدان الفكر : لتفقد استقلالها الفكري ، فتفكر بعقول غير إسلامية .

٣ ــ هزيمتها في ميدان الدين بتنصيرها فتفقد وجودها .

٤ ــ هزيمتها في ميدان الوحدة ، فتصبح أمماً متفرقة ، لا رابط لها يقتل بعضها بعضاً ، ويصبح وجودها لا يطمئن صديقًا ولا يقلق عدوًا .

هذه هي بعض الميادين التي يحاربنا فيها العدو . وقد أعلن الحرب علينا فيها جميعاً في وقت واحد ، وأعد لكل حرب جنوداً متخصصين .

وبالنسبة لمعالجة الموضوع فإننا لن نتعرض للنقطة الأولى إلا اذ كانت تفيدنا في موضوعنا .

وأما النقاط الثلاث الأخرى فهي موضوع هذا البحث ، مع العلم بأن هذه النقاط متشابهة ، وقد يختلط الأمر فيها . فما هو وسيلة للسيطرة على الفكر قد يكون وسيلة للتنصير ، وماهو وسيلة للقضاء على الوحدة قد يكون وسيلة للسيطرة على الفكر ، ولذلك نرى الفصل بين هذه النقط ليس فصلا كاملا .

والآن ننتقل الى التفصيل .

أولا : في ميدان القتال

الدعوة لاستعمال القوة مع المسلمين

كان لاعتقاد النصارى أن الاسلام انتشر بالسيف ، أثره في محاولتهم القضاء عليه بالقوة .

وعند ما نقرأ المذابح التي كانت من النصارى ضد المسلمين في فترات التاريخ نجد أنفسنا أمام مشاهد تبرأ منها الوحوش الضارية ولو كان راوى هذه المجازر من المسلمين لكان للنصارى أن يشككوا في روايته ولكن الرواة ها من النصارى . ولنضرب مثلا بالحروب الصليبية .

إذ ترى في كل صفحة من الكتب التي ألفها النصارى في ذلك الزمن — كما يقول جوستاف لوبون — براهين على وحشية الصليبيين . ويكفي لبيان ذلك أن ننقل الجزء الآتي الذي رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين في مدينة « مارات » للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية ، وذلك بالاضافة الى ما حدث حين الاستيلاء على القدس .

قال المؤرخ الراهب :

« كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ، ليرووا غليلهم من التقتيل وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ، كانوا يذبحون الأولاد والشباب والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا ، وكانو يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة .

وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه فبقروا بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية ، فيا للشّره ، وحب الذهب .

وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث .

ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد يرضي بالنصرانية دينا[1] ، ثم أحضر « بوهيموند » جميع الذين اعتقلهم في برج القصر ، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم ، وبسوق فتيانهم وكهولهم إلى أنطاكية لكي يباعوا فيها » .

ثم يقول :

« وكانت القدس تابعة في ذلك الحين لسلطان مصر الذي استردها من الترك فاستولى عليها الصليبيون في ١٥ من يوليو سنة ١٠٩٩ .

وقد جاء في الأقاصيص أن « القديس جورج » تراءى للصليبين من جبل الزيتون وأنه حرضهم على القتال ، فانقضوا على أسوار القدس واقتحموها .

وكان سلوك الصليبين حين دخول القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر ابن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون » .

قال كاهن مدينة أبوس « ريموند داجيل » :

« حدث ماهو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس ، وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم ، وبقرت بطون بعضهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار وحرق بعضهم في النار ؛ فكان ذلك بعد عذاب طويل .

وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا » .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٢٥ واستقبال المسلمين للموت بصدر رحب هكذا هو الذي جعل الأعداء يقرون بهذه المعجزه للاسلام بقول فيليب حتى عن المسلمين وهيأهم دينهم الجديد إلى أن يسخروا من الموت ويحتقروا الحياة (تاريخ العرب ص ١٩٤ ــ ١٩٥ جـ ١) .

وروي ذلك الكاهن خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر فعرض الوصف اللطيف الآتي : ـــ

« لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان ، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك ، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها .

وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة .

ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم نحو ستين ألفاً ، فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيام ، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا ولداً ولا شيخاً »[1] .

وعندما جاءوا المعرة معرة النعمان قتلوا ـــ على رواية « تبشو » ـــ جميع من كانوا فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع المختبئين في السراديب ، وأهلكوا صبراً ما يزيد على مائة ألف إنسان في أكثر الروايات .

وكانت المعرة من أعظم مدن الشام ، وأتاها سكان الأطراف بعد سقوط أنطاكية يعتصمون فيها[2] .

ويقول جوستاف لوبون عن صلاح الدين بعد استيلائه على القدس :

« ولم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش ، فيبيد النصارى على بكرة أبيهم ، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم ، مانعاً سلب شيء منهم »[3] .

(١) حضارة العرب ص ٣٢٦ ـــ ٣٢٧ .
(٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٣٩٦ .
(٣) حضارة العرب ص ٣٢٩ .

هذا مثال لوصف مؤرخي النصارى لما حصل من بني قومهم من الحروب الصليبية . وأنا في الحقيقة بهذه المناسبة ، لا أجد مبرراً للتفرقة بين ما حصل من الصليبيين في الحروب الصليبية ، وما حصل من التتار ،ـــ بل أعتقد أن التتار كانوا أقل جناية على الإنسانية من هؤلاء الصليبيين .

وللعجب نرى أوربا التي حصل منها هذا لازالت تصف التتار بالبربرية وبأشنع الأوصاف كأنها بريئة من هذا .

هذا ما حصل من النصارى كما وصفه مؤرخ نصراني . وأما ما حصل من المسلمين بعد انتصارهم فهو ـــ كما يصفه مؤرخ نصراني كذلك ـــ « ان المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والانسانية فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه اذ صار رجال الشرطة ـــ بناء على أوامر صلاح الدين ـــ يطوفون في الشوارع والابواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين[1] .

وإذا كانت أوربا قد ارتكبت هذا ضد المسلمين في العصور الوسطى هل هي الآن نادمة على ما حصل منها كما قالوا لنا ؟

الحقيقة أن أوربا غير آسفة ، بل لازالت تفكر في العودة إلى هذه الحروب الصليبية وينادى بها البعض علنا ، والبعض الآخر لا يعارض في الفكرة ولكنه يرى أن الوقت لم يحن بعد ، أو يرى أنه يمكن سلوك طرق أخرى تختلف فيها الوسيلة ولكنها تؤدي إلى نفس النتيجة . فنجد إيطاليا في العصر الحديث وقت استعمارها لليبيا تقوم بإخراج الآلاف ، من سكان الجبل الأخضر ، وتسكنهم في صحراء قاحلة بالقرب من ارض سرت ، وكانت هذه العملية سبباً في موت عدد كبير منهم ثم عمدوا إلى الأطفال الذين هم بين سن الرابعة والخامسة وحملوا الكثير منهم إلى إيطاليا لكي ينشؤوا على الدين المسيحي .

ولم يرقوا للبكاء ولا للصراخ من الآباء والأولاد .

(١) تاريخ الحروب الصليبية تأليف ستيفن رنسيمان ص ٧٥٢ جـ ٢ .

وهم لا ينكرون هذا ، بل تفتخر به الحكومة الإيطالية في مجلس الأمة الإيطالي . وأما اليونان فهم ـــ كما قال سلامة موسى ـــ : ما زال اخواننا اليونانيون يتشاءمون من يوم الثلاثاء لأنه هو اليوم الذي دخل فيه محمد الفاتح القسطنطينية ، ومازالوا يتغنون بالأغاني التي تصبو . إلى الامبراطورية القديمة ومازال عامتهم يذكرون أن أيا صوفيا كانت كنيسة ثم صارت مسجداً[1] .

فإذا انتقلنا من إيطاليا واليونان إلى إنجلترا وجدناها لا تخفي عداءها للاسلام فوزيرها الأول « غلادستون » وهو أحد موطدي الإمبراطورية في الشرق يقول : مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق ؛ ولا أن تكون هي نفسها في أمان[1] .

القرآن عقبة في سبيل استقرار بريطانيا في الشرق بل وخطر على أمنها هي نفسها ؛ إذاً لابد من محاربته ، وحجتهم الظاهرة أنه لا يتلاءم مع المدنية .

فقد زعموا ـــ كما يقول هاردي ـــ أن الإسلام ليس من الأديان الاجتماعية ولا يحسن منتحلوه التلاؤم مع موجبات الحضارة .

وذهبوا إلى أن الواجب أن تنظم آخر حملة صليبية للقضاء على الدين يقول : « ولم أر دعاة الاستعمار بعد هذا إلا أن يضيقوا من دائرة الإسلام ، ويحصروه في أرضه وينشطوا الوثنية ، لأن من يدينون بها أقرب إلى التمثل »[2] .

هذا هو رأي الإنجليز الذين وصفوهم لنا وقت أن كنا طلبة ؛ بأنهم لا شأن لهم بالدين ، وأن كل إنسان حر في تدينه .

والحقيقة أنها ما سكتت عن القضاء على الإسلام إلا عجزا منها عن تنفيذ ما تريد .

---

(١) حضارة العرب ص ٣١٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٦ .

وأما فرنسا فهي ـــ كبني جنسها ـــ تمتلىء غيظا من الاسلام وسيطرته ، فلو كان بربر أفريقيا ـــ كما يقول « روجر لابون » ـــ يتبعون غير دين الإسلام لكان مركزنا هناك أقوى مما هو اليوم[٣] .

ثم يحذر قومه قائلا للحكومة : إن عليها أن تأخذ حذرها من ديانة هي ـــ فيما عدا بعض مبادىء نادرة فيها شيء من السماحة ـــ يمكن أن تختصرها بهذه الجملة : قاتلوا الكفار ، واستعبدوهم واطرحوهم في الأرض[١] .

ثم يلوم قومه لأنهم يعيشون غير مكترثين بالقلاقل التي تحصل في بلاد إسلامية ضد دول أوربية أخرى ، وأنهم ـــ أي قومه ـــ يظنون أن سياسة الملاينة ربما تنفع مع المسلم وتدفع خطره ، وينخدعون بكل سهولة بظاهر الشرقي الذي من شأنه كتمان سريرته تحت ستار الأدب الغض ، والكياسة الزائدة ، وينسون أن الإسلام المبني على قاعدة الخضوع للقوة الغالبة تصلح له الصرامة وسياسة الحزم ، أكثر من سياسة التودد والمراءاة عن حقوقه[١] .

ثم يأخذ في بيان خصائص الإسلام ـــ حسب زعمه ـــ مبينا أن ديانة النبي تحتم على أتباعها الاستسلام للقوة وانها تجعل القوة كخاصية إلهية ، وإذا كانت القوة من الله فمن ذا الذي يقدر أن يناهض قوة الله .

ثم يوجه إلى قومه النقد في معاملتهم المسلمين ، وأكثر ما يحدث من الاغلاط في سياسة الأمم ناشيء عن الجهل بهذه الحقيقة ، أي كون الإسلام عبدا للقوة .

فالإسلام لا يخضع بفطرته إلا للسلطة القاهرة[٣] .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي ص ٣١١ ـــ ٣١٢ جـ ٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣١٨ .
(٣) المرجع نفسه ص ٣٠٦ .
(٤) المرجع نفسه ص ٣٠٧ ـــ ٣٠٨ .

وهو يغالط نفسه بالطبع ويغش قومه ، لأن الإسلام لم يكن عبدا للقوة في يوم من الأيام وأحكامه في ذلك معروفة بقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾[٤] ونحن لن نرد عليه إلا بما وقع بالفعل ، فإن قومه قد أخذوا بنصيحته ونصيحة أمثاله ، فكانت نهايتهم الفشل وانتصار المسلمين عليهم .

وينتقل الأمر إلى رجال الدين . ونرى الجميع يرددون نغمة واحدة فلذلك زعم لامنس أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ، ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام[١] .

هذا الاتجاه إلى حروب صليبية أخرى هو ما نفذته أوربا بالفعل ، حتى ان هذه الفظائع ضد العالم الإسلامي خاصة ، والأمم الشرقية عامة قد حركت ضمير كثير من الأوربيين .

قال الكاتب الأنجليزي الشهير « سدني لو » سنة ١٩١٢ :

« ما أشبه غالب الدول النصرانية في سلوكها هذا الذي ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات إزاء الأمم الشرقية ـــ بعصابة من اللصوص يهبطون على الحلل الآمنة : أهلها ضعفاء فيثخنون فيهم ، ثم ينقلبون بالغنائم والأسلاب .

ما بال هذه الدول لا تنفك تدوس حقوق الأمم المجاهدة في سبيل النهضة ، وعلام هذا العنف الذي تضرب به الشعوب المستضعفة ، وهذا الجشع الكلبي لا نتياش ما بين أيديها وما خلفها .

إن هذه الدول الغربية النصرانية هي بفعلها هذا مؤيدة للدعوة الباطلة : إن القوى الشاكي السلاح يحق له الانقضاض على الضعيف الأعزل ، وآتية بالبرهان

---

(١) البقرة : ص ١٧٨ .

(٢) عن تعليق شكيب أرسلان على حاضر العالم الاسلامي ص ٣٦ جـ ١ .

القاطع على أن مكارم الأخلاق والآداب الاجتماعية ، لا شأن لها البتة حيال القوة المسلحة »[1] .

هذه هي الصليبية الجديدة تسير على نهج الصليبية القديمة هدفهما : إبادة المسلمين واقتلاع الاسلام من على وجه الأرض .

وتسأل كيف استطاع مشعلو نار الصليبية الجديدة كسابقيهم أن يسوقوا شعوبهم إلى هذه الحرب ؟ والجواب : لأن هذه الشعوب تربت على بغض الاسلام ، حيث اجتهد كاتبوهم في إظهار الاسلام بمظهر كريه ، وتفتحت عين الأوربي على مخلفات مملوءة بالأكاذيب ، تتعلق بقواعد الاسلام وسيرة نبيه وكتابه .

وكان لهذه الأباطيل كل سيطرة على عقل الأوربي ، حتى إن كبار مفكريهم لم يستطيعوا التخلص منها حتى الآن .

وفي ثنايا هذا البحث ستجد كيف أن هؤلاء المفكرين بل وتلامذتهم من المسلمين الذين تلقوا على أيديهم ثقافتهم ، دون أن يرجعوا إلى دينهم ليعرفوا عنه حقيقته ، كيف أن هؤلاء وأولئك وقعوا ضحية هذه الأكاذيب التي حيكت اثناء العصور الوسطى ؛ فاذا ماسمعوا ماهو ضد الاسلام صدقوه فإن كان جنديا أطاع وإن كاتبا كتب .

ولكن هل أفادت الصليبية الجديدة من إبادة المسلمين ؟

الجواب : لا ، بل كانت ـــ كما عبر عن ذلك أحد عظماء المسلمين قبيل

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ١٢ جـ ٤ وفي الحرب التي تدور رحاها الآن بين مصر وسوريا من ناحية واسرائيل ومن ورائها الدول النصرانية من ناحية أخرى ، قال مراسل الاذاعة البريطانية الذي زار الجبهة يوم ١٩٧٣/١٠/١٩ م عن الجنود النصارى الذين جاءوا لمساعدة اسرائيل قال : ومنهم من خاض هذه الحروب بنفس الروح التي دفعت الصليبيين لخوض غمار الحروب الصليبية .

الحرب العامة في هذا الصدد ــ قال : إن هذه الدواهي التي دهتنا ، والنوازل التي نزلت بالعالم الاسلامي خلال العشر السنوات الأخيرة قد جددت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي ؛ من حيث أشعلت صدورنا مقتا وكرها وعداء للبغاة المعتدين علينا[1] .

لقد قال جوستاف لوبون عن آخر حملة صليبية قادها لويس التاسع على تونس بعد فشله وأسره في المنصورة ثم إصابته بالطاعون وموته في ٢٥ أغسطس سنة ١٢٧٠ م .

قال لوبون :

« وكانت تلك الحملة الثامنة أخرى الحملات الصليبية . فيها ختمت تلك المغازي الكبيرة الى الأبد وبقي المشرق خاضعا لأتباع النبي العربي .

ولم يلبث النصارى أن خسروا ما كانوا يملكون من النواحي القليلة في فلسطين ، وأراد البابوات أن يوقظوا حمية النصارى الدينية على غير جدوى .

فقد فترت حرارة الايمان في النفوس وصار همّ شعوب الغرب مصروفا إلى أهداف أخرى »[2] .

فشلت إذاً الحملات العسكرية الصليبية القديمة ، وتلتها في الفشل في تنصير المسلمين العسكرية الصليبية الحديثة ، وإن كانت هذه قد استقرت في البلاد الاسلامية لتقضي على استقلالها ، ولكن العداء مستحكم ، والوئام من المستحيل أن يحل محل الخصام ، وكان العدو قد استفاد الكثير من تلك الحروب الطويلة .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦ .
(٢) حضارة العرب ص ٣٣٢ .

كان مما استفاده :

أولا : وجد أن الصليبيين في الحروب الصليبية كانوا أكثر عددا وأقوى عدة ، ومع هذا هزموا بعد أن استمرت الحروب قرنين من الزمان ، وعرف أن الوازع الديني كان وراء انتصار المسلمين ، ومن هنا لم تأخذ المسلمين رحمة بمن خان دينه فقد دبرت الخاتون صفوة الملك على ابنها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله ، لما تأكدت أنه اتفق مع الأفرنج على أن يسلمهم دمشق . وطالما تنازع المسلمون ؛ ولكنهم تناسوا بسرعة كل ما كان بينهم أمام الغزو الصليبي ، وتنازل كل واحد منهم عما كان يطالب به الآخر .

ثانيا : رأى العدو انه إذا فشل الغزو العسكري في القضاء على الاسلام فإن الغزو الفكري يمكن أن يقوم مقامه أو يفوقه ، وأن ثمرات الغزو الفكري وإن كانت بطيئة إلا انها مضمونة .

ثانيا : في ميدان الفكر

الغـزو الفـــكري

تمهيـــد :

يمكن للعدو أن يسيطر على عدوه إذا هزمه في إحدى ناحيتين أو كليتها الناحية العسكرية ، والناحية الفكرية .

وقد درس الغرب المجتمع الإسلامي ، في أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، وأيقن أن أساس نصره إنما هي عقيدته ، وصمم على أن تكون المعركة الحقيقية ضد العقيدة .

فاذا ما نجح في أن يزيلها ، أو في أن يجعلها غير مجدية ، فقد نجح فيما فشل فيه السيف وزيادة .

وبدأ الغرب في التنفيذ ، وكانت الظروف كلها في صالحه ، فقد استطاع بتفوقه الحربي أن يقضي على استقلال كل البلاد الإسلامية تقريبا ، وأن يمسك بالسلطة في يده ، ثم حاول أن يفرض نوع التعليم الذي يراه مساعدا على نشر أفكاره وعقائده .

وكانت ظروف المسلمين مساعدة على أن يتقبلوا عن العدو ما يريد لهم ، لقد كانوا مستغرقين في النوم . ثم استيقظوا فجأة على صوت مدفع ، وإذا بشخص ممسك بهذا المدفع يسلبهم استقلالهم ، ويلقي عليهم أوامر ، وماذا في يدهم حتى يدفعوه ؟

هكذا كانت الأمم الإسلامية من جهتيها المعنوية والمادية على استعداد لأن تتقبل ما يلقي إليها .

ولم تكن الأمة الإسلامية وحدها هي المغلوبة ، بل كانت تشاركها أمم

أخرى ، واتجهت الأمم الغالبة بعد انتصارها المادي لفرض سيطرتها المعنوية على الأمم المغلوبة ، ولم تدع الفرصة تفلت من يدها .

وإذا بها توجه الطعنات للمعتقدات الدينية ، والقوانين الشرعية ، واختلفت الأمم الغربية فيما بينها في كثير من الأمور ؛ إلا في هذا الأمر ؛ وهو الغزو المعنوي ، فقد كان بينها اتفاق ولها تخطيط قد يتغير في شكله حسب الظروف ، ولكنه لا يتغير في جوهره .

فالاستعمار في مفهومه كل لا يتجزأ ، يراد منه كسب الأمم المستضعفة لفائدة الدول النصرانية . وكما يقصد من الكسب الاستفادة ، الاقتصادية ، يقصد كذلك نشر المسيحية واللغة الأجنبية . واختلاف مناطق النفوذ إنما هو توزيع للعمل ، وإلا فالمكسب في النهاية لصالح ما يسمونه بالعالم المتمدين[1] . أي للنصرانية وحضارتها .

وكون هذا هو قصد الدول المستعمرة ليس استنتاجا بل هم أنفسهم الذين يصرحون بهذا .

يقول « روجر لابون » ناعيا على قومه الاكتفاء بالفتح العسكري دون الاهتمام بالفتح الفكري يقول :

« نحن الآن بعد مضي مائة سنة على فتحنا أفريقيا أخذنا ندرك الخطأ الذي ارتكبناه في طريقة ضمنت لنا الفتح الحربي والفوز السياسي ، لكنها أهملت الفتح المعنوي الذي كنا نراه من القسم المستحيل .

ومن إهمال الفتح المعنوي تأتي المتاعب ؛ كلما اشتد الهيجان في العالم الإسلامي .

ففي الجزائر ـــ بالرغم من الصداقة والأمانة اللتين أظهرهما الجيش الوطني أثناء الحرب ـــ كانت نتيجة انتخابات سنة ١٩١٩ مما يوجب قلق الفكر .

(١) دفاع عن الشريعة .

فإن الستمائة ألف وطني الذين آتيناهم حق الانتخاب بموجب أمر ٤ شباط رشحوا بأجمعهم من عرف ببغض فرنسا ، وكانوا من جماعة الأمير خالد بن الأمير الهاشمي بن الأمير عبد القادر .

كذلك الشبان الذين حصلوا العلم في مدارسنا وتلقوا تربية أوربية كانوا أشد الناس مناهضة لقضية تجنيد الوطنيين »[1] .

إنهم يدركون هنا أن القوة المادية تأثيرها موقوت بقوة صاحبها فاذا ضعف نرى من خضع يحاول التخلص منه ، ولذلك يرون أن الغزو الفكري أبقى أثرا من الغزو المادي .

ولا يهم المستعمر أن يكون على حق أو باطل ، إن الأمر أولا وقبل كل شيء هو : هل ترك المسلمين مسلمين في مصلحة الغرب ؟

لا شك الجواب بالنفي .

يقول « روجر لابون » أيضا :

« مهما فرضنا شعائر الإسلام سليمة في الظاهر . نتساءل :

هل يوجد لنا مصلحة في تمكينه يمتد ، وينتشر بين هذه الأقوام ؟

لا ؛ بل في أن نعترف به دينا رسميا لمن دان به منهم ، سيحصل لعمري في غرب أفريقيا ما قد حصل في الجزائر ، ويمتد الإسلام وينتشر بسببنا وتحت حماية أسلحتنا ، عند أقوام أشداء ، لم يزالوا منذ قرون يرفضون الإسلام الذي يأتيهم به تجار الرقيق من العرب ، ويحبطون فتوحاتهم الدينية والعسكرية[2] .

---

(١) حاضر العالم الاسلام ص ٣٩٠ ــ جـ ٣ وماذا كان ينتظر من المسلمين الجزائريين وقد وعدتهم فرنسا أنهم إن قاتلوا في صف الحلفاء سوف يحصلون على استقلالهم ثم بعد النصر انقلبت عليهم تقتلهم متناسية جميع وعودها .

(٢) حاضر العالم الإسلامي من ٣١٥ جـ ٢ .

ثم ينبه قومه إلى ما في الإسلام من قوة ، وأنه يدفع بمعتنقيه إلى الثورات . ويقول :

« إن أساس الدين الذي يدين به المسلم ، وتصطبغ به نفسه ، مهما كان حليما ، والذي لا يعرفه إلا ذوو الخلطة والخبرة الطويلة : ان هو إلا عامل ثورات مستقبلة ، من مصلحتنا ألا نتركها تفعل مفعولها »[1] .

والعدو يدرك أن المعركة قائمة فعلا بين الإسلام والمسيحية وأن مستقبل كل من الدينين يتوقف على نتيجة هذه المعركة .

يقول « ك . ك . برج » :

« ومستقبل الإسلام في أندونيسيا رهن طريق ومدى مقاومة كل من الإسلام والقومية والتعليم الأوربي والمبشرين المسيحيين صاحبه في المستقبل القريب »[2] .

المعركة إذاً ضارية ، والعدو يعرف هذا ، وأن المسلمين أمام امتحان لاشك فيه ، وعلى درجتهم في النجاح في هذا الامتحان يتوقف مستقبلهم ، بل وجودهم ، فإن الشيء الجوهري — كما يقول جب — هو عما إذا كان المسلمون في آرائهم وأنظمتهم ومسلكهم حيال المشاكل الجديدة ، وفي تطورهم المادي والروحي الصميم سيكشفون عن نزعة واحدة ، ويستقون من منبع واحد ، ويسيرون على ضوء الشعور بالواجب الذي يشعرون به جميعا والغاية التي يطمحون لها جميعا . أو أن اشتداد وطأة الأفكار الجديدة والحاجات الجديدة سيفرق بينهم على الدوام وسيفلح أخيرا في تحطيم بناء المجتمع الإسلامي »[3] ؟

ثم يجيب بأنه لا يمكن الاجابة عن هذا السؤال اليوم ، بل ويحتمل أنه

(٣) المرجع نفسه ص ١٣١ .
(٢) وجهه الإسلام ص ٢٠٣ .
(٣) وجهه الإسلام ص ٢٠٥ .

لا يمكن الاجابة عنه بعد زمن طويل . لأنه قد يدخل عامل ليس في الحسبان يغير مجرى الحوادث .

ثم يبين أنه على يقين أن أكثر من عامل كهذا سيطرأ .

لأن التأثير بالنسبة للعالم الإسلامي ليس بالنسبة لأوربا فقط ، بل هناك ثقافات أخرى ربما يكون لها تأثير فيما يجري في العالم الاسلامي ، فكما أن تأثير ثقافة أوربا كان سبب الأزمة الحاضرة في العالم الاسلامي ، فسيتأثر هذا في تطوره المقبل لا بما سيحدث في المجتمع الأوربي وحده من تطورات بل سيتأثر بتطور المجتمعات الأخرى كذلك .

ولك أن تأخذ على سبيل المثال حالة بعيدة الوقوع ، فربما يحدث ـــ قبل أن يعد المجتمع الإسلامي نفسه الاعداد الكافي أن يوطد المجتمع في روسيا سيادته على آسيا الغربية ، وأن تعيد جماعة هندوكية توطيد مركزها في الهند ، وأخرى أندونيسية في أقصى الشرق[1] .

ثم ما المانع أن يمسك أحد هذه المجتمعات بزمام الفكر فيسيطر فكريا على المجتمعات الأخرى ويتحكم في تيار تطورها وبالتالي يتمكن من التأثير في المجتمع الإسلامي وتغيير مجرى تطوره .

هذه هي نقطة المخاوف على الفكر الاسلامي .

وأن المسلمين لكي ينجو بدينهم من المؤثرات الخارجية ، عليهم أن يعلموا من أين يأتي الخطر ، وأن يستعدوا لمقاومته . ولهم من دينهم ـــ لو اتبعوه ـــ حصن منيع ، يجعل أسلحة عدوهم عديمة التأثير .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥٦ .

متى بدأ الغزو الفـكري*

إن الغزو الموجه ضد الإسلام ليس جديداً ، بل بدأ منذ الأعوام الأولى للدعوة .

ومنذ ذلك الحين وهذا الغزو يتخذ أشكالا متعددة ، تتغير بتغير الظروف والأوقات ، ولكنها تتفق في الغاية وهي القضاء على الإسلام .

إن العدو ـــ من قديم ـــ رأى أن المسلمين عندما خرجوا للجهاد لم يخرجوا لكسب مادى وإنما ، خرجوا يطلبون الموت في سبيل رفع كلمة الله .

إن القوم عرفوا الأمر على حقيقته ، عرفوا الدنيا وعرفوا الآخرة ، وعرفوا التي هي وسيلة منهما ، والتي هي غاية ، واختاروا الآخرة كغاية ، واختاروا العمل الصالح في الدنيا ليصلوا به إلى رضوان الله سبحانه .

ولقد حاولوا أن يوصلوا هذه الرسالة السامية إلى كل البشرية حيث رأوا هذا واجبهم ولذلك تراهم عند انتصارهم ـــ على غير عادة البشر آنئذ ـــ يجعلون كل همهم إنقاذ هذه الأمة التي هزمت في ميدان الحرب من الكفر إلى الإيمان ، ولا يتركون بابا لصرفهم عن رسالتهم الحقيقية .

لقد نظروا إلى أنفسهم على أنهم أطباء يتحتم عليهم إنقاذ المريض ، فاذا ما شفي وأصبح مسلماً بدأ هو نفسه يدافع عن الإسلام .

واكتسح الإسلام أمامه ممالك كانت في ذلك الوقت أعظم ممالك الدنيا ، وكانوا ينظرون إلى العرب نظرة عدم اكثرات ، فاذا بهؤلاء العرب يقضون على ملكهم ، ويجد أصحاب الملك الضائع أنفسهم عاجزين عن مقابلة الإسلام في ميدان القتال .

(*) تقدم في الفصل الأول أنواع من الغز الفكري التي حصلت في عهد الرسول ﷺ ، إلا أنها كانت محاولات ساذجة إذا قيست بالمحاولات التي جاءت بعد ذلك . ثم لا يخفى أن وجود الرسول ﷺ كان سببا في القضاء عليها في مهدها .

هذا مما جعل أعداء الإسلام ينزعجون ، كما كان من الأسباب التي جعلتهم يتجهون إلى حيلة أخرى لمحاولة القضاء على الإسلام في غير ميدان القتال .

أضف إلى هذا أنه بعد الرسول ﷺ حصلت بعض الثغرات في تطبيق الإسلام . فإذا كان سلمان الفارسي في عهد النبوة مثلا لم يشعر بفرق بينه وبين أي واحد من المسلمين لمجرد اختلاف الجنس .

فإن الأمر قد تغير في عهد بني أمية ، فقد كانت دولتهم عربية ، ولكن الرعية منهم العرب وغير العرب ، وقد أطلق على غير العرب من المسلمين اسم الموالي .

ولو مشينا على القاعدة الاسلامية فإنه لا فرق بين العرب والموالي : فعمر ابن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا ، يعني بلالا مع أن أبا بكر قرشي ؛ وبلالا حبشي .

ومن قبل ذلك قال الرسول ﷺ : « سلمان منا آل البيت » . ولكن يبدو أن الأمر تحول في عهد بني أمية إلى نوع من العصبية ، وشعر الموالي بأن هناك فاصلا بينهم وبين العرب ، ولم تعد المساواة التي جاء بها الاسلام تطبق كاملة ، بل تأكد الموالي أنهم جعلوا من طبقة دنيا[1] .

ولما كانت الثورة لا تكون عن الظلم ، بل عن الشعور بالظلم فإن الموالي لو كانوا مستعدين لقبول وضعهم في طبقة دنيا كما هي الحال عند الطبقة الرابعة في الهند (شودر) ، لو كانوا مستعدين لهذا لهان الأمر ، ولكن الموالي كانوا

---

(١) خذ ــ مثلا ــ مسألة المصاهرة ، نرى أن الإسلام يرى أن المسلم كفء للمسلمة ، ولذلك زوج الرسول ﷺ زينب بنت جحش زيد بن حارثه ، ولكن في الوقت الذي نؤرخ له لم يكن العربي يسمح بزواج إبنته من الموالي . وانتقلت المسألة إلى الفقه وعولجت على أنها مسألة خلافية وكثيراً ما وجد المنع أنصاراً وإذا كانت خلافية في الفقه فقد كادت تكون إجماعاً على المنع في الواقع .

ينظرون إلى أنفسهم نظرة أسمى ، وأنهم أصحاب مدنية عريقة ، بل إن بعض هؤلاء الموجودين أدركوا عصر الجاهلية حين كانوا ينظرون إلى العرب بدون اكتراث .

من هنا كان الحقد على العرب ، ـــ وللأسف على الاسلام ـــ عند الكثير منهم وبدأت الحركات الفكرية ضد الاسلام . مع ان كل تفرقة بسبب الجنس أو اللون إنما هي من صنع البشر وقد قضى عليها الاسلام .

يضاف إلى ما تقدم أن الفرس كان عندهم رصيد من الاعتقادات القديمة التي ساعدتهم على هذه الحرب الفكرية ، كان عندهم الزرادشتية والمانوية والمزدكية . وكان موقع بلادهم (الفرس) عند ملتقى الطرق ـــ يساعد على استقبال عقائد جديدة ، كالبوذية والصائبة .

ولذلك وجدنا في هذه البلاد القول بمبدأي النور والظلمة كصانعين للعالم النور فاعل الخير ، والظلمة فاعل الشر ، وهذا يرجع إلى المانوية .

كما وجدنا عندهم عبادة النار في المجوسية ، وعبادة الكواكب في الصابئة .

وكانت المزدكية التي تأثرت بمذهب ماني في القول بأصلين إلا أن مزدك أثبت للنور الاختيار ونفاه عن الظلمة ، ثم جاء بالشيوعية وغلا فيها ، حيث وجد أن سبب الشر إنما هو النزاع المؤدي إلى الحروب ، وما تجره على البشرية من ويلات والقضاء على الشر يكون بالقضاء على أسبابه ، وأسبابه ـــ كما يزعم ـــ هي الملكية ، وبالقضاء عليها تكون الشيوعية في المال والنساء ، فإذا أصبح المال والنساء مباحين لكل الأفراد بلا قيد ولا شرط ارتفع سبب التقاتل عند ذلك .

لقد أخطأ مزدك ، وكان سبباً في انهيار الدولة أخلاقياً ، وبالتالي اجتماعياً وسياسياً ، وبرغم هذا بقيت المزدكية كعامل قلق للدولة الاسلامية .

إلى هنا وصلنا إلى أن سبب الغزو الفكري للاسلام هو اعتقادهم أن

ضياع ملك العجم كان على يد العرب ، وتعصب العرب ضد الموالي ، ووجود اعتقادات قديمة لا زالت تجد من يتعصب لها ولو في السر ، والسبب الأخير وهو وجود الاعتقادات القديمة عند الفرس من أهم الأسباب ، إذ لو لم يتوفر لهم هذا الرصيد من الاعتقادات لما استطاعوا أن يشنوا هذه الحرب التى كانت السبب في القضاء على الوحدة الاسلامية .

والتاريخ يثبت أن أمل بعض الفرس لم يكن فقط محاولة التساوي مع العرب ، بل ، كان أبعد من هذا ، وهو محاربة الاسلام نفسه ، بدليل أن الحكم لما صار إلى العباسيين وأصبح هؤلاء يقدمون الفرس على العرب لم يكتف الفرس بهذا ، بل ساروا في نفس الطريق ، وهو الحط من شأن العرب ، ومحاربة الاسلام ، ومحاولة التخلص منه تحت أسماء مختلفة :

ومن المؤكد أن هؤلاء الذين كانوا يريدون التخلص من الاسلام كانوا كثرة .

وبدون القول بأنهم كانوا كثرة لا نستطيع أن نعلل هذه السرعة في اتباع أي داع للخروج على الاسلام ، برغم أن ما جاء به يعتبر تافهاً لا ترضاه العقول السليمة .

فنجد أن أبا مسلم الخراساني كان قائداً انتصر على الأمويين ، وكان سببا في نقل الخلافة إلى العباسيين ، ثم كانت نهايته على يد العباسيين ، وهي حياة بالنسبة لكبار الرجال تعتبر عادية ، وفي التاريخ بطولات كثيرة ولو كانت الأمور تسير سيراً طبيعا لكان أقصى ما يتصور من الفرس بعد ذلك أن يحزنوا عليه ، وينظروا إليه كبطل قتل مظلوما .

ولكننا نرى أبا مسلم يدخل ميدان العقيدة من أوسع الأبواب ، فالراوندية يمجدونه ، ويذهبون إلى أنه تجسد للاله ، ويخرج — بعد قتله — رجل من أتباعه ، ويدعى أنه التجسد الجديد للذات الالهية ، ثم يتخذ قناعا من ذهب .

هذا القناع في حقيقة الأمر كان لقبح وجهه ، ولكنه ادعى أنه يحجب به الذات الالهية عن العيون الدنسة التي لدناستها ليست أهلا للنظر إليه ، وعرف بالمقنع ، واتخذ مقراً له قلعة (سنام) فيما وراء النهر ، وتبعه الكثير ، حتى استطاع أن يخضع الاقليم كله ، وهزم جيوش الخليفة في أول الأمر لولا أنها استطاعت أن تحاصر القلعة ، وهنا لجأ المقنع إلى إشعال النار في القلعة لتأتي عليه وعلى أهل بيته وأتباعه .

هل كانت عقيدتهم فعلا أن أبا مسلم تجسد للاله ، أو عقيدتهم كانت أن أبا مسلم رمز لبعث القومية الفارسية .

وهل يعتقدون بأن أبا مسلم لم يمت ، وأنه مختبىء في الجبال ، وسيعود — كما كانت دعوة إسحق التركي — لقيادة أنصاره ؟

ثم ما هذه السرعة في تصديق إسحق أنه رسول زرادشت إلى الفرس ؟

من هنا لا نعجب من انتقال الداعية في الظاهر ، من فكرة إلى فكرة .

فمثلا الحسن بن الصباح ، يرحل إلى مصر ، ويعجب بالدعوة الفاطمية ، ثم يعود إلى فارس داعيا للفاطميين ، إلا أنه بعد ذلك يسلك طريقا ليس بينه وبين الاسلام أية صلة فيتخذ قلعة « الموت » قاعدة له ، ينشر منها الرعب ، وينظم أتباعه درجات ليس هذا مكان تفصيلها ، إلا أن الذي يهمنا أن الطبقة العليا التي كانت قريبة منه كانت تعيش حياة إباحية ، لا مكان فيها لأسرة ، ولا خلق ، ولا دين .

أليس هذا تطبيقا للشيوعية المزدكية .

وليس من شك في أنه كان بين أتباع هؤلاء من يظن فعلا أن هذا هو الاسلام ، دون أن يدري انه وقع في الردة عن الاسلام .

وإذا تركنا الدعوات الكبيرة ضد الإسلام كالتي تقدمت ؛ والتي كان يقضي عليها من قبل الدولة ، فإننا نجد أن الحرب الفكرية ضد الإسلام لم تهدأ ،

بل من الحكمة القول بأنه كانت هناك طبقة دائبة العمل ، تختفي احيانا ، وتظهر احيانا اخرى ، وهي وان كانت على هيئة افراد ، إلا أنه من الممكن القول بأن هؤلاء الأفراد كانوا معظم الطبقة المثقفة يستخفون ويظهرون حسب قوة الدولة وضعفها . فمهما كانت الأسباب السياسية فاننا لا نستطيع أن نبعد الأسباب الدينية فيما حصل لعبد الله بن المقفع ، وبشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس ، بل وربما البرامكة .

والمتتبع لهذه الحركات يجد أن الأساليب مختلفة والغاية واحدة ، وهي الكيد للإسلام . من هنا نجد أن هذه الحركات كثيرا ما تتداخل وتختلط بحيث يصعب الفصل بينها . فالباطنية والزنادقة والشيعة الغالية والشعوبية كل هذه الحركات التي ما قامت إلا للكيد للاسلام نجدها عند المؤرخين متداخلة .

فالغزالي يجعل الإسماعيلية من الباطنية مع أن الإسماعيلية من الشيعة ونجد علان بن الحسن يوصف بالشعوبي الزنديق . فالحركة الشعوبية وإن كانت تقوم على تفضيل غير العرب ـــ وبخاصة الفرس ـــ على العرب ، إلا أنها عند المبالغة تتناول الدين ، وقد ألف علان هذا لطاهر بن الحسين كتابا في مثالب العرب خرج فيه عن آداب الدين ولم يخص بحملته بعض العرب دون بعض ، بل جعلها تعم جميع العرب وقريشا وبني هاشم .

ورغم هذا فقد أجازه طاهر بن الحسين عليه بثلاثين ألف درهم ، يقول الإمام الغزالي في الباطنية وسبب دعوتهم على هذه الصورة :

« تشاور جماعة من المجوس والمزدكية ، وشرذمة من الثنوية الملحدين وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين ، وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما انابتهم من استيلاء أهل الدين ، وينفس عنهم كربة ما دهاهم من أمر المسلمين حتى أخرسوا ألسنتهم عن النطق بما هو معتقدهم من إنكار الصانع ، وتكذيب الرسل ، وجحد الحشر والنشر ، والمعاد إلى الله في آخر الأمر .

وقد تفاقم أمر محمد واستطارت في الأقطار دعوته واتسعت ولايته واتسقت أسبابه ، وشوكته ، حتى استولوا على ملك أسلافنا ـــ كما يقولون .

ولا مطمع في مقاومتهم بقتال ، ولا سبيل إلى استنزالهم إلا بمكر واحتيال .

ولو شافهناهم بالدعاة إلى مذهبنا لتنمروا علينا ، وامتنعوا من الإصغاء إلينا .

فسبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم ، وهم أركهم عقولا ، وأسخفهم رأيا وألينهم عريكة لقبول المحالات ، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات وهم الروافض .

ونتحصن بالانتساب إليهم ، والاعتزاء إلى أهل البيت ، عن شرهم ، ونتودد إليهم بما يلائم طبعهم : من ذكر ما تم على سلفهم من الظلم العظيم ، والذل الهائل ، ونتباكى لهم على ما حل بآل محمد ﷺ ، ونتوصل به إلى تطويل اللسان في أئمة سلفهم الذين هم أسوتهم وقدوتهم ، حتى إذا قبحنا أحوالهم في أعينهم وما ينقل إليهم شرعهم بنقلهم وروايتهم ، اشتد عليهم باب الرجوع إلى الشرع ، وسهل علينا استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين .

وإن بقي عندهم معتصم من ظواهر القرآن ومتواتر الأخبار ، أوهمنا عندهم أن تلك الظواهر لها أسرار وبواطن ، وأن أمارة الأحمق الانخداع بظواهرها وعلامة الفطنة اعتقاد بواطنها .

ثم نبث إليهم عقائدنا ، ونزعم أنها المراد بظواهر القرآن .

ثم إذا تكثرنا بهؤلاء سهل علينا استدراج سائر الفرق بعد التحيز إلى هؤلاء ، والتظاهر بنصرهم[1] .

---

(١) فضائح الباطنية ص ١٨ ـــ ٢٠ ويقول أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي « فلما فشا الإسلام بعد رسول الله ﷺ وفتحت البلدان اجتمع جماعة من الملحدين فقالوا : لا طاقة لنا اليوم بالمسلمين فهلموا حتى نظهر الاسلام وندخل فيه الآفات ، وهم الباطنية يظهرون الاسلام والتعبد ومقصودهم الجهال واصطيادهم فاذا تملكوا منهم كاشفوا بالالحاد » الوفا بأحوال المصطفى ص ٣٥١ جـ ١ .

هذه هي الحيلة التي جربت مع المسلمين الذين انتصروا في ميدان القتال ، ولقد نجحت هذه الخدعة فيما فشل فيه سيف العدو ، وخرجت بالمسلمين عن دينهم ، وأضعفت قوتهم ، وجعلتهم شيعا وأحزابا ، يتقاتلون بعد أن كانوا أمة واحدة ويداً على من سواهم .

ولقد وصلوا إلى ما يريدون ، وجعلوا أتباعهم يعتقدون الكفر بعينه ، ولكن مع التواء الطريق الذي سلكوه .

فهم ـــ كما يقول الإمام الغزالي ـــ لما عجزوا عن صرف الخلق عن القرآن والسنة ، صرفوهم عن المراد بهما إلى مخاريق زخرفوها ، واستفادوا ـــ بما انتزعوه من نفوسهم من مقتضي الألفاظ ـــ إبطال معاني الشرع ، وبما زخرفوا من التأويلات تنفيذ انقيادهم للمبايعة والموالاة ، وأنهم لو صرحوا بالنفي المحض ، والتكذيب ، لم يحظوا بموالاه الموالين ، وكانوا أول المقصودين المقتولين[1] .

ثم إذا قارنّا ما وصلوا إليه بما عليه الكفار نجد أنهم أسوأ من الكفار . فهم قد قالوا بكل ما قال به الكفار ، سواء في الفروع أم في الأصول . فمن ناحية الفروع ألغوها نهائيا . فمعنى الجنابة عندهم مبادرة المستجيب بإفشاء سر ألقى إليه قبل أن ينال رتبة استحقاقه . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . . الصيام هو الإمساك عن كشف السر ـــ الكعبة هي النبي والباب علي ، والطواف بالبيت سبعا هو الطواف بمحمد إلى إتمام الأئمة السبعة ، والصلوات الخمس أدلة على الأصول الأربعة وعلى الإمام . .

وكذلك زعموا أن المحرمات عبارة عن ذوى الشر من الرجال ، وقد تعبدنا باجتنابهم ، كما أن العبادات عبارة عن الأخيار الأبرار الذين أمرنا باتباعهم[2] . إلى هنا ألغوا جميع الفروع .

---

(١) ص ٥٥ ـــ ٥٦ فضائح الباطنية .
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٥ ـــ ١٥٦ .

وأما في الأصول فهم (قائلون بإلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان ، إلا أن أحدهما علة لوجود الثاني ، واسم العلة السابق ، واسم المعلول التالي ، وأن السابق خلق العالم بواسطة التالي لا بنفسه[1] وأما مذهبهم في القيامة والمعاد فقد « اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة ، وأن هذا النظام المشاهد في الدنيا : من تعاقب الليل والنهار ، وحصول الإنسان من نطفة والنطفة من إنسان ، وتولد النبات وتولد الحيوانات لا يتصرم أبد الدهر ، وأن السموات والأرض لا يتصور انعدام أجسامها . وأولوا القيامة وقالوا إنها رمز لخروج الامام ، وقيام قائم الزمان ، وهو السابع الناسخ للشرع المغير للأمر[2] .

ولم يقتصر الباطنية في حربهم ضد الاسلام على الحرب الفكرية ، بل كانوا يستعملون كلا النوعين من الحرب ــ العسكرية والفكرية ــ حسب الظروف ولذلك تراهم يطعنون الاسلام كلّما سنحت الفرصة . ففي الحرب الصليبية لما وجدوا الفرصة سانحة لطعن الإسلام تعاونوا مع الصليبيين ، إلا أنه من فضل الله تنبه لهم المسلمون ، واستعملوا معهم القوة التي تتفق وخيانتهم ، ولذلك لما شعر صاحب دمشق سنة ٥٢٣هـ أن الباطنية فاوضوا الصليبيين ليسلبوهم دمشق قتل المزدقاني وزيره الخائن وأمر الناس فثاروا بالاسماعيلية فقتلوا منهم ستة آلاف في يوم واحد ، وقيل أكثر من ذلك ، فطفئت فتنتهم .
وكانوا يحاولون تسليم دمشق إلى الصليبيين ، وتواعدوا وإياهم إلى يوم مخصوص يهجمون فيه عليها ، وأحرق الاسماعيلية أسواق حلب في غضون ذلك فافتقر أهلها[3] .

وفي عهد الدولة العباسية نجد القرامطة يعيثون في الأرض فسادا ، ويرهقون

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٨ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) الاسلام والحضارة العربية ص ٣٠٢ جـ .

الدولة بحروبهم الطويلة حتى شمل شرهم مكة نفسها وكان لهم على الكعبة اعتداء يذكره التاريخ .

والاعتداءات المسلحة على المسلمين لاتقف عند حد ، وتاريخ الدولة الاسلامية مملوء بهذه الحروب ، وهم الذين سببوا لهذه الدولة من الحروب ما جعلها تتوقف عن الفتوحات .

* * *

وقد ذكر الإمام الغزالي من ألقاب الباطنية ما يأتي (الباطنية ، والقرامطة . والقرمطية ، والخرميّة ، والخرمدينية ، والإسماعيلية ، والسبعية ، والبابكية ، والمحمرة ، والتعليمية[1] .

فكل ما يصادفك من حرب أشعلها هؤلاء فإنما هي حرب من الباطنية ضد الإسلام .

وقد وجدوا لهم الكثير من الأتباع ، ولا زالوا حتى اليوم ، وقد التقيت أنا شخصيا ببعض هؤلاء ووجدت عندهم من التأويلات ما يطابق ما ذكره الإمام الغزالي فيما يختص بالقيامة والحساب والثواب والعقاب الخ .

وكانت كل الدلائل تدل على أنهم ليسوا على استعداد للتنازل عن اعتقاداتهم وهو ما حصل بالفعل .

ونسأل ـــ كما سأل الغزالي :

كيف ينخدع بمثله عاقل ؟

وقد أجاب الإمام الغزالي رحمه الله على ذلك قائلا : قلنا لا ينخدع بمثله إلا المائلون عن اعتدال الحال واستقامة الرأي فللعقلاء عوارض تعمي عليهم طرق الصواب .

---

(١) فضائح الباطنية ص ١١ .

ثم يقول عن أصناف المستجيبين لدعاة الباطنية ونقط الضعف التي جعلتهم يستجيبون وهم ثمانية أصناف : ـــ

الصنف الأول طائفة ضعفت عقولهم وقلت بصائرهم وسخفت في أمور الدين آراؤهم لما جبلوا عليه من البله والبلادة . .

وكيف يستبعد قبولهم لذلك ، ونحن نشاهد جماعة في بعض المدائن القريبة من البصرة ، يعبدون أناسا يزعمون أنهم ورثوا الربوبية من آبائهم المعروفين بالشباسية ؟

(الصنف الثاني) : طائفة انعطفت الدولة عن أسلافهم بدولة الإسلام كأبناء الأكاسرة والدهاقين وأولاد المجوس المستطيلين فهؤلاء موتورون . . فأذعنوا لقبول كل محال تشوقا إلى درك ثأرهم . . .

(الصنف الثالث) طائفة طامحة إلى العلياء متطلعة إلى التسلط والاستيلاء إلا أنه ليس يساعدهم الزمان ، فهؤلاء إذا وعدوا بنيل أمانيهم ، وسول لهم الظفر بأعاديهم سارعوا إلى قبول ما يظنونه مفضيا إلى مآربهم . .

(الصنف الرابع) طائفة جبلوا على حب التميز عن العامة ترفعا منهم عن مشابهتهم وتشرفا بالتحيز إلى فئة خاصة تزعم أنها مطلعة على الحقائق . .

(الصنف الخامس) طائفة سلكوا طرق النظر ولم يستكملوا فيه رتبة الاستقلال ، وإن كانوا قد ترقوا عن رتبة الجهال ، فهم أبدا مشوقون إلى التكاسل ، والتغافل وإظهار التفطن لدرك أمور تتخيل العامة بعدها ، وينفرون عنها ، لا سيما إذا نسب الشيء إلى مشهور بالفضل فيغلب على الطبع التشوق إلى التشبه به ، فكم من طوائف رأيتهم اعتقدوا محض الكفر تقليدا لأفلاطون وأرسطوطاليس . .

فهؤلاء يستجرون إلى هذه البدعة باضافتها إلى من يحسن اعتقاد

المستجيب فيه ، فيبادر إلى قبوله تشفعا بالتشبه بالذي ذكر أنه من منتحليه .

(الصنف السادس) طائفة اتفق نشوؤهم بين الشيعة والروافض واعتقدوا التدين بسبب الصحبة ، ورأوا هذه الفرقة تساعدهم عليها فمالت نفوسهم إلى المساعدة لهم والاستئناس بهم وانجرت بهم إلى ما وراء تلك من خصائص مذهبهم .

(الصنف السابع) طائفة من ملاحدة الفلاسفة والثنوية والمتجرة في الدين . .

فاذا رأوا هؤلاء يكرمون من ينتمي إليهم . . . انتدبوا لمساعدتهم طلبا لحطام الدنيا .

(الصنف الثامن) طائفة استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهم متابعة اللذات واشتد عليهم وعيد الشرع وثقلت عليهم تكاليفه ، فليس يتهنأ عيشهم إذا قرفوا بالفسق والفجور . . فإذا صادفوا من يفتح لهم الباب . . . ويحسن لهم ما هم مستحسنون له بالطبع تسارعوا إلى التصديق بالرغبة والتطوع[1] .

إن هذه الأفكار هي التي عمقت الخلافات السياسية ، وجعلتها عقائدية بحيث أصبح من غير الممكن إزالتها .

وجاء الاستعمار الحديث وبين جنبيه كل أحقاد تلك القرون الماضية . ووجد أمامه أرضا خصبة لنفث سمومه ، وهي فرقة الأمة بسبب الغزو المعنوي القديم .

إن من سبقوه من أعداء الإسلام قد أضرموا النار بالفعل ، ولازالت مشتعلة وما عليه إلا أن يقدم لها الوقود ، وهو ما قام به بالفعل .

---

(١) فضائح الباطنية ص ٢٣ ــ ٢٦ .

الغزو الفكري حديثا
المستشرقون مع تلامذتهم

لم يكن المستشرقون في العصر الحديث إلا امتدادا للحرب التي ابتلى بها الإسلام من الباطنية وأمثالهم .

يقول محمد أسد في تصوير الخط الفكري للمستشرقين :

« وبعد بضعة عقود ـــ أي من الحروب الصليبية ـــ جاء زمن أخذ فيه علماء الغرب يدرسون الثقافات الأجنبية ، ويواجهونها بشيء من العطف ، أما فيما يتعلق بالإسلام فإن الاحتقار التقليدي أخذ يتسلل في شكل تحزب غير معقول إلى بحوثهم العلمية . وبقي هذا الخليج الذي حفره التاريخ بين اوروبة والعالم الاسلامي غير معقود فوقه بجسر . ثم أصبح احتقار المسلمين جزءا أساسيا من التفكير الأوربي .

والواقع أن المستشرقين الأولين في الأعصر الحديثة كانوا مبشرين نصارى يعملون في البلاد الإسلامية ، وكانت الصورة المشوهة التي اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه مدبرة على أساس يضمن التأثير في موقف الأوربيين من الوثنيين . غير ان هذا الالتواء العقلي قد استمر ، مع أن علوم الاستشراق قد تحررت من نفوذ التبشير ، ولم يبق لعلوم الاستشراق هذا عذر من حمية دينية جاهلية تسيء توجيهها .

أما تحامل المستشرقين على الإسلام فغريزة موروثة ، وخاصة طبيعية تقوم على المؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية بكل مالها من ذيول في عقول الأوربيين الأولين[1] .

وإذا كانت هذه هي حال المستشرقين فقد صبح في الإمكان القول بأن

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٦٠ ـــ ٦١ .

هؤلاء المستشرقين لا يعوزهم العقل ولا الخبث ولذلك نراهم تارة يمدحون حتى نثق بهم ثم يطعنوننا ، وتارة يذمون حتى نفقد الثقة بأنفسنا ، وإذا بهم يلقون إلينا بما أرادوه وتارة يستعملون تلامذتهم الذين ربوهم على أيديهم .

وهذا المنهج ليس جديدا فقد مدح الباطنية في آل البيت كثيراً ثم كانت الطعنة في الدين ، واتخذ غيرهم ـــ كمعلن الكفر ـــ طريق الهجوم فطعنوا في كل شيء وفي نبوة سيدنا محمد ﷺ .

وممن استعمل أسلوب المدح والطعن في النقط الأساسية في الدين « جوستاف لوبون » . وممن اتخذ طريق الهجوم دائما « رينان » و « بروكلمان » و « جولدتسيهر » وأمثالهم فهؤلاء يطعنون في كل ما جاء به الاسلام تقريبا ، وإن كان بينهم خلاف في هذه المطاعن قلة وكثرة .

ومن وجوه الشبه أن كلا العدوين ـــ القديم والحديث ـــ له تلاميذ إذ لم يرض الأعداء أن يطيلوا الوقوف وحدهم ، بل عملوا على استمالة عدد ليس بالقليل من أبناء المسلمين وربوهم على أيديهم .

وأخلص التلاميذ لأساتذتهم وحاولوا أن ينفذوا تعاليمهم بعناية وبذلك تورطوا في الدفاع عن أمور كلها خروج على الشرع . ولكن للأنصاف نقول إن بعض هؤلاء التلاميذ يشعر بما يقوم به ، وأن نجاحه في دعوته معناه القضاء على الأمة ، يشعر بذلك تماما ، ويعمل من أجله عمداً .

ومنهم من هو برىء من سوء النية ، ولا يشعر بخطر ما يقوم به ولكنه لم يتعمق في معرفة دينه حتى يقيم نهضته عليه ، وبذلك اندفع في الدفاع عما جاء من الغرب دون تبصر .

وقد يؤدي للعدو خدمة أجل مما لو كان يشعر بما يقوم به لأنه مندفع ـــ بلا حدود ـــ بعقيدة أنه يخدم وطنه .

وقد يكون من هؤلاء التلاميذ الحسنى النية ـــ أو على الأقل ليس هدفهم تضييع أمتهم ـــ ممن لا يكفون عن مدح المستشرقين ، معددين خدماتهم وفضلهم على العلم . فالمستشرقون ـــ كما يقولون ـــ كان لهم جهد مشكور في إحياء التراث الإسلامي وعنهم أخذنا الأسلوب العلمي في دراساتنا للحضارة الإسلامية ، وأنهم قدوة في تحقيق الكتاب العربي ، وأنهم خرجوا به إلى حيز الوجود كما أنهم أبرزوا كثيرا من نواحي المجد في تاريخنا . . إلى آخر ما نقرؤه ، وأضعاف ذلك ما يتردد في المجالس .

ونسي هؤلاء المادحون أن الصياد يعيش حياته يفتن في تحسين الطعم لصيده حتى يقبل عليه بشهية ، وكم صيدا يستطيع أن يأكل الطعم دون الوقوع في الشباك ؟

إن المستشرقين والمبشرين ـــ وإن اختلفوا في الاسم ـــ هدفهم واحد وهو أن يصطادوا المسلم .

وقد ضربت مثلا بـ « جوستاف لوبون » وإذا قرأت له كتابا مثل كتاب « حضارة العرب » تجده فعلا أبرز الكثير من نواحي مجدنا .

وأعتقد أنك لن تجد من أنصفنا ـــ من المستشرقين ـــ أكثر منه اللهم إلا إذا كان من القليل الذي أسلم منهم[1] .

ولكن ماذا يفيدنا دفاعه وقد وجه طعنات للاسلام في أكثر من موضع وردد معظم الشبه التي يرددها اعداء الدين لتزوج النبي ﷺ أكثر من واحدة وغيرها .

أقول هذا بمناسبة أن من بين تلاميذ الغرب من يشعرون بما يقومون به

(١) سياتي ـــ أثناء هذا البحث كثير من دفاع (لوبون) عن الغرب المسلمين كرد منابه على بني قومه ، وهو منهج اتخذته في هذا البحث أن أرد بالمستشرقين على المستشرقين للتنبيه على أن آراءهم لا تقوم على أسس علمية وإلا لما اختلفوا .

ومنهم من يخلص في الخدمة بحسن نية .

المهم أن العدو في غزوه الفكري إما أن يمسك السلاح بيده ، وأما أن ينقل السلاح من يده إلى يد واحد منا .

وبذلك انتقل إلينا الفكر الغربي عن طريقين :

الطريق الأول ذلك الغربي الذي جاء ـــ لا كمعلم مخلص كما يدعي بل ـــ كمنفذ لأفكار خاصة ، مكلف بها من قبل من أرسلوه .

ولابد أن ينفذ إما لعقيدته ، وإما للمحافظة على النعمة الدنيوية التي غمره بها بنو قومه .

الطريق الآخر الذي وصلنا عنه الفكر الغربي هو بعض منا تتلمذ على الغرب حتى امتلك الفكر الأجنبي عليه مجامع فكره . ثم جاء ليطعن به أمته إما بحسن نية وإما بسوء قصد ، كما تقدم .

فكانت الفكرة الخبيثة تنبت في الغرب فإذا بتلاميذ الغرب من المسلمين ـــ بالاسم طبعا ـــ يرددونها « وأصدق مثال على ذلك ، وبلا جدال ، الفرض الذي وضعه المستشرق الانجليزي « مرجليوث » عن (الشعر الجاهلي) فقد نشر هذا الفرض في يوليو عام ١٩٢٥ في احدى المجلات الاستشراقية ، وفي خلال عام ١٩٢٦ نشر « طه حسين كتابه المشهور (في الشعر الجاهلي) .

فهذا التسلسل التاريخي معبر تماما عن تبعية أفكار بعض قادة الثقافة العربية الحديثة للاساتذة الغربيين[1] . . .

وربما كان الاعداء لا يقدرون لأفكارهم ضد الاسلام كل هذا الانتشار ولكن التلاميذ كانوا اشد خلاصا لهذه الأفكار من أصحابها « وربما لم يكن فرض « مرجليوث » ـــ المتقدم ـــ ليحتوي على شيء خاص غير عادي لو أنه حين

(١) الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي (ترجمة د. عبد القادر شاهين ص ٥٦ ، ٥٧) .

نشر لم يصادفل ذلك الترحيب الحار من المجلات المستعربة ومن بعض الرسالات التي تقدم لها عرب محدثون[1] .

انطلق هؤلاء التلاميذ مع أسيادهم في طول البلاد وعرضها وبدأنا نسمع ـــ كما سمعنا في عهد الباطنيه وأمثالهم من قبل ـــ بخرافة الأديان والعلمانية والاسمية أنخ . .

وملأت آذاننا منهم عبارات التسامح الديني ، وأن زمن الأديان والتعصب لها قد انتهى ، وأن العصر لم يعد صالحا لهذا التعصب أنخ .

وما هي إلا تعاليم حملوها من أعداء الإسلام وانحصرت مهمتهم في توصيلها .

ولذلك لو سألتهم عن التسامح في الفيلبين والحبشة أو في أوربا نفسها لا يجيبون .

ولو سألت الأعداء الذين حملوا أبناءنا الأفكار : هل ترضون بتطبيق ما تطلبونه منا عندكم لقالوا ـــ وقد قالوها فعلا ـــ إن بضاعة التبشير بضاعة تصدير ليس إلا[2] .

والغرب وعلى رأسه إنجلترا يبارك العلمانية في تركيا ، بل ويجعلها ثمنا لاستقلالها ، ومع ذلك تخلع إنجلترا ملكها لأنه خرج على الكنيسة بزواج رأته الكنيسة معيبا .

الهدف إذا ـــ ما دام تنصير المسلمين غير ممكن ـــ هو انتزاع الإسلام من قلوب أصحابه ، أي انتزاع حقيقته وإن بقي اسمه ، بحيث لا تراه في الشارع ولا في النادي ولا في البيت .

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٧ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ص ٦٤ .

تراه ركعات تؤدي في المسجد ـــ على احسن تقدير ـــ تقف عند الظاهر ولا تتجاوزه إلى الباطن .

وأصبح من المألوف جداً أن ترى مجموعة من المسلمين تذهب إلى المسجد لتؤدي الصلاة ، وهم اثناء ذهابهم أو رجوعهم بل وحتى اثناء جلوسهم في المسجد قد يتكلمون في معاملاتهم الربوية ـــ مثلا ـــ بدون تحرج كأنهم يتكلمون في مسائل الوضوء والصلاة .

لا شك ان هذه نتائج خطيرة أصابت العالم الإسلامي في الصميم ، ويزيد في خطرها ان الضحية لازالت مخدرة ، ولا زالت كثرة منا تسميه عصر النهضة ، وتصف من قدموا لنا السم بانهم رواد نهضة وصانعوها .

وللأسف نرى من هم مع الأجنبي فكريا هم اصحاب المراكز الفكرية في العالم الاسلامي ، ومن هنا يكون ضررهم أشد وقد اعدهم العدو وضمن لهم مراكزهم ، ليكونوا أقدر على تغيير العالم الاسلامي لصالح الأجنبي .

يقول « جب » في هذا : ـــ

« وربما كانت أسلم نتيجة نقررها هي أن نقول :

إن هناك طبقتين رئيسيتين :

طبقة عليا تشمل أفرادا من القادة ، ولكنها تشغل أيضا أكبر مراكز الفكر الاسلامي تأثيراً . وفيها يظهر أثر الافكار الغربية ظهورا قويا .

وطبقة دنيا تشمل جمهور الرأي الإسلامي الذي لا يفصح عن نفسه ، وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقا إلى حد ما .

وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب الا في جزيرة العرب .

وما دام الزعماء هم الذين يعتد بهم ، ولا سيما زعماء الجيل الناشىء ، استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الاسلامي سيكون ـــ بعد قليل من

الزمان ـــ قد أخذ نهائيا بوجهة نظر لا سلطان للدين عليها ، إلا إذا طرأ عامل جديد وغير اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى[1] .

وإذا تحققت نظرية ، (جب) وأخذ المسلمون نهائيا بوجهة نظر لا سلطان للدين عليها فقد ذهب الاستقلال ولو لم تر جنديا أجنبيا بيننا .

إننا ـــ كما يقول علال الفاسي ـــ لا يمكن أن نتحرر من الاستعمار الأجنبي بمجرد إعلان الاستقلال السياسي ، أو بمجرد استيلاء أفراد منا يحملون أسماء مغربية ـــ مثلا ـــ على الحكم في الوزارة أو في الادارة أو في القضاء .

ان كثيرين من الدول الاستعمارية ترضي بأن يبقى لها النفوذ المادي والثقافي والقانوني على بعض المستعمرات دون أن تتدخل في شئونها الداخلية .

وكل المستعمرين ما كانوا يعملون ـــ إلى جانب الاستفادة المالية التي هي في نظرهم مؤقتة ـــ إلا لخلق شعوب على صورتهم . وأهالي على صورة مواطنيهم .

ولذلك كانوا يقبلون في بعض مراحل الاستعمار ادماج الأهالي في جنسيتهم وإمتاعهم بنفس الحقوق التي يتمتع بها المواطن المستعمر (بالكسر) .

فإذا رضينا نحن بقوانين الأجنبي مكان قوانيننا ، واذا اخترنا لغته مكان لغتنا ، وحضارته مكان حضارتنا ، فمعنى ذلك أننا لم نزد على أن ورثنا سلطته ، وقمنا مقامه في تطبيق البرامج التي كان يعمل لها .

هذه هي الحقيقة التي يجب أن نعلنها غير هيابين من الاتهام بالجمود أو بالرجعية أو بعقدة الاحتلال الأجنبي[2] .

هكذا نجد أعداء الإسلام ينظرون إلى انتصارهم في الغزو الفكري نظرة أهم من انتصارهم في الغزو العسكري .

---

(١) وجهة الاسلام ص ٢١٩ ـــ ٢٢٠ .

(٢) دفاع عن الشريعة ص ٢٣ ، ٢٤ .

إنشاء المدارس في البلاد الاسلامية

تقدم لنا أن الأوربي تربى على العنصرية . وأن هذه العنصرية متأصلة في نفسه ، إلى درجة أثرت تأثيرا كاملا في نظرته ، وحكمه على الأشياء خاصة الاسلام اذ هنا فقط (نعني فيما يتعلق بالإسلام) :

« لا تجد[1] موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ، بل هو كره عميق الجذور ، يقوم ــ في الأكثر ــ على صدور من التعصب الشديد .

وهذا الكره ليس عقليا فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضا بصبغة عاطفية قوية .

قد لا تتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية ، أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ، ومبني على التفكير .

إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي في التسرب .

حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام .

ويظهر في بحوثهم ــ على الأكثر ــ كما لو أن الإسلام لا يمكن ان يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته[1] ومادامت بحوثهم هكذا ، فما هي الصورة التي ينقلها أحدهم إلى طلبته عندما يتولى التدريس أو إلى قارئيه عندما يكتب ؟

لاشك أنها الصورة المشوهة .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ص ٥٠ ــ ٥١ .

من هنا يكون إنشاء مدارس أجنبية في البلاد الاسلامية خطرا على الإسلام ، وأملا بالنسبة لأعدائه .

وقد حاول أعداء الإسلام في كل مكان نزلوا فيه أن ينشئوا المدارس التي من خلالها يستطيعون نفث سمومهم في داخل العالم الإسلامي ، وأمنيتهم الأولى صبغ أبناء المسلمين بصبغة أوربية الفكر .

وكانت هذه المدارس التي أنشأها العدو لهذا الغرض ، في بعض البلاد الإسلامية أقدم منها في البلاد الأخرى تبعا لتقدم النفوذ الأوربي في بعض البلاد ، وتأخره في البلاد الأخرى .

ففي لبنان نجد الموارنة وعلاقتهم بأوربا قديمة ترجع إلى أيام « شارلمان » . ومنذ ذلك الوقت تأسست البطريركية المارونية ، وكانت على صلة وثيقة بالكنيسية المسيحية في روما ، وبقيت هذه الصلة حتى بعد انفصال الكنيسية الشرقية عن الكنيسية الغربية وأسست للموارنة مدرسة في روما لتخريج رجال الدين ودراسة علوم أخرى .

والعلاقة بين فرنسا والمارونيين هي علاقة الأم بابنها ؛ فالمارونيون يفخرون بهذه العلاقة وفرنسا تعتبرهم الطفل المدلل .

والمارونيون ركيزة لأوربا كلها وليس لفرنسا فحسب ، وقد كانوا عونا للصليبين في الحرب الصليبية .

فلما جاء العصر الحديث وجدت أوربا لها ركائز في الشام وهم المارونية .

وكثر توافد الإنجيليين منذ سنة ١٨٣٨ للدعوة إلى البروتستانتية ، وأسسوا مطبعة عربية كانت لهم في مالطه أولا ، يطبعون عليها الأناجيل بلغات مختلفة لنشرها في الشرق .

ثم تبعهم اليسوعيون من الطوائف الكاثوليكية ينشئون مطبعة لهم[1] .

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ص ٣٧٦ جـ ١ .

وانتشرت في منتصف القرن التاسع عشر ـــ كما يقول جب ـــ شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ، ولاسيما في تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالبا إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة ، وربما كان أكثرها عددا المدارس الفرنسية ، كاثوليكية وعلمانية .

ثم تلتها المدارس الأمريكية والإيطالية واليونانية .

وقد كانت المدارس الإنجليزية في الامبراطورية العثمانية أقل منها في الهند وكانت المدارس الهولاندية قاصرة على جزر الهند الشرقية[1] .

واستطاعت هذه المدارس أن تعمل بكل حرية في مصر والشام بسبب التسامح الذي اتصف به محمد علي .

وكان هذا التسامح سببا في فتح البلاد أمام الارساليات الأجنبية سواء من الكاثوليك أم البروتستانت .

فنجد جمعية اتحاد مبشري أمريكا الشمالية سنة ١٨٥٤ تنشيء معهدا للتبشير . وكان هذا المعهد أهم معاهد التبشير . وفي سنة ١٨٨٢ تأسس في مصر معهد علمي للتبشير تابع لجمعية التبشير الكنسية ، وله أربعة فروع الأول قسم طبي ، والثاني مدرسة للصبيان ، والثالث والرابع لنشر الانجيل . وينشر مبشرو هذا المعهد مجلة أسبوعية ، وكراسات ، ولهم مكتبة خاصة بهم .

والنتيجة الأولى لمساعي هؤلاء هي تنصير قليل من الشباب والفتيات كما جاء في كتاب (العالم الاسلامي اليوم) .

والثانية تعويد كل طبقات المسلمين أن يقتبسوا بالتدريج الأفكار المسيحية .

---

(١) وجهة الاسلام ص ٣٧ .

وبعد المعهدين السابق ذكرهما تأتي جمعية تبشير شمال أفريقيا ، وهذه الجمعية أسست معهدا في مصر سنة ١٨٩٢ م .

وفي سنة ١٨٩٨ تأسست « الجمعية العامة لتبشير مصر » ، وغايتها تنصير المسلمين أيضا وكان لها معاهد في الدلتا والسويس وتدير مدارس للصبيان والبنات وتبث فيهم مبادىء النصرانية .

وفي التقرير الذي قدمه القسيس « ترو بريدج » إلى « مؤتمر » لكنو جاء فيه ما يلي :

« بين جدران الكلية الإنجيلية في بيروت ١٠٤ من المسلمين وفي كلية الآستانة ٥٠ وفي كلية المبشرين في كرك باشا في الأستانة أيضا ٨٠ ومنذ بضع سنين صدر إذن خفي بجواز التردد على الكلية الأولى والثانية .

وقال : إن في استطاعة المسلمين التردد على مدارس وكليات التبشير[1] .

وأسس الأمريكيون أول مدرسة للبنات ناهجين على المنوال نفسه من حيث العناية بالعربية والعلوم الحديثة .

وحينما اضطر المصريون إلى إرجاع سوريا للأتراك هاجر كثير من المتعلمين إلى مصر حيث شعروا بحرية أكثر للاستمرار في نشاطهم الأول .

وأسست الارسالية التابعة للكنيسة الرئيسية كلية للبنين في أسيوط تعد طلابا للكهنوت ، وكان الغرض الأصلي انعاش الكنيسة القبطية لتتمكن من التبشر بين المسلمين .

وبذلك نرى أن الشرق الإسلامي أصبح هدفا لجيوش الفكر كما هو هدف لجيوش الحرب ، وأن المدارس غرضها الحقيقي تنصير المسلمين ، وأن الكنائس

---

(١) ارجع في ذلك إلى كتاب الغاره على العالم الاسلامي .

المسيحية ـــ رغم اختلافها فيما بينها ـــ اتحدت في كل ماهو ضد المسلمين . فترى الأمريكان البروتستانت يساعدون أقباط مصر الارثوذكس ، ثم هم يتحايلون فاذا لم يمكن تنصير المسلمين ، فليكن العمل على السيطرة على أفكارهم ، وهذا سيكون نتيجة للتعليم الذي يسير على تخطيط غربي ، كما يرى ـــ جب ـــ حين يقول :

« ولعل هناك نصيبا من الحق في التهمة التي ترمي بها هذه المدارس الأجنبية ، وهي أنها مفسدة لقومية التلاميذ ، وان كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة ، ولكن الذي فعلته ـــ بلا ريب ـــ أنها ربت في التلاميذ خروجا على الأنظمة الاجتماعية ، وعلى السياسية ، إلى حد ما ، في أوطانهم الأصلية .

وبإضعافها ـــ من هذه الوجوه ـــ سلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ ، أدخلت في بناء المجتمع الإسلامي أداة هادمة ، وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه[1] .

وأصبح الشباب الإسلامي ـــ كما يقول « بايرد دودج » ـــ في المدن الكبيرة يشربون الخمر ، ويقرءون الصحف أكثر مما يتلون القرآن ، ولا يعنون عناية ظاهرة بالنظم القديمة ، ولكنهم يساهمون في الأعمال الخيرية .

وأعمال الإحسان الخاصة ليست جديدة في الإسلام ، ولكن الأعمال الخيرية المنظمة ذات الطابع الحديث جديدة ، والنبي يقول : أتحب خالقك حب أخاك الإنسان أولا . . وهل هناك قاعدة أحسن من هذه القاعدة لعبادة الله عن طريق الخدمة الاجتماعية ، وأعمال الخير ، وما إلى ذلك من أعمال البر بالناس . .

وهذه الخدمات ، الاجتماعية تعوض عن العقائد التي يمكن أن يقف منها

---

(١) وجهة الاسلام ص ٣٨ وإذا كانت الوطنية لازالت باقية فهو لاصالة هذه الشعوب ولدينها الذي يعصمها .

الأعضاء موقف عدم المبالاة[1] .

ويوضح محمد أسد الدور الذي يلعبه تدريس الأدب الأوربي في عقول الشباب ، وكذلك دراسة التاريخ من وجهة النظر الأوربية وينبهنا على الخطر فيقول : ان الدور الحاضر الذي يقوم به الأدب الأوربي في المدارس الإسلامية يجب أن نتبدل به تدريسا عاقلا بصيرا للادب الإسلامي يتأثر منه الطالب بسعة الثقافة الإسلامية وغناها .

وهكذا يشع في نفسه أمل من جديد بحسن مستقبلها .

إن تعليم الأدب الأوربي على الشكل الذي يسود اليوم الكثير من المؤسسات الإسلامية يقود إلى جعل الإسلام غريبا في عيون الناشئة المسلمة .

ومثل هذا ــ ولكن إلى حد أبعد ــ يصدق على التعليل الأوربي للتاريخ العام ؛ اذا لايزال الموقف القديم فيه (رومانيون وبرابرة) يظهر بجلاء .

ثم إن لمثل هذا العرض في التاريخ هدفا خفيا . . وذلك أنه يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء إلى هذا العالم .

وهكذا ، يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الأوربيين إلى السيطرة والى القوة المادية[2] .

ويزيد في الأضرار أن الناشيء عندما ينشأ على فكر معين يبقى حياته طوع هذا الفكر ، يدافع عنه ، ويتعبد بأوامره .

ما دام قد تربى على أن المدنية الغربية هي الوحيدة التي يجب أن تكون ، وإذا نظر إلى الحضارة الإسلامية فإنما ينظر إليها من خلال المدنية الغربية .

---

(١) الاسلام في نظر الغرب ص ٣٤ ــ ٣٥ ونجد تبرير الخروج على الدين بالاشتغال بالخدمة الاجتماعية وهو نوع من استدراج المسلم للخروج على دينه وأما الحديث فلم أستطع العثور على سنده برغم ما بذلته من جهد .

(٢) الاسلام على مفترق الطرق ص ٧٤ ، ٧٥ .

ما دام قد نشأ على هذا فإنه سيصل إلى حالة يكون فيها حرباً على دينه ، جندياً لأعداء الإسلام ، ويغذي فيهم الغرور بأن الإسلام لم تعد للعالم به حاجة .

وإذا عرفنا أن الذين ربوا في المدارس الأجنبية إنما كانوا من الطبقة العليا أو المتوسطة ازداد الخطر ؛ لأن الأمور ظلت بيد هاتين الطبقتين لمدة طويلة وأصبح الجمهور عرضة للتأثر بهؤلاء .

ومن هنا أصبح من الممكن ان نقول : إن العقيدة الدينية آخذة في إخلاء أما كن كانت تحتلها ، إلا إذا قام الدعاة بما أوجبه الله عليهم ، وأنقذوا قومهم .

ومما يزيد في الألم أنه في حين نرى الحركة التعليمية الحديثة تبعد الشعوب الإسلامية عن دينها نرى هذه الشعوب التي خلعت سلطان الدين لا تشعر بما أصابها إلا نادرا بل قد انعكست الآية فبدل أن كان المسلم خاضعاً لأوامر دينه أصبح يحاول أن يخضع دينه للمدنية الغربية ، ويريد أن يكيف أوامر الدين لتتفق مع ما تمليه هذه المدنية .

وسار المسلمون في ذلك شوطا بعيداً ، حتى مسخ الدين على يد أبنائه وبعملية مقارنة بين ما كان الحال عليه وبين ما صار إليه يتضح الفرق .

ونترك أحد الأجانب يعقد هذه المقارنة حتى لا نتهم بالمبالغة .

إنه يخبرنا بأنه باستثناء التعليم المسيحي المستقل ـــ كما يرى ـــ يسترعى نظرنا عدم وجود قاعدة خلقية للتعليم الهولندي[1]أي في اندونسيا . لقد كان الفرد في أندونسيا ـــ وبخاصة الأشراف ـــ ينشأ على صفات الشجاعة والفطنة ، وضبط النفس ، والأخلاق النبيلة وكان يرجى منه فوق هذا بأن يلم بأخلاق السلف ، وعاداتهم ، وبتقاليد الأسرة ، لأن هذه هي الدعائم التي يقوم عليها المجتمع الأندونيسي[1] .

---

(١) وجهه الاسلام ص ١٨٩ .

وجاء المعلمون الهولنديون بأفكارهم البعيدة عن الناحية الروحية ـــ ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة ، واحترامهم لها .

ومعنى هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم وأساس الإسلام أيضا ، لأنه متصل بالعقائد الموروثة صلة وثيقة[1] .

ثم يقول :

« إن التعليم الأوربي يعمل على قلب وجهة نظر الناس قلبا لا يقف عند حد . وقوة الضربة التي تعانيها الثقافة الأهلية كل يوم ، إنما يحس بها تمام الإحساس الأندونوس الذين هم أكبر سنا . أما الجيل الجديد فقد شب بين أحضان النظام الجديد ، ولم يظهره المعلم الأوربي على شيء من الثقافة الأهلية ، حتى إن هذا الجيل لا يحس بما بين الثقافتين من فرق إحساسا قويا » .

ثم يقول :

والآن فالتعليم على الأسلوب الأوربي الجديد ـــ وهو غريب عن روح الإسلام غربته عن روح المسيحية ـــ يمنح وهو صامت بذور انحلال في الفكر أكثر مما حدث[2] .

نصل إذاً إلى أن الواجب أصبح يحتم علينا أن نحترس من الاستغراب ولكن كثيرا ما نسمع من تربوا على يد الغرب يرفعون أصواتهم قائلين :

ان الزمن قد تغير وإننا لابد أن نلاحق سير الحضارة ، والغرب بيده مفتاح العلوم ، والشرق ليس عنده شيء ، إلى آخر هذه الأمور .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٨٨ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٩٠ .

والجواب أننا في حاجة إلى العلم ، والإسلام دعا إلى العلم وموقف الإسلام من الدعوة إلى العلم لاتحتاج إلى شرح ، فقد جعل خشية الله مقصورة على العلماء . والعلماء الذين قصدهم هم العلماء في أي فرع من فروع المعرفة التي تفيد الإنسانية فائدة حقيقية تتفق مع الشرع ، كما تنبهنا على ذلك الآيات السابقة على قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وبتقديم لفظ الجلالة وتأخير لفظ العلماء يكون المعنى :

إن الذين يخشون الله من عباده العلماءُ دون غيرهم . وعلى ذلك فالإسلام يدعو إلى العلم بل ويجعله واجبا وفريضة . والواجب علينا أن ندرس . وأن تشمل دراستنا جميع فروع العلم من شرعية وطبيعية ورياضية .

فإذا كان في أوربا رياضة تعلمناها كذلك الطبيعة والطب . . أخ ولكن اذا جاز أن نأخذ عن أوربا الرياضة مثلا لحاجتنا الى ذلك ، فهل نسوغ لأنفسنا أن نتحلل من أوامر ديننا ، وصلتنا بربنا ، ونجري وراء الغربيين في التحلل الذي وقعوا فيه ؟

هناك فرق كبير بين ما ورثناه من ديننا وما ورثته أوربا من الرومان ؛ لقد ورثنا من ديننا أخلاقا قال ﷺ انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

والنظام الخلقي في الإسلام نظام متكامل يحدد للانسان سلوكه الذي يتفق وانسانيته ، ويرضاه له ربه .

أما أوربا فقد خلفت الرومان وورثت عنهم أخلاقهم . وقد جاء على المجتمع الروماني وقت تحلل فيه من الأخلاق ، واندفع في تيار من العرى والفواحش وجموح الشهوات . فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة ؛ والتبرج الممقوت ، والعرى المشين .

وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة الى الفجور والدعارة والفحشاء .

ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات ؛ وانجذبت اليها نساء البيوتات .

وتمادى الأمر في ذلك الى أن اضطر القوم الى وضع قانون خاص . . لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المومسات ، وصناعتهن النافقة ، ونالت « مسرحية فلورا » حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد .

أما سرد المقالات الخليعة ، والقصص الماجنة العارية ، فكان عملا مرضيا مقبولا ، لا يتحرج منه أحد ، بل الأدب الذي يتلقاه الناس بالقبول والرضى .

وهو الذي يعبر عنه الناس اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذي يتبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة . غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات[1] .

هذا هو حال الرومان من الناحية الأخلاقية .

وأما المدنية الغربية التي ورثت الرومان فيعبر عنها (لابريولا) أحد ساسة إيطاليا وعلمائها بقوله :

« إننا معاشر البيض من أهل الغرب قد اعتدنا على ذكائنا وما أوجدناه من آلات ، فأصبحنا بذلك أهل المغامرات والفتح والغنى والعلم ، وزدنا على ذلك أن

---

(١) كتاب الحجاب : أبو الأعلى المودودي ترجمة محمد كاظم ص ٢٣ ــ ٢٤ .

غدونا أرباب الجرائم وفينا ظاهرات ثلاث هن حثالة مدنيتنا ورمزها في آن واحد ، المختلس ، والقاتل ، والمومس[1] .

وننتهي إلى أن الدراسة المتأنية تحتم أنه لا يمكن أن نتخذ من الغرب أساتذة فيما يتعلق بالدراسات المتعلقة بالأخلاق والعقائد .

ومما تقدم تعلم أن هذا ليس حكما بدون سبب ، بل لأن أوربا لا يمكن أن تتنازل عن عقيدتها ثم لأن أخلاقياتها لا تتناسب مع أخلاقياتنا .

والأهم من هذا أن هؤلاء الذين جاءوا إلينا كأساتذة لا يتصفون بالنزاهة المطلوبة لأمرين :

أولا : الاحقاد التي ورثوها .

ثانيا : المهمة التي كانوا من أجلها وهي سياسية وتبشيرية قبل كل شيء .

كيف يمكن لأستاذ يأتي من اوربا وعقيدته ، نسبية الأخلاق ، أن يكون أستاذا لقوم مصدر أخلاقهم الوحي .

وكيف يمكن لأستاذ انجليزي مثلا تعلم العربية كلغة أجنبية عنه ، كيف يمكن لهذا الأستاذ أن يتعلم على يديه متخصصون في العربية ؟

إذا كان أسلافنا قد ارتكبوا خطأ فاننا يجب علينا أن نراجع أنفسنا عندما نرسل أولادنا ليتخصصوا في علوم خاصة بنا ولا يعرفها غيرنا .

هل يليق بنا ونحن مسلمون وعرب أن نرسل أولادنا إلى قوم من النصارى اللاتين ليتخصصوا في اللغة العربية بل في علم الفقه والأصول .

---

(١) عن كتاب الاسلام والحضارة العربية ٣٥٤ جـ ١ .

ماذا ينتظر من أستاذ يقدس الرومان إذا أصبح يحاضر في الفقه الإسلامي ؟

* * *

ولم يكتف الاعداء بمدارسهم التي ملأت بلادنا . ولا بأخذ أولادنا عندهم ، بل رأوا أنه لابد ـــ لكي يتم لهم ما يريدون ـــ أن يحاربوا دور العلم التي لازالت تربط الناس بدينهم ، والبلاد التي يمكن أن تكون أساس نهضة دينية بغيرها .

محاربة الأزهر وجميع دور التعليم الاسلامي في العالم

نظر الأعداء إلى البلاد الإسلامية وإلى دور التعليم والمعاهد العلمية بها وبخاصة إلى الأزهر والجامعات الاسلامية نظرة عداء مستمر .

وإليك ماجاء في كتاب « وسائل لتبشير المسلمين بالنصرانية » يقول :

إن أحد أعضاء المؤتمر أفاض في وصف ما للجامع الأزهر القديم من النفوذ وإقبال الألوف عليه من الشباب المسلمين في كل أقطار العالم .

وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ الف سنة إلى الآن .

ثم قال : إن السنيين من المسلميين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه في غيره .

والمتخرجون في الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين .

وباب التعليم مفتوح في الأزهر لكل مشايخ الدنيا خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا لأنه في استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ أستاذا ـــ كان ذلك قبل سنة ١٩٠٦ .

ثم تساءل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر . وعرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها . وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية .

ثم قال :

إن في الإمكان مباشرة هذا العمل في دائرة صغيرة وهي أن يعني أولا بتعليم المسلمين المتنصرين ، وتربيتهم تربية إسلامية ، ليتمكن هؤلاء من القيام بخدمة

جليلة في تنصير المسلمين الآخرين . وختم كلامه ، قائلا : ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحي لتنصير الممالك الإسلامية .

وهكذا نجد أن محاربة الأزهر ـــ ومثله كل دور التعليم الاسلامي في كل الأقطار ـــ تدرس على أعلى مستوى .

كما نجد أسلوب الباطنية يبدو واضحا حيث ينصح بتربية المتنصرين المسلمين تربية إسلامية ـــ في الظاهر طبعا ـــ حتى يتمكنوا من تنصير غيرهم .

وبالطبع سيكون سلوكهم أنهم يتظاهرون بالإسلام والتمسك به حتى يستدرجوا غيرهم .

هذا كان أمل العدو غير أن الواقع صار إلى غير ما أمل ، وكانت ، مقاطعة المسلمين للمتنصرين وعدم إصغائهم لهم[1] .

* * *

أما بالنسبة لإنشاء المدارس التبشيرية فقد كانت خطة تدرس في جميع مؤتمرات التبشير تقريبا .

وقد كان من قرارات مؤتمر لكنو بالهند سنة ١٩١١ ، ما يلي :

ويرى المؤتمر أنه من الضروري العاجل تأسيس مدرسة في مصر خاصة بالتبشير تكون عامة لكل الفرق البروتستانتية[2] .

يضاف إلى ذلك المدارس التي أنشأها المبشرون للتعليم في مصر وكانت كثيرة ، وفي وقت صار في مدارس المبشرين في القطر المصري ٣٠٠٠ طالب

---

(١) الغارة على الاسلامي ص ٤٨ .

(٢) المرجع نفسه ١٢٨ ويراعى أن المؤتمر كان بالهند إلا أنه لم ينس مصر .

مسلم وخمس هؤلاء من البنات المسلمات[٢] .

ولكن الواقع أن طريق المبشرين كان صعباً ، فقد أقروا بأنه بالرغم مما يبذله المبشرون من الغيرة في هذه البلاد الإسلامية لم تكلل أعمالهم بالنجاح ، حتى إنهم أوقفوا مدرسة التبشير في القاهرة في سنة ١٨٦٢ بعد أن تخرج فيها بعض المبشرين[٤] .

وعن مقاومة المصريين ـــ وبخاصة الشباب ـــ الأعمال التبشيرية يقول سكرتير مؤتمر التبشير المنعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ .

« إن الخطة العدائية التي اتبعها الشباب المسلمون المتعلمون اضطرت المبشرين في القطر المصري إلى محاولة إعادة ثقة الشباب المسلمين بهم ، فصار هؤلاء المبشرون يلقون محاضرات في موضوعات اجتماعية ، وخلقية ، وتاريخية ، لا يستطردون فيها إلى مباحث الدين ، رغبة في جلب قلوب المسلمين إليهم وأنشأوا بعد ذلك في القاهرة مجلة أسبوعية اسمها الشرق والغرب » افتتحوا فيها بابا غير ديني يبحثون فيه الشئون الاجتماعية والتاريخية وأسسوا أيضا مكتبة لبيع الكتب بأثمان قليلة ، والغرض من ذلك استجلاب الزبائن ومحادثتهم أثناء البيع[١] .

وسيكون الجدل بين بائع من المبشرين ، ومشتر من المسلمين البسطاء . كعامة الشعب في ذلك الوقت .

وإن جدلا كهذا ـــ لاشك معروف النتيجة ، اذ لن يكون في امكان المشتري كشف خبثه .

وسيرجع هذا المشتري ـــ على الاقل ـــ أقل ثقة في دينه عما كان عليه قبل أن يذهب إلى بائع الكتب هذا .

وسيظهر لنا في الصفحات التالية كيف جند القوم أنفسهم لمهمة التبشير هذه . بحيث يمكن القول بأن جميع طوائفهم انقلبوا مبشرين .

---

(٣) المرجع نفسه ٤٨ .

(٤) المرجع نفسه ١٤٠ .

(١) المرجع نفسه ص ٣٢ .

محاولة تنصير المسلمين

الأمنية الأولى للعدو أن يتحول المسلم الى نصراني ، وأعداء الاسلام لا يخفون هذا ولا يقولونه سرا .

إن المتتبع لما يكتبون يجد هذا الطابع لهم جميعا والشواهد على ذلك كثيرة سواء من الحكومات أم من الأفراد .

ففي مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في ليدن (هولندا) سنة ١٩٣١ قال ناظر المعارف الذي افتتح هذا المؤتمر :

« إن هولندا لا تذهب الى الشرق لأجل التجارة ، بل لنشر حسنات الدين المسيحي .

وحوالي سنة ١٩٢٩ تشكلت في بلجيكا وزارة أعلنت من جملة برنامجها : العمل لتنصير أهالي مستعمرة الكونغو .

ووجد الغرب أن الفرصة سانحة بضياع استقلال الدول الاسلامية وخضوعها للغرب .

وقد صرح المهتمون بالتبشير ــ كما يقول روجر لابون ــ أنه يجب انتهاز هذه الفرصة ، وأنها لو ضاعت فلن تعود ، وأن مما يساعد على التبشير مع الاستعمار أن الشباب الذي كان متمسكا بالدين في الماضي بدأ ــ كما حصل للشباب الذين جندوا في الجيوش الأجنبية ــ يشرب الخمر ويترك الصلاة ولا يصوم رمضان .

كل هذا مع ثورة فكرية تقربه من الغرب وتبعده عن الاسلام وأحكامه . وقد صار بعض الشبان (من المسلمين) يغشون محلات العبادة عند النصارى سواء في سان لويس أو في دافار ، ويشتركون في الأناشيد الروحية ، مما يدل على عقلية لم تكن من قبل . ثم يقول :

« فعلى المبشرين أن يستغلوا هذه الحالة الجديدة بتوجيهها إلى جهة المسيح . وقد آن لنا أن نستفيد عبراً من الماضي »[1] .

وفي نفس الاتجاه يتجه زويمر حين يقول :

« يجب أن نعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلن تعود أبدا . فينبغي أن تكون هزيمة الاسلام في الحرب العامة انتصاراً للكنيسة المسيحية »[2] .

ثم بعد ذلك يرسم لقومه الطريق الذي يجب أن يسلكوه مع الاسلام وأن : عليهم أن يسلكوا طريق الملاطفة مع المسلمين ، وألا يظهروا بمظهر الشماتة ، وأن يظهروا الحزن على ما أصاب الاسلام وفي أثناء ذلك يجب سوق الحملة ضد الاسلام بحكمة وشجاعة .

ونتركه يعبر عن ذلك بأسلوبه فيقول :

« إن الإسلام قد تلاشت قوته ؛ وانهارت دعائمه ، وسقطت مكانته الأولى ومشت سكة الأجنبي في حقله ، فلا تناسب زيادة قهره والظهور بمظهر الشماتة به ، لئلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويثير من نخوتهم ويؤجج من نيران أحقادهم ، فينهضوا ويثوروا للمقاومة . بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة ، ويذرّف الدموع ، لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، ونتمكن من حرث ذلك الحقل الذي صار مباحا أمامنا .

---

(١) حاضر العالم الاسلامي .

(٢) عن كتاب حاضر العالم الاسلامي ص ٢٨١ جـ ١ .

على أنه لا يؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسلك الضعف مع الإسلام والعدول إلى التهيب ، إذ لا يعقل أنه إذا دعى الإنسان إلى بيت لم يبق له أبواب ولا نوافذ أن يضيع وقته في احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الأدب والكياسة .

إنه يجب سوق الحملة بحكمة ومهارة ولكن يتحتم سوقها بشدة . . ويجب أن تبني الكنيسة جميع قواها من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى الجنوب تحت راية مؤسسها ، وتشن هذه الغارة على الإسلام إلى أن تصل إلى غايتها[1] .

وإذا كنا نجد في هذا النص ما يدلنا على طرق الأعداء في الهجوم على الإسلام فإننا الآن نبين ما سار فيه الأعداء تنفيذا لهذه الخطة .

أولا : حاولوا استعمال القوة لحمل الناس على التنصر ، وساروا في ذلك شوطا بعيدا ولكن هذا أثار الخواطر وخافت الحكومات من اندلاع الثورة وهنا تراجعت بعض الحكومات كما يقول « بونه موري » في كتابه « الإسلام والنصرانية في أفريقيا » .

يقول : وكانت الدول المسيحية بادي بدء أرادت حمل الزنوج على التنصر بنفوذ الحكومات وسارت زمانا على هذه الخطة .

ولكن دول انجلترا وهولندا والدانيمارك رفضت في التالي هذه الطريقة خشية حدوث الثورات في مستعمراتها ، وتركت إيتاء مهمة التنصير للجمعيات غير الرسمية[2] .

إنهم وجدوا أن استعمال القوة أثار النخوة وأجج نيران الحقد ، وهنا انتقلوا إلى طريقة الملاطفة والملاينة .

---

(١) عن كتاب حاضر العالم الاسلامي ص ١٨١ جـ ١ .
(٢) عن كتاب حاضر العالم الاسلامي ص ١٨١ جـ ٣ .

فالسبب إذا في عدم استعمال القوة ليس هو إيمانهم بحرية الأديان بل هو الخوف .

إن الاعتداء على الإسلام لن يجعل المسلمين يتخلون عن دينهم سواء كان الاعتداء بالقول أم بالفعل ، وقد نصح الدكتور (ج . كامبفماير) قومه حين قال :

أقول ـــ مع التأكيد ـــ إن أحدا من المسلمين لا يعارض في بيان محاسن الدين المسيحي ، وفي إظهار الحياة والأعمال المسيحية الصحيحة ، وربما كان هذا مؤديا إلى نتائج نافعة .

أما الاعتداء على الإسلام فلا ترجى منه فائدة ثم يقول :

« وأقرر ـــ مع الأسف ـــ أن مثل هذا الاعتداء حدث في جهات كثيرة ، وفي المسلمين اليوم من يقرءون كل ما يكتب ، ويسمعون كل ما يقال بأي لغة ، ولن يردهم الاعتداء عن دينهم ولن يعوق النهضة الإصلاحية بل سيقويها .

ثم يقول : هذا الاعتداء ليس من شأنه إلا تكدير الجو ، وخلق المتاعب في العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحين في الشرق . وتوسيع الهوة بين الشرق والغرب بما يتعارض مع مصلحة المبشرين ، ومع ما ترغب فيه من إقرار العلاقات بين الشرق والغرب اقرارا شاملا[1] .

إيمان كامل من الغرب ـــ وبعد التجربة ـــ أن الاعتداء على الإسلام لن يرد المسلمين عن دينهم .

ثانيا : محاولة إيجاد حاجز بين الشعوب وبين التعليم حتى تبقى الشعوب ملازمه للجهل ويسهل استغلالها فكريا واقتصاديا .

---

(١) وجهة الإسلام ص .

ونسمع هنا رأي غربي متعصب للغرب هو « برو كلمان » في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية ، إنه يوافق على رأي الإنجليز في غرضهم من استعمار مصر و « أنهم لا يهدفون إلى المحافظة على مصالح الامبراطورية في تلك البلاد فحسب ، بل إلى رفع مستوى المصريين من الوجهتين المادية والفكرية أيضا .

ثم يستشهد ببعض المصريين دون ذكر اسمهم فيقول :

فالحق أن مصر ـــ على ما اعترف بعض الوطنيين المصريين الحصفاء ـــ مدينة للإدارة البريطانية إلى حد بعيد جدا .

هذا هو رأيه . ورأى بعض المصريين الذين وصفهم بالحصفاء .

ولكنه بعد ورقة واحدة يتناقض .. فيبين استغلال الأجانب المصريين ، ثم يبين سياسة كرومر التعليمية ، فيقول : « ولكن أبرز ما تلام عليه إدارة كرومر لوما كبيرا أنها لم ترصد غير اعتمادات هزيلة جدا لتعليم الشعب ، في حين خصصت أموالا ضخمة للإنشاءات التي تنطوي على خدمة المصالح البريطانية أيضا ، فمن سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٠٢ مثلا لم تبلغ اعتمادات التعليم الشعبي نصف نفقات خزان اسوان إلا بعد جهد » .

وهنا نسأل أين النعمة التي أصابت المصريين من الانجليز ؟ وإذا كانوا قد اهتموا بخزان أسوان فذلك ليس لصالح المصريين بل لسد حاجة المستعمرين من القطن والقمح . وإذا شجعوا نوعا من التعليم فإنما هو التعليم الذي يخدم أغراضهم ؛ كما تقدم في الكلام على المدارس وكما سيأتي في التبشير .

فالجهل حاجز بين الشعوب وبين العلم ؛ والتعليم على طريقتهم حاجز بين الشعوب وبين الحقيقة ، والأخذ بيد هذه الشعوب نحو ما يريد الأعداء أعداء الدين .

محاربـة الشـــريعة

عمل العدو على إبعاد المسلمين عن أحكام دينهم حتى يألفوا الخروج على الدين . لقد جعلوا هذا هدفا من أهدافهم ، وصرحوا به . ففي مؤتمر المستشرقين الذي عقد في ليدن (هولندا) قال المستشرق « هور غرونيه » إن سن القوانين من الشريعة الاسلامية غير موافق ، لأنه ينبغي لنا أن نفهم المسلم أنه لا يقدر أن يعيش معيشة عصرية راقية ، وهو متمسك بشريعته ، وأنه يجب أن يعلم أن شريعة الإسلام لا تتسع لقبول المدنية الحاضرة[1] .

تشكيك المسلم في شريعته ، وذلك لا يكون بدون حجة ، والحجة هنا هي المدنية ، وأن الحكم بالشريعة تأخر ، ورجعية وللأسف هذا ماصرنا نسمعه من مسلمين .

والاحتجاج بأن الشريعة الإسلامية أصبحت غير صالحة للمدنية هو منع الحكم الشرعي بالحسنى ، فإن تمسك المسلمون بشريعتهم فلا بد من منعهم من تحكيم الشريعة بالقوة .

يقول (مارتي) :

« كل تدخل من قبل الفقيه ، وكل ظاهرة إسلامية يجب منعها بصرامة تامة فنحن نبتعد من تلقائنا عن كل مرحلة تكون مرحلة إسلامية ، أي مرحلة تبلور . إن الآراء هنا وفي كل مكان متفقة على هذه النقطة »[2] .

ويقول موريس لوجلان :

« يجب أن نعلم البربر كل شيء ما عدا الإسلام » ، ويقول « روجر

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٧٣ جـ ١ .
(٢) دفاع عن الشريعة ص ١٦ .

لابون » موضحا السبب في محاربتهم للشريعة الإسلامية : وإذا أيدنا في مستعمراتنا ادارتنا الملكية وجعلناها فوق الشريعة الإسلامية كان ذلك خطوة أولى في منع انتشار الإسلام بين الأقوام التي لم ترسخ أقدامه بينهم[1] .

هذا ما أعلنته السلطات الفرنسية لابعاد الشعب عن الحكم بشريعته الإسلامية . وإذا حاول بعض البربر المطالبة بإبقاء قضاتهم الشرعيين يكون نصيبهم السجن ، لأنهم ـــ في نظر الحكومة الفرنسية ـــ خارجون على الطاعة .

إن العدو درس الإسلام وأمكنه أن يعرف كل شيء ، ووصل الى أن هناك ناحية في الإسلام لاداعي للاسراع بالتعرض لها ، وهناك ناحية لا يجوز التأخر في مقاومتها .

أما الناحية التي رأى عدم التسرع في (معارضتها ـــ أي بالقوة ـــ) فهي العقيدة وبعض أنواع العبادات كالصلاة : لأن منع مسلم من تأدية صلاته ربما يكون سببا في ايجاد حالة عصيبة ، ولأن محاربة العقيدة يمكن أن تتم بالتدريج . واذا بقيت العقيدة بدون عمل فإنها ستصبح رقيقة لا تقوى على البقاء . أما الأحكام الشرعية في المعاملات والعقوبات فان جميع الدول الاستعمارية قد اتفقت على محاربتها بدون استثناء ، اما بمنع التعامل بها ، أو بحصرها في الأحوال الشخصية وقد ترتب على منع العمل بالأحكام الشرعية في المعاملات والعقوبات أن أصبح المسلم يرى نفسه خاضعا لقانون مدني لا يعرف له صلة بدينه . وهنا نجد الدين لم يعد هو العامل الأساسي في الروابط الاجتماعية ، وبذلك انفصل الدين عن الحياة الاجتماعية .

زد على هذا أن عدم التعامل بالأحكام الشرعية في المعاملات والعقوبات قد أصاب الفقه بالجمود وتوقف عن النمو في هاتين الناحيتين وما يتصل بهما ؛ لأنه لو كان العمل بالشريعة مستمرا فإن الفقهاء كانوا سيجدون لهم دافعا على

---

(١) عن كتاب حاضر الإسلامي .

إنهم يرون أن المجموعة المتمسكة بدينها ستنهار بتعرضها للدراسات الأجنبية .

وفي هذه المناسبة أتمنى لهؤلاء الذين لازالوا يهاجمون كل من وقف أمام دعوة على عبد الرازق ويصفونهم بالجمود والرجعية وبأحياء سلطة رجال الدين في العصور الوسطى ، أتمنى لهؤلاء أن يدرسوا مثل هذه الكتب ، وهل كان أمثال على عبد الرازق إلا أعوانا لأعداء الإسلام ومنفذين لآرائهم .

رحم الله علماءنا الذين تعرضوا لكل ما تعرضوا لا حبا في دنيا ، ولكن دفاعا عن دينهم .

ولكون إلغاء الشريعة بهذه الأهمية في نظر الأعداء نراهم يعلنون الحرب عليها بلا هوادة .

والآن إلى بعض هذه المحاولات المحمومة لإلغاء الشريعة الإسلامية .

وسنأخذ بعض الشواهد من المحاولات التي جربت في عدة مناطق من العالم الإسلامي . ونبدأ بما حصل في المغرب الإسلامي وكيف حاول الفرنسيون القضاء على الشريعة الإسلامية وإحلال البربرية مكانها يقول علال الفاسي : ــ

« وأخطر المحاولات التي سلكتها الحماية للقضاء على محاكمنا الإسلامية هي السياسة البربرية ، فقد عملت هذه السياسة مستطاعها على محو الشريعة الإسلامية واللغة العربية من القبائل الجبلية وإحلال الأعراف المحلية سكانها .

ومن المعلوم أن هذه الأعراف بدائية ، ولم تكن صالحة للبقاء ولكنها صالحة لقطع المرحلة التي يفصل فيها قسم من المغرب عن العربية وعن الأحكام الشرعية .

ومتى تعود سكان هذه النواحي على الحكم بغير ما أنزل الله واستعمال اللغة الأجنبية إلى جانب اللهجات البربرية ، لا تبقي هناك صعوبة في إدخال

---

(١) الإسلام في نظر الغرب ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

الدراسة والتجديد والاجتهاد ، أما وقد توقف العمل بالشريعة فان الدافع على الدراسة لم يعد موجودا .

ويرى الأعداء أن كل مهاجم للحكم الشرعي هو علامات مشجعة لنجاح خطتهم ؛ كما كانوا يرون علامات البؤس في هؤلاء الذين يدعون للحكم بالشريعة .

يقول فيليب وايرلند :

« ومن أهم القرائن المشجعه في الإسلام هو تزايد عدم الرضى عن ناحية الحكم الديني منه التي تؤلف بين الدين والقانون والحكومة والنظم الاجتماعية .

وفريق كبير من المفكرين المسلمين يرى فصل الدين عن الدولة ضروريا ، وكتاب على عبد الرازق ــ الذي قرر أن نظام الخلافة لم يكن جزءا ضروريا في أصول الحكم ــ أخذ يعطي ثمرته الآن .

ثم إن المثل الذي ضربته تركيا يراه الجميع .

والتغيير الاجتماعي والسياسي الذي أجرته تركيا لا يبشر بقيام ديموقراطية فحسب ؛ بل روح الديموقراطية أيضا »[1] .

ثم يرى وجود المتمسكين بدينهم وبصلاحيته للحكم علامة تشاؤم فيقول :

« ويقابل هذه الظاهرة المبشرة بالخير وجود نواة صلبة من المسلمين الذين يعتقدون أن خلاص الإسلام هو في المحافظة على حالته الحاضرة .

ولكن قبول النواحي الفلسفية مع الديموقراطية يعين على تحطيم هذه النواة الصلبة كما يؤدي إلى نفس الاتجاهات في بعض البلدان التي يشيع فيها التعصب الديني بين الجماهير لكونه وسيلة لاستمرار قناعتهم بحظهم في هذه الحياة من الناحية السياسية والاقتصادية .

القوانين الأجنبية ؛ وتوسيع دائرة اختصاص المحاكم المؤسسة للأجانب لتعم هذه المناطق فلا يتبقى إلا بعض أهل المدن سرعان ما يوردهم إلى نفس المحكمة تطورهم الفكري عن طريق الاستعمار الثقافي الذي لا تألو سلطات الحماية فيه جهداً[1] .

ثم ينتقل علال الفاسي إلى تفصيل خطوات محاولة القضاء على الشريعة فيقول : « كانت الشريعة الإسلامية هي المرجع الذي تؤول إليه كل القضايا والقاضي الشرعي هو الذي يتولى الحكم في المسائل المدنية والجنائية وفي نظام الأسرة كذلك .

ولكن الحماية الفرنسية بمجرد انتصابها حدت من اختصاصات المحاكم الشرعية وقوت محاكم الأحبار اليهودية ، وأسست المحاكم العرفية في القبائل البربرية وهكذا أصبح القضاء موزعا .

ولكن المحاكم التي كانت تطبق قوانين منظمة هي المحاكم الخاصة بالأجانب .

أما المغاربة فإنهم يخضعون للعرف في القبائل البربرية ، وللقانون المغربي حينما يرفعون للمحاكم الفرنسية ، وللشريعة الإسلامية غير المقننة في محاكم القضاء . هذا في جنوب المغرب ، أما في الشمال فقد احتفظت المحاكم الشرعية باختصاصاتها فيما يرجع للجنايات والجنح والشئون المدنية والأحوال الشخصية . وأسست محاكم أسبانية مغربية للأجانب ، وللقضايا التي فيها أجانب .

فالأمة المغربية في الحقيقة لم تكن بدون قانون ؛ ولكن الشريعة الإسلامية التي هي قانونها المرضي أصبحت معطلة وملغاة ، لأن الاستعمار جعل من تسرب

---

(١) دفاع عن الشريعة ص ١٧ ــ ١٩ ويظهر في الجزء الأخير من النص أن العدو يرى أن مداومة الغزو الفكري كفيل بأن يقضي على المقاومة ضد الثقافة الأجنبية كما أنه كفيل بأن يقضي ــ فكرياً ــ على الموافقين على الشريعة ويحولهم إلى موافقين على الدخيل .

القانون الأجنبي سبيلا للقضاء على الكيان العربي وعلى الفكر الإسلامي في المغرب[1] .

ثم يقول في لجوء الحكومة الفرنسية إلى استصدار الظهائر البربرية كوسيلة لإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية خاصة بين البربر يقول :

« وهذه السياسة التي أطلقت عليها فرنسا اسم السياسة البربرية وشنتها منذ سنة ١٨٥١ في الجزائر حيث أخرجت القبائل عن أحكام الشريعة الإسلامية زاعمة أن البربر الجزائريين هم الذين طلبوا بعث أعرافهم وتكوين أنظمة قضائية تقوم مقام القضاء الإسلامي . وفي ٢٩ أغسطس ١٨٧٤ ألغت فرنسا تلك الجماعات العرفية التي أسستها وضمت القبائل البربرية إلى اختصاص قضاة المصالح الفرنسية الذين يطبقون عليهم القوانين الفرنسية فيما عدا الاستثناءات المعروفة بقانون الأندية . وفيما عدا الأحوال الشخصية فقد أبقتها على مقتضى العرف ولكن قاضي الصلح الفرنسي هو الذي يطبقه .

وفي ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦ ضمت فرنسا اختصاصات المحاكم الشرعية في القطر الجزائري كله إلى دائرة قاضي الصلح الفرنسي . وهكذا جعلت فرنسا من سياسة الرجوع إلى الأعراف الجاهلية قنطرة لضم الجزائر إلى المحاكم الفرنسية وتطبيق قوانينها بعد إلغاء القانون الشرعي الإسلامي .

وبمجرد ما تم بسط الحماية الفرنسية على المغرب استصدرت الإقامة الفرنسية ظهير ١٩١٤ في عنفوان الحرب العظمى الذي يقضي باحترام العوائد البربرية .

وتظهر أهمية هذا الظهير بالنسبة لإلغاء المحاكم الشرعية من التعليق الذي

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢٧ ــ ١٣١ .

كتبه المسيو « رينو » قال : إن لظهير ١١ سبتمبر سن ١٩١٤ أهمية عظمى ، لأنه مستخرج من السلطان نفسه . وقد أقر مبدأ عدم إسلام البربر ، وهو نجاح عظيم لأن السلاطين السابقين كانوا يفرضون تطبيق الشريعة الاسلامية في سائر المملكة .

فظهير ١١ سبتمبر في نظر الفرنسيين سبيل إلى اخراج القبائل البربرية من الإسلام ، لأن الفرنسيين متيقنون أن قبول التحاكم لغير الشريعة الاسلامية تخل نهائي عن الاسلام . . . . . وفي سبيل ذلك استصدرت الحماية عدة ظهائر وقرارات . . . . . وقد توج ذلك كله بظهير ١٦ مايو سنة ١٩٣٠[١] .

ولقد اعتبر الشعب ترك الشريعة إلى العرف البربرى ارتداداً عن الاسلام « ولذلك أخذ يعلن إسلامه وتوبته ويطلب اللطف من الله العلي القدير ، وأن يحفظ له الوحدة الدينية التي يهددها إحداث محاكم لا تطبق أحكام الشرع الاسلامي[٢] .

هذه بعض المحاولات التي تمت في المغرب الإسلامي لتعطيل أحكام الشريعة ولا يقتصر ذلك على المغرب بل نراه في أماكن أخرى .

ففي النيجر وزع المسيو « بريفيه » الحاكم من قبل فرنسا منشورا جاء فيه عن عادات الزنوج وتقاليدهم الموروثة ما يأتي : ــ

«وإنه يوجد من ذلك قواعد قضائية كافية لأجل حل المشكلات الاجتماعية ، وفصل الخصومات الفردية ، وهي من وجوه كثيرة لا تقل متانة عن الشرع الإسلامي . قال : وانه يجب علينا أن نجمع تلك الهيئة الاجتماعية التي توشك أن تنحل والتي هي متفرقة أشتاتاً حول تلك الأصول القديمة[١] .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٥٩ ــ ١٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢ .

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٥٣ جـ ٢ .

هل يصدق باحث علمي في فرنسا أن الزنوج غير المسلمين « البومبارة » والذين يعبدون الحيوان والأشجار أن هؤلاء الوثنيين عندهم ما في الاسلام من قوانين[٢] .

إن الأمر ـــ كما تقدم ـــ يتلخص في الحقد على الاسلام ومحاولة خنقه .

وقد كانت النتيجة أن الشريعة الاسلامية ألغى العمل بها في معظم البلاد الاسلامية . فقد كانت النتيجة في مصر مثلا أن صار قانونها مأخوذاً من القانون الفرنسي في مجمله ، وبقيت زاوية ضيقة للشريعة الاسلامية هي زاوية الأحوال الشخصية وحتى في هذه الزاوية لازال تلاميذ الغرب يحاولون زحزحة الشريعة عنها . لقد كان إبعاد المسلمين عن العمل بالقانون الإسلامي ابعاداً لهم عن حقيقة دينهم .

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٥٢ جـ ٤ .

تعـقيب

لقد حاول العدو إبعاد المسلمين عن شريعتهم ، وترك لهم العقيدة يهاجمها أحيانا ويسكت حينا . وظن المسلمون أنهم مسلمون ما داموا ينطقون الشهادة ، وهذا وهم باطل .

إن الوحي الذي نزل على محمد ﷺ ولا زال محفوظا في القرآن الكريم : هذا الوحي هو الإسلام ، إيمان وعمل . إيمان بالله واليوم الآخر ، وعمل صالح حسب ما يقتضيه هذا الإيمان من تعاليم .

فالإسلام دين ، وهذا الدين يسيطر على المسلم في عقيدته وفي علاقته بربه مما يطلق عليه العبادات ، وفي علاقته بأخيه الإنسان بما يطلق عليه المعاملات ، والحاكم المسلم هو الذي ينفذ أحكام الشريعة كخادم للدين ، فالحاكم فرد من أفراد الأمة ولا يكون الفرد مسلما إلا إذا كان سائرا على أحكام دينه ، فإذا ما أصبح هذا الفرد حاكما لأمة فكيف ينفصل عنها عمليا مع المحافظة على دينه ؟

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ﴾[1] .

وقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[2] .

والطاعة لا تكون طاعة إلا إذا كانت كاملة .

إذا كان هناك مواطن يسير على قانون الدولة كله ما عدا جزئية كأن يختلس مثلا نحكم على هذا المواطن بأنه غير شريف ، لماذا لا يكون كذلك فيما يتصل بالإسلام ؟

---

(١) من آية ٦٤ النساء .

(٢) من آية ٧ الحشر .

على المسلم أن يعتز بدينه علنا ويسير رافعا رأسه مناديا بشريعته يفخر بالانتساب إليها والاحتماء بحماها .

وهنا ــ وعندما يعتز بدينه سيجد نفسه مدفوعا لإحياء دينه فيكون بين المبشر وبين خلع المسلم عن دينه مسافة لا يمكن تخطيها .

أما إذا أهمل المعاملات كما جاء في شريعته فإن العدو لن يكتفي بهذا بل سينتقل إلى العبادات يهاجمها وهذا ما حصل فإننا نجد العدو بعد أن بين أن الشريعة لا تصلح لهذا العصر ، قال ذلك أيضا بالنسبة للعبادات وإليك ما قال .

يقول « بايرد دودج » : ليس شيء أجمل في المجتمع نصف البدوي لعهد النبي محمد [ﷺ] من أن ينزل الجمالون عن جمالهم ويؤدون الصلاة مجتمعين .

أما اليوم فكيف يستطيع صراف أو سائق سيارة الأجرة أو شرطي تنظيم المرور أن يؤدي الصلوات الخمس في القاهرة أو في استانبول .

والمشكلة نفسها تبدو في رمضان .

فليس من العسير أن تصوم من شروق الشمس إلى غروبها في الصحراء ، إن استصعت أن ترجي سفرك أو عملك إلى الليل البارد ، ولكن إذا كنت مثلا سائق عربة الترام في أحد أيام شهر آب الحار في مدينة كالقاهرة ، فكيف يمكنك أن تصبر على الظمأ والجوع من شروق الشمس إلى غروبها وتنهض بأعباء عملك في الوقت نفسه[1] ؟

ألم نقل إن العدو لن يقف عند حد .

إنه يدعو إلى ترك الشريعة لأنها ليست متطورة كما يظن أو كما يوهمنا ويطلب منا أن نصدقه .

---

(١) الإسلام في نظر الغرب ص ٢٣ ــ ٢٤ .

وهو هنا ينتقل إلى العبادة مشفقا على المسلم من صعوبتها . وهو هنا مضلل .

فبالنسبة للصلاة كان عليه أن يسأل اثنين خرجا مجهدين وأرادا أن يأخذا فترة من الراحة يعودان بعدها لعملهما أما أحدهما فاتجه إلى مصلاه وتوضأ وأدى فرضه وأما الآخر فلم يؤد الصلاة ورجعا إلى عملهما . أيهما نال من الراحة حظا أوفر .

ووقت الصلاة ممتد ما بين الوقتين ما عدا الصبح فإنه ما بين الفجر وطلوع الشمس .

وشرطي المرور ليس في عمل يحول بينه وبين الصلاة ما دام يريد تأديتها . إن الجيش الإسلامي أدى الصلاة في الميدان بل وأثناء المعركة وتفصيل ذلك معروف في الفقه الذي وضع لكل ظرف ما يناسبه . فهل شرطي المرور أكثر شغلا من الجندي في المعركة ؟

وأما بالنسبة للصوم فإنه يبدأ من الفجر لا من شروق الشمس وقد أحل الإسلام للبعض أن يفطر كالمريض والمسافر .

وأما من ذكرهم فإن البحث العلمي كان يقتضي أن يقابل واحدا منهم متمسكا بدينه ويعرف أي نعمة يعيش فيها .

ولكن القوم يحثون الخطى نحو هدفهم وهو الحيلولة بين المسلم وبين دينه .

التبشـــير

إذا استثنينا الدعوة لاستعمال القوة لتنصير المسلمين يمكن القول بأن الطرق التي مرت بنا حتى الآن كانت ـــ في معظم مراحلها ـــ دعوة للنصرانية بطريق غير مباشر ، ثم تمهيدا وإعدادا للجو الذي يعمل فيه المبشرون .

أما التبشير فهو الدعوة السافرة للمسلم كي يترك دينه ، ويعتنق النصرانية . ويمكن القول بأن جميع النصارى قد اشتركوا في التبشير ، بطريق مباشر أو غير مباشر .

ولأمر أراده الله سبحانه كان العالم الإسلامي خلال القرن التاسع عشر الميلادي في أحط مراحل حياته وكان العالم الأوربي في أوج نشاطه وقوته .

وأما بالنسبة للناحية الدينية في أوربا فإنه « إذا عمد الإنسان إلى إحصاء المفكرين المسيحيين وأعمال الجمعيات التبشيرية ، وعدد نسخ الإنجيل المطبوعة ، وعدد المدارس الدينية آنذاك ، لاستنتج أن القرن التاسع عشر أعظم القرون المسيحية ، وهو لهذا كله أدى لانتشارها وترسخها »[1] .

ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا معظم طوائف المجتمع الأوربي تشارك في التبشير .

والذي يهمنا الآن هو معرفة بعض الطوائف التي اشتركت في التبشير بالفعل أو عاونت على التبشير .

وهذه الطوائف هي : الأغنياء والساسة ، ثم رجال الدين ثم الأطباء ثم المرأة ثم الشباب وإليك البيان .

---

(١) منشأ الفكر الحديث ص ٧٨ .

(أ) **الأغنياء والسياسيون :**

لم يبخل الأغنياء النصارى بأموالهم ، بل بذلوا بسخاء للمبشرين ، وكثيرا ما كان هؤلاء الأغنياء يحضرون المؤتمرات التي تقام لتوجيه أعمال التبشير ، ولا ينتظرون من يطلب منهم ، بل هم الذين يعرضون الأموال .

ونضرب لذلك مثلا بحادثة «حصلت إبان انعقاد المؤتمر التبشيري المختلط في (روشستر) بأمريكا » إذ انبرى المستر (الفريد ميرلنغ) الصيرفي والثري الشهير في نيويورك وتقدم إلى الحاضرين قائلا : أن لدي أمرا أريد أن أبسطه عليكم ، وهو أننا أصدقاء قديمون اجتمعنا ورأينا أننا كنا في ضلالة ؛ لأن السعي الوحيد وراء اقتناء الأصفر الرنان لا يأتي بفائدة أدبية ، لذلك يجب أن نعمل مجهوداتنا للتأثير على رجال الكنيسة ، وعلى الأغنياء الذين يتمتع كل منهم بشيء من ثروة البلاد التي تربو على ١٠٧ مليارات ريثما يستعملون ثروتهم لأغراض سامية نبيلة ؛ لأن العالم كله في حاجة شديدة ليسوع المسيح .

ولذا فإننا نقول للقائمين بأعمال لجان التبشير : سندر عليكم أموالنا بمزيد من الدقة ، فهل لكم أن تنضموا إلينا وأنتم في شرخ الشباب ؟ ضحوا حياتكم نظير ما نبذله لكم من الأموال لأننا نحن الآن في حين الشيخوخة ، وأصبحت أيامنا معدودة ، هل لكم أن تقضوا حياتكم على خدمة يسوع المسيح ؟ نحن نريد جمعية تبشيرية لا يعطلها عن أعمالها غير الموت . ولنبرم إذاً هذا العقد بيننا »[1] .

ثم اجتمع متمولوا أمريكا وأغنياؤها لأول مرة سنة ١٩٠٦ فقرر هؤلاء المتمولون تأليف لجنة منهم للمذاكرة مع رؤساء كل إرساليات التبشير الأمريكية في الأمور الآتية :

١ ــ بذل المجهودات لأجل تربية المبشرين العلمانيين .

(١) المرجع نفسه ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

٢ ــ البحث وإعمال الفكر لرسم خطة تنصير العالم قاطبة في مدة ٢٥ سنة .
٣ ــ تشكيل لجنة هامة مؤلفة من ٦٠ عضوا أو أكثر بأقرب ما يمكن لكي تتعهد وتزور مراكز إرساليات التبشير وتعمل التقارير عنها .

وقد كان من نتيجة هذا الاجتماع الذي أقامه المتمولون الأمريكيون رواج فكرة التبشير وتأسيس لجان لهذا الغرض في كل أرجاء الولايات المتحدة .

وانضم إلى أصحاب الأموال .

السياسيون

وهنا كانت المنفعة متبادلة فالمبشرون يحتاجون إلى معاونة الساسة لهم لأن هؤلاء يملكون المال والسلطان . والساسة مسيحيون يهمهم نجاح المبشرين في رسالتهم ويعبر عن وجهة نضر الساسة اللورد « بلفور » رئيس شرف اللجنة السابعة من مؤتمر « أدنبرج » التبشيري سنة ١٩١٠ قال اللورد « بلفور » عن المبشرين والساسة :

« إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة . ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرا من العقبات . وعلى هذا فنحن في حاجة إلى محبة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين .

« فأجيب اللورد إلى اقتراحه ، وتألفت لجنة مختلطة ولجنة لمواصلة العمل »[1] . وسيكون من عمل الساسة مقاومة الإسلام وفتح الطريق أمام المبشرين . وهذا ما جاء في قرارات المؤتمر الاستعماري الألماني .

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٨ .

فقد أجمع على ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألماني .

ومما يدعو إلى الدهشة أنه في فقرة واحدة يقول بالحياد الديني ، ومقاومة الإسلام ، ومساعدة التبشير ، ولا ندري أي حياد هذا ؟

يقول القرار :

إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم .

ولذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح الحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة .

والمؤتمر الاستعماري ـــ مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماما في الشئون الدينية ـــ يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التي تبث مبادىء المدينة خصوصا بخدماتهم التهذيبية والطبية .

ومن رأي المؤتمر أن الخطر الإسلامي يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير ـــ من غير تسويف ـــ في كل الأرجاء التي لم يصل إليها الإسلام بعد »[1] .

هذا هو دور الأغنياء والساسة وضعوا في يد المبشرين سلطة الحكم والمال .

(ب) رجال الدين المسيحي :

لا نستطيع هنا أن نحيط بمجهود رجال الدين المسيحي في هذا المجال

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٣ .

ولذلك سنكتفي ببعض الأمثلة فقط .

كان من أوائل من تولى التبشير في القرون الوسطى « ريمون لول » وقد اتجه إلى التبشير بعد أن رأى فشل الحروب الصليبية في مهمتها .

وقد تعلم « لول » اللغة العربية وتنقل في كثير من بلاد العالم الإسلامي والتقى بكثير من علماء المسلمين وتناقش معهم .

وتتابع بعد ذلك المبشرون وكانت هناك محاولات كثيرة من أفراد وهيئات وكان من أبرز المبشرين « المستر كاري » يقول عنه « أدويس بلس » إنه فاق أسلافه في مهنة التبشير فدرس لغة اللاتين واليونان والفرنسيس والهولانديين والعبرانيين كما تعلم كثيرا من العلوم .

ولما نشر كتبه في التحريض على التبشير قوبلت بالاستحسان ، ففتح له باب الاكتتاب وذهب إلى الهند لهذا الغرض ، وصارت الأموال ترسل إليه ، ثم طلب أن يرسل إليه رجال يؤازرونه في التبشير ، فتأسست سنة ١٧٩٥ جمعية لندن التبشيرية .

وما عتمت أن تأسست جمعيات على شاكلتها في « اسكوتلانده » و « نيويورك » وانتشرت هذه الفكرة في « ألمانيا » و « الدانيمارك » و « السويد » و « هولانده » و « النرويج » و « سويسرا » وغيرهما .. وتأسست جمعيات فرعية كثيرة مثل « جمعية التبشير في أرض التوراة العثمانية » .

وانتشر بعد ذلك المبشرون في جميع أنحاء العالم ، وكان لكل ناحية من برز فيها في التبشير ، أو في إيفاد المبشرين والاشراف عليهم .

فنجد مثلا المبشر « هنري مارتين » المتوفي سنة ١٨١٢ يعمل على إرسال المبشرين إلى بلاد آسيا الغربية ، ويقيم في الهند مدة ينتقل بعدها إلى فارس والبلاد العثمانية ، ومن بعده أخذت بعثات التبشير تنشط متجهة إلى فلسطين والأناضول ، متخذة لها مراكز في أزمير والقسطنطينية وبيت المقدس .

وننتقل من الأفراد إلى الجماعات ، ونكتفي بمثل واحد هم :

الآباء البيض :

« أسس هذه الجماعة الكاردينال « لافيجري » ، ومهمتهم هي الطواف في البلاد الإسلامية بأفريقيا مرتدين للزي الإسلامي ، وطريقة عملهم أنهم يغشون أماكن التجمع كالنوادي ، وكذلك الاتصال بالعائلات ويتلمسون كل الوسائل للاتصال بالمسلمين وبث دعوتهم بين الأهالي ، خاصة بين الناشئة . وكان يعينهم على هذا نفوذ الحكومة التي أطلقت أيديهم في العمل . ولم تكتف الحكومة الفرنسية بمجرد التشجيع بل اشتركت عمليا بتميز المنتصرين على غيرهم وفي بعض الأحيان كانت تعفيهم من بعض العقوبات » .

يقول الحاج عبد الله الجزائري في وصف الآباء البيض :

« فإنهم يهجمون على الإسلام في كل مكان ويحولون بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، ويخربون نظام العائلات ، فيضطر الأب أن ينكر ابنه ، والأخ أن يهجر أخاه ، والعشيرة أن تبرأ من بعض أبنائها . وغالبا يخرج مثل هؤلاء الذين اجتذبهم الآباء البيض مفسدين ، لا من الجياد لا في الإسلام ، ولا في النصرانية »[1] .

وطريقة الآباء البيض يصفها المسيو « بونه موري » في كتاب « الإسلام والنصرانية في أفريقيا » فيقول ـــ مع العلم بأنه من أنصار التبشير ـــ :

« فرهبانية الآباء البيض تلجأ إلى الوسائل السلمية لا غير . فهي تؤسس بقرب كل محطة مستوصفا وصيدلية ، الأول منهما يصف العلاجات ، والثاني يعطيها مجانا ثم مدرسة ودار أيتام . وليس إلا بعد وقت طويل ، وبأذن أهل

---

(١) عن كتاب حاضر العالم الإسلامي ص ٣٥٨ ـــ ٣٥٩ .

الأولاد ، يلقن الآباء هؤلاء الأولاد التعليم الديني ، أما اليتامى فيعلمون التعليم الديني فرضا »[1] .

هذا تصوير رجل غربي لمنهاج الآباء البيض مع الأولاد .

والأولاد ينقسمون إلى قسمين ــ كما يؤخذ من كلامه ــ : يتامى وهؤلاء يتعلمون التعلم الديني فرضا أي يجبرون على اعتناق النصرانية وما أكثر اليتامى في بلد يساق فيه الآباء إلى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . ومن رجع منهم قتل بيد المستعمرين ، فإذا ما انتهت حياة الأب بهذه الطريق أو تلك كان أولاده عرضة للتنصير بالقوة على يدي الآباء البيض .

والقسم الثاني من الأولاد من له أب وكما يقول . هؤلاء لا يعلمون الدين المسيحي إلا بأذن آبائهم . وهذا أيضا من التمويه لأنه ما دام في مدرسة أجنبية يقف أستاذه فيها كالذئب يتحين الفرصة لالتهامه ، ما دام الأمر كذلك فإن الولد بمجرد أن دخل في هذا المكان فقد أصبح ضحية ، وأصبح بعيدا عن النجاة .

ولكن إذا عرف أن مؤسس الآباء البيض ، هو الكاردينال « لافيجري » الذي كان من رأيه أن سيادة فرنسا على المغرب تبقى معرضة للزوال طالما مسلمو المغرب مسلمين ، وأن فرنسا كي تأمن على نفسها ومستقبلها في شمال أفريقيا ليس أمامها إلا تنصير المسلمين .

إذا كانت هذه هي عقيدة مؤسس الآباء البيض هل ينتظر منه أن يراعي الحياد في المواقف الدينية ؟ إن القوم قد أصابتهم حمى الكره للإسلام ، فكانوا كلما فشلوا في خطة انتقلوا إلى خطة أخرى . وفي شمال أفريقيا نراهم ينقلون نشاطهم إلى البربر فبنوا المستشفيات والملاجىء والمدارس تحت رعاية رجال دينهم ، وأرسلوا القساوسة في كل مكان للتبشير بالدين المسيحي .

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٧٤ ــ ٣٧٥ .

وكان الإنصاف يقتضي ترك التعليم الإسلامي قائما حتى يختار كل واحد الدين الذي يوافقه ولكن للأسف نراهم يحاربون التعليم الديني الإسلامي ، ويصدرون الأوامر بعدم دخول من كان له صلة بالدين كالفقهاء والقراء ومشايخ الطرق ، يمنعون هؤلاء من الدخول إلى بلاد البربر حتى ولو كان تاجرا يعرف شيئا عن دينه . وأوجبوا على كل من يريد أن يذهب إلى بلاد البربر أن يحصل على رخصة . كما لم يسمحوا لأي واحد من البربر أن يرسل ولده إلى فاس لتعلم الشريعة .

بينما كان هذا هو موقفهم من الإسلام كان القساوسة يجوبون البلاد طولا وعرضا بغية تنصير الأهالي مستعملين في ذلك سلاح الترغيب والترهيب .

ولقد أظهر البربر أنهم من أشد الناس تمسكا بالدين الإسلامي كما أقر بذلك المهتمون بقضية التبشير . يقول المسيو « شاتليه » رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامي الفرنسية يقول : (ص ١٢ كتاب من الغارة على العالم الإسلامي) « من النادر المستغرب أن تقع حوادث التنصير في بيوت السادة العلوية وبين الباتان (الأفغانيين) الخاص الموجودين في بلاد الهند أو مشايخ الهند وجيرانهم الأفغانيين والأتراك والتركانيين والعرب الحقيقيين والبربر .

(جـ) الأطبـــاء :

استطاع أعداء الإسلام أن يسخروا مهنة الطب الإنسانية ويبعدوها عن مهمتها إلى تحقيق أغراضهم .

جاء في كتاب ملخص « تاريخ التبشير » للمستر « أدوين بلس » عن تنظيم الارساليات التبشيرية في القرنين الأخيرين :

« وبلغ الشغف بهذا العمل إلى أن تأسست إرساليات تبشيرية طبية على

سبيل التجربة لتلحق بالإرساليات العامة فنجحت نجاحا باهرا ، لذلك أخذت تنمو وتزداد وتألفت لها أقسام نسائية ، ولأن المريض ضعيف محتاج كان من السهل التأثير عليه وهو في هذا الظرف . وهم يدركون هذا ويستغلونه بالفعل .

ولقد كان من المسائل التي عالجها مؤتمر القاهرة التبشيري المنعقد سنة ١٩٠٦ مسألة إرساليات التبشير الطبية . وقام المستر « هاربر » وأبان وجوب الاكثار من الإرساليات الطبية لأن رجالها يحتكون دائما بالجمهور ، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين .

وهنا ذكر المستر « هاربر » حكاية طفلة مسلمة عنى المبشرون بتمريضها في مستشفى مصر القديمة ، ثم ألحقت بمدرسة البنات البرتستانتية في باب اللوق ، وكانت نهاية أمرها أن عرفت كيف تعتقد بالمسيح بالمعنى المعروف عند النصارى .

وذكر أيضا عن رجل مسلم كان يحضر محاضرات المبشرين لإثارة الجلبة والضوضاء واتفق أنه مرض فدخل مستشفى المبشرين . وبعد أن لبث فيه مدة شفى ، وخرج منه فصار يحضر المحاضرات في هذه المرة ، ولكن بخشوع زائد . وبعد ذلك بقليل تعمد وأصبح نصرانيا على مذهب البروتستانت .

ثم قام الدكتور « أراهارس » طبيب إرسالية التبشير في « طرابلس » الشام فقال : إنه قد مر عليه إثنان وثلاثون عاما في مهنته فلم يفشل إلا مرتين فقط ، وذلك عقب منع الحكومة العثمانية أو أحد الشيوخ لاثنين من زبائنه من الحضور إليه .

وأورد إحصاء لزبائنه فقال : إن ٦٨٪ منهم مسلمون ونصف هؤلاء من النساء ، وفي أول سنة مجيئه إلى حيث يبشر بلغ عدد زبائنه ١٧٥ وفي آخر سنة كان عددهم ٢٥٠٠ .

وختم كلامه قائلا : يجب على طبيب إرساليات التبشير ألا ينسى ولا في

لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ، ثم هو طبيب بعد كل ذلك .

وقام بعده الدكتور « تنباني » وذكر الصعوبات التي يلقاها الطبيب في التوفيق بين مهنتي التبشير والطب ، كما حدث هو معه . إلا أن ما بذله من المجهودات قد أعانه على النجاح حتى تمكن من تأسيس مستشفى التبشير من طريق الاكتتاب . وكان أول مكتتب لهذا المستشفى التبشيري رجلا مسلما .

وخطب الأستاذ « سمبسون » بعد ذلك في بيان فضل الإرساليات الطبية ومما قاله : إن المرضى والذين ينازعهم الموت بوجه خاص لابد لهم من مراجعة الطبيب ، ومن أن يكون هذا الطبيب « المبشر » في جانب المريض عندما يكون في حالة الاحتضار التي لابد أن يبلغها كل واحد من أفراد البشر .

ثم خطبت المس « أنا وستن » فتكلمت عن إرسالية التبشير الطبية في مدينة طنطا قائلة : إن ٣٠٪ من الذين يعالجون في مستشفى هذه الإرسالية هم من الفلاحين المسلمين ، وأكثرهم من النساء .

أما طريقة التبشير في هذه المستشفى فهي أن يذكر الإنجيل للمرضى بأسلوب بسيط لا يدعو إلى التطرف في المناقشة ، إذ المستشفى يجمع بين جدرانه نساء ورجالا »[1] .

هذه هي مهنة الطب نرى كيف سخرت لأغراض دنيئة وتحالفت مع التبشير والاستعمار في القضاء على الإسلام .

ونرى الأسلوب الذي لا يتفق مع الإنسانية في شيء لقد جاء الإسلام بالحرية ومعنى الحرية أن يقف الإنسان بإرادته الكاملة أمام أمرين أو أمور ليختار منها ما يراه صالحا له ؛ فأمر الإيمان مبني على التمكين والاختيار في الإسلام ، وسار المسلمون على هذا وجاء الغرب ليدعي أنه يقول بحرية الأديان . فهل من

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٤ .

الحرية في شيء هذه الصور التي ذكرها . طفلة مريضة تخرج من المستشفى لتلتقطها مدرسة تبشيرية ، وعلى ما يبدو كانت هذه الطفلة بلا عائل يحدد لها طريقها كما هو ظاهر من رحلة حياتها .

ثم ما معنى قولهم إن الطبيب مبشر أولا وقبل كل شيء ؟ ما أتعس الأمم التي صدقتهم ووثقت بهم مقابل قطعة شاش وشيء من المرهم ، لو لم يأخذوا هذا الدواء ماذا كان يحصل ؟ سيموت هذا الشخص بأجله ؛ أما بعد الدواء فإن الخنجر أصبح موجها إلى صدر الأمة بأجمعها .

أما رأي الأستاذ « سمبسون » فإنه رأي لئيم وشيطان . ما ذنب هذاالقروي المحتضر الذي لا يدري من أمره شيئا حين يجد ذئبا متسلطا عليه ينتزعه من دينه .

لقد كانت فكرة اشتغال الأطباء كمبشرين مسيطرة على العقول . ففي سنة ١٨٨٥ ذهب إلى عدن « إيون كيث فالكونر » وهو الابن الثالث للكونت « كنتور » . فأسس هناك إرسالية تبشير اسكوتلاندية سماها باسمه وهي مؤلفة من طبيبين مبشرين وتبعتهما « إرسالية التبشير العربية » التي أسست سنة ١٨٨٩ ، وهي تابعة لكنيسة الإصلاح الأمريكية فانتشرت في البصرة والبحرين ، ولها في البحرين خمسة مبشرين : إثنان منهم طبيبان واثنتان امرأتان .

فهنا نجد أن مهنة الطب كانت رئيسية في التبشير ، فنجد في الإرسالية الأولى طبيبين هما كل أعضائها ، وفي الثانية طبيبان وامرأتان من خمسة أعضاء .

ويظهر أن القوم بدءوا يودعون طريقة الوعظ التقليدية لإيمانهم بقلة جدواها . ولم يكن العمل الطبي قاصرا على الإرساليات التقليدية فحسب بل بطريقتهم الخاصة وصلوا إلى مناصب رئيسية في الدول الإسلامية .

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٧ .

ففي تركيا ــ مثلا ــ نجد القسيس « بيت » التابع لإرسالية التبشير في الآستانة عين رئيسا للجنة الإسعاف الخيرية التي تأسست تحت رعاية السلطان عقب مذابح « أدنه » .

وإذا ما تولى المبشرون إدارة أي مستشفى حولوه إلى خلية تبشير . يقول القسيس « تروبريدج » في تقريره إلى مؤتمر « لكنو » :

« والتبشير الديني جار بلا صعوبة في المستشفيات التي يدير أعمالها المبشرون »[1] .

وهكذا نجد التبشير على يد الأطباء لا يقتصر على بلد دون بلد بل نراه يغزو الآستانة نفسها عاصمة الخلافة الإسلامية . كما غزاها على يد فئات أخرى من المبشرين .

المرأة مسلمة وغير مسلمة :

عرفت الهيئات التبشيرية ما للمرأة من قيمة في عملية التبشير . وأنهم إذا اكتسبوا المرأة المسلمة إلى جانبهم فقد أصابوا الهدف ورجحت كفتهم .

ومن الوسائل التي سلكوها لاصطياد المرأة المسلمة ــ فوق وسائلهم الأخرى ــ هي المرأة غير المسلمة تدخل على المسلمات حاملة معها التبشير . ولم يكن الأمر يسير ارتجالا ، بل حسب تخطيط بحث في المؤتمرات التبشيرية . ففي مؤتمر « لكنو » التبشيري سنة ١٩١١ نجده يحدد الطريق الذي يجب أن يسلك هنا فيقول : ــ

« ولما كان تنصير النساء المسلمات مع أولادهن ، ورفع شأنهن يتطلب دخول النساء المسيحيات في العمل ، فأعضاء المؤتمر يشيرون على إرساليات

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٥ .

التبشير بالتشديد على المبشرين والمبشرات بضرورة التحكك بالرجال والنساء عند قيامهم بأعمالهم التبشيرية . وأن توسع الإرساليات نطاق الأعمال التبشيرية التي يقوم بها النساء في أفريقيا بوجه خاص . وأن تعنى بتربية النساء المبشرات[1] .

وأما مؤتمر القاهرة التبشيري المنعقد سنة ١٩٠٦ فقد عالج بعناية الأعمال النسائية في التبشير . إذ « كان لهذا الموضوع اهتمام كبير من أعضاء المؤتمر لأنه خاص بنصف مسلمي العالم فقالت المس « ولسون » :

« إن النساء المبشرات يستعن في الهند بالمدارس ، وبالعيادات الطبية وزيارة قرى الفلاحين لينشرن النصرانية بين طبقات الناس . وخطبت المس « هلداي » في حث المبشرين على الرفق بالمرأة المسلمة . وتناولت السيدات المبشرات الخطابة في أخبار نجاحهن في المناطق التي انتدبت للتبشير فيها ، فقالت إحداهن :

إن المسلمات الفارسيات يظهرن ميلا شديدا للعلم بالرغم من جهلهن باتساع نطاقه ، وهن يعتقدن أن الذي يعرف جغرافية البلاد نابغة . ولقصة الابن المسرف في الإنجيل ، وللمزمور الحادي والخمسين تأثير شديد على النفس المسلمة .

وقالت مبشرة أخرى :

« إن مدرسة البنات البروتستانتية التي في الخرطوم فيها من ثمانين إلى تسعين تلميذة مسلمة ، ولأهلهن الحرية في السماح لهن بقراءة العهد الجديد (الإنجيل وذيوله) أو في منعهن من ذلك . إلا أن المدرسة لم يرد إليها طلب استثناء واحد من التلميذات من قراءة الإنجيل . وانتقل المؤتمر بعد ذلك إلى موضوع النساء اللائي يتطوعن للتبشير .

ومن الكتب التي ألفت لخدمة دعوة المؤتمر كتاب « أخواتنا

المسلمات »[1] .. ومن الطرق التي كانوا يسلكونها كي ينفذوا إلى المرأة المسلمة هو إقناعها بأنها مظلومة وأن ظلمها ليس من المجتمع بل من الإسلام نفسه . فمما جاء على لسان « جمعية التبشير الكنيسة الانجليزية » :

« إن في الإسلام عيبا فاحشا هو حطه من شأن المرأة . ودعمت ما عزته إلى الإسلام بذكر نبذة جاء فيها : إن امرأتين فارستيتين سميتا ابنتيهما الأولى (غير مطلوبة) والثانية (كفى بنات)[2] .

(١) المرجع نفسه ص ٢٤ .
(٢) المرجع نفسه ص ٨٢ .

تعـقـيب

بذلك نرى إعداد الجيوش لغزو المرأة المسلمة في معقلها يذهبون إليها في كل مكان ويتتبعونها أنى وجدت ويدخلون عليها من باب الشفقة عليها ورفع الظلم عنها . ولو أنصفوا لعرفوا أن الإسلام رفع شأن المرأة . وهذا هو الذي يتمشى مع عقائد الإسلام الأساسية .

إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما ﴾[1] .

فما دامت البنت خلق الله فهي في كنفه ، والله الذي خلقها لن يهينها لكونها بنتا ؛ لأنها صنعه . ولذلك كان من إحقاق الحق أن نقول : إن الإسلام أكرم المرأة وأنقذها مما كانت فيه من ظلم واضطهاد . فلقد حارب العادة الجاهلية التي هي وأد البنات .

وإذا كان من عادة الجاهلية إن لم يئدوا البنت أن يمسكوها على هوان وذل إذا كانت هذه هي حال البنت في الجاهلية فإن الإسلام بمنعه للوأد لم ينقذ حياتها فحسب بل وكرامتها أيضا . ولما كان حب الأب لابنه يدفعه للعناية بولده وقد لا يتوفر ذلك للبنت فإن الإسلام عوض عن ذلك بالثواب الذي أعده لوالديها على تربيتها .

فقد جاء في تفسير القرطبي لآيات سورة النحل ما يأتي :

---

(١) الشورى : ٤٩ ، ٥٠

« عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت جاءتني مسكينة تحمل ابنتين فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال :

« إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها من النار » .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

« من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو » وضم أصابعه أخرجهما مسلم رحمه الله .

وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ :

«من كانت له بنت فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها ، وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه كانت سترا أو حجابا من النار » .

ويبين القرآن الكريم أن الرجل إنما هو شقيق للمرأة : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء .. ﴾[1] .

وصلة الزوج بزوجه هي الإلف والمودة والرحمة . قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[2] .

وكان موقف الإسلام هذا من المرأة ليوضح حقيقة الفطرة التي فطر الله

---

(١) أول سورة النساء .

(٢) الروم ٢١ .

الناس عليها ، وحتى يرفع عن المرأة ما أصابها على مر التاريخ من ظلم وحيف ، فلقد اعتبرت المرأة شيطانا يوسوس بالشر والخطيئة . وأعطى الرجل لنفسه من الحقوق ما تأباه الفطرة ، لا فرق بين الشرق والغرب . فقد كان من حق الرجل الروماني قتل وبيع أولاده ولم تأخذ المرأة حقها في الدولة الرومانية .

وفي المسيحية ــ المبدلة طبعا ــ التي يظن أصحابها أنهم جاءوا ليرفعوا الظلم عن المرأة المسلمة في هذه الديانة نرى المرأة سبب المعاصي وأصل الفجور وسلاح إبليس الذي يوجهه إلى خلق الله ، وأنها التي سببت شقاء الإنسانية بإغوائها آدم .

وكانت نظرتهم إلى العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ولو بطريق الزواج أنها يجب أن تجتنب في حق من يريد الكمال . ومن هنا كانت الرهبنة التي أخذوها من الفلسفة الإشراقية وأدخلوها في نظامهم الكنسي ، ولذلك حرموا على فئة من رجال دينهم الزواج . وبعض الطوائف تمنع رجال الدين مطلقا من هذا الحق .

وهذا كله يحط من شأن المرأة ومنزلتها في المجتمع الذي تعيش فيه . ولما جاءت المدنية الأوربية الحديثة لم ترفع من شأن المرأة ــ كما يظن البعض ــ بل استغلتها ، وخاصة بعد الحرب حين احتاجت أوربا أن تبني نفسها من جديد مع قلة الرجال حيث ذهبت بهم الحرب .

وخرج الرجل من الحرب محطم الأعصاب ، ووجد أمامه المرأة : وجد فيها أصحاب الأعمال العامل الذي يتقاضى الأجر الأقل ووجد فيها أصحاب المتعة مآربهم . وإنني هنا أنقل رأي[1] جوستاف لوبون ، مع أنه لم يدرك حال المرأة الأوربية بعد الحرب الثانية وهو هنا يقارن حال المرأة في الإسلام وحالها في أوربا .

---

(١) الفصل الرابع من كتاب حضارة العرب .

يقول « لوبون » مفندا مزاعم بني جنسه ، وحملتهم على تعدد الزوجات في الإسلام . « ولا نذكر نظاما أنحى الأوربيون عليه باللائمة كمبدأ تعدد الزوجات ، كما أننا لا نذكر نظاما أخطأ الأوربيون في إدراكه كذلك المبدأ ، وذلك أن أكثر مؤرخي أوربا اتزانا يرون أن مبدأ تعدد الزوجات حجر الزواية في الإسلام ، وأنه سبب انتشار القرآن ، وأنه علة انحطاط الشرقيين . ونشأت عن هذه المزاعم الغريبة ، على العموم ، أصوات سخط رحمة بأولئك البائسات المكدسات في دوائر الحريم .. ثم يقول :

« ذلك الوصف مخالف للحق ، وأرجو أن يثبت عند القارىء الذي يقرأ هذا الفصل ــ بعد أن يطرح عنه أوهامه الأوربية جانبا ــ أن مبدأ تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب ، يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به ، ويزيد الأسرة ارتباطا ، ويمنح المرأة احتراما وسعادة لا تراهما في غير أوربا » .

و « لوبون » عندما يقول بفضل نظام تعدد الزوجات وأنه يزيد الأسرة ارتباطا على غير ما يظنه الأكثرون ، عندما يقول « لوبون » بهذا يوضح السبب وهو أنه خير للمرأة أن تكون زوجة شرعية ولو مع ضرة من أن تكون زوجة سرية « ولا أرى سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعي عند الشرقيين أدنى مرتبة من تعدد الزوجات السري عند الأوربيين ، وأبصر العكس فأرى ما يجعله أسنى منه وبهذا ندرك مغزى تعجب الشرقيين الذين يزورون مدننا الكبيرة من احتجاجنا عليهم ونظرهم إلى هذا الاحتجاج شزرا » .

ثم يبين أن أوربا ستقول بتعدد الزوجات في يوم من الأيام ، وقريبا ؛ لأن القوانين عادة تطابق العادات وما دامت أوربا تعدد سرا فسيأتي اليوم الذي تجعله قانونا يقول :

« وإذا نظرنا إلى أن القوانين لا تلبث أن تطابق العادات كان لنا أن نقول : إن تعدد الزوجات غير الشرعي في أوربا لا يلبث أن تؤيده القوانين » .

ثم يأخذ في بيان فضل الإسلام على المرأة ، وأنه رفع شأنها اجتماعيا فيقول :

« والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعية وشأنها رفعا عظيما بدلا من خفضها خلافا للمزاعم المكررة على غير هدى . والقرآن قد منح المرأة حقوقا إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوربية ، كما أثبت ذلك حينما بحثت في حقوق الإرث عند العرب » .

أما رأيه في الإرث الذي أشار إليه فهو قوله في ص ٣٨٩ من نفس الكتاب :

« وتعد مبادىء المواريث التي نص عليها القرآن الكريم بالغة العدل والإنصاف ... ويظهر من مقابلتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والانجليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللائي يزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف حقوقا في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا » . ثم يذكر آيات المواريث التي تبين حقوق المرأة عندما يموت زوجها .

أما عن الطلاق فإنه لا يرى فيه عجبا فقد أباحته قوانين أوربا ، ويقول :

« أجل ، أباح القرآن الطلاق كما أباحته قوانين أوربا التي قالت به ولكنه اشترط أن يكون للمطلقات متاع بالمعروف .

وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق ، هو أن نبحث في حالهن قبل القرآن وبعده .

أما حالتهم قبل الإسلام فيصورها بقوله :

« وكان الرجال قبل ظهور محمد يعدون منزلة النساء متوسطة بين الأنعام والإنسان من بعض الوجوه ، أي أداة للاستيلاء والخدمة . وكانوا يعدون ولادة

البنت مصيبة وشاعت عادة الوأد وصار لا يجادل فيها ، كما لو كانت البنات جراء يقذف بها في الماء .

وبعد أن يبين ما كان بين الرسول ﷺ وبين قيس الذي قال للرسول : والله كان لي بنات كثيرات فوأدتهن من غير أن أشم واحدة منهن ، ورد الرسول ﷺ عليه بأن ذلك عنوان نزع الرحمة من قلبه .

بعد أن بين هذا قال :

والإسلام إذاً لا النصرانية هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه وذلك خلافا للاعتقاد الشائع .

ثم يبين أنه ليس وحده في هذا الرأي ، بل معه كثير من المفكرين فيقول : « وهنا نستطيع أن نكرر إذاً قولنا : إن الإسلام رفع المرأة كثيرا بعيد من خفضها . ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي فقد سبقنا إلى مثله « كوسان دوبرسفال » ثم مسيو « بارتلمي سانت هيلر » . ولم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك .

ثم يبين حال المرأة وتعاستها عند الإغريق وفي اسبارطة حيث كانت تقتل إذا لم تلد ولدا قويا صالحا للجندية . ثم نظرة المجتمع إليها على أنها شيطانة حتى التوراة ـــ نفسها كما يقول ـــ

« أما عن زواج أكثر من واحدة في الإسلام فيقول عنه ، مفضلا له عن الخيانة : فلا ترى هنالك ـــ كما يقول « إيزنبرت » ـــ مثل ما يكدر صفو الحياة الزوجية في أوربا من الخيانة التي هي أعظم إفسادا للأخلاق من تعدد الزوجات على ما يحتمل . ثم يروي في الهامش قول الدكتور « إيزنبرت » إن الخيانة الزوجية في الأمم القائلة بالاقتصار على زوجة واحدة تزيد باطراد » .

ثم يقارن بين حقوق الزوجة في الإسلام وحقوقها في أوربا . فيرى أن

حقوقها في الإسلام ، أفضل كثيرا من حقوق الزوجة في أوربا . ويقول : فالزوجة المسلمة تتمتع بأموالها الخاصة فضلا عن مهرها وعن أنه لا يطلب منها أن تشترك في الإنفاق على أمور المنزل . وتعامل المرأة المسلمة باحترام عظيم فضلا عن تلك الامتيازات . وتنال بذلك حالا أجمع الباحثون المنصفون ـــ ومنهم من ناصب بعاطفته مبدأ تعدد الزوجات العداء ـــ على الاعتراف بحسنها .

ويختم كلامه في الموضوع بقوله : « وإنني أطمع أن يعتقد القارىء ـــ بعد وقوفه على ما تقدم ـــ أن مبدأ تعدد الزوجات أمر طيب ، وأن حب الأسرة ، وحسن الأدب ، وجميل الطبائع أكثر نموا في الأمم القائلة به مما في غيرها على العموم . وأن الإسلام حسن حال المرأة كثيرا ، وأنه أول من رفع من شأنها ، وأن المرأة في الشرق أكثر احتراما وثقافة وسعادة منها في أوربا على العموم تقريبا » . هذا هو رأي لوبون والكتاب مؤلف سنة ١٨٨٤ .

ومؤتمرات التبشير عقدت بعد ذلك التاريخ ، فمؤتمر القاهرة التبشيري كان سنة ١٩٠٦ ومؤتمر لكنو عقد سنة ١٩١١ ، ومؤتمر أدنبرج التبشيري كان سنة ١٩١٠ هذه وغيرها هي المؤتمرات التبشيرية التي دعت إلى استغلال المرأة وإيهامها أنها مظلومة ، وأنها لكي تلحق بأختها الأوربية يجب أن تدين بالنصرانية .

ووقعت المرأة المسلمة في يد أعدائها ، وأحاط بها الأخطبوط التبشيري .

ماذا عملنا نحن لإنقاذها . للأسف حتى الآن لا شيء . وكانت الوسائل التي توهمنا أنها تنقذ المرأة إما غير مجدية ، وإما ضارة بالقضية التي تعالجها .

ولكن إذا كان المتحاربون يجددون أسلحتهم كما وكيفا ، وكل واحد يحاول أن يفوق خصمه . وقد تقدم لنا بعض وسائل التبشير التي يتعرض لها المسلم رجلا وامرأة وسيأتي بعض وسائل أخرى . إذا كان ذلك كذلك كان لنا أن نسأل هذا السؤال .

هل درسنا وسائل عدونا ، وحاولنا أن نحول بينه وبين إخواننا المسلمين

وبخاصة المرأة ؟ إن القسيس (فلمينغ) في كتابه « وسائل لتبشير المسلمين بالنصرانية » . في الفصل الثاني والثالث بحث في الصعوبات التي تحول دون تبشير المسلمين العوام ، وذكر الوسائل التي يمكن استجلابهم بها وتحبيب المبشرين إليهم . وأهم هذه الوسائل العزف بالموسيقى الذي يميل إليه الشرقيون كثيرا ، وعرض مناظر الفانوس السحري عليهم ، وتأسيس الإرساليات الطبية بينهم ، وأن يتعلم المبشرون لهجاتهم العامية واصطلاحاتهم نظريا وعمليا ، وأن يدرسوا القرآن ليقفوا على ما يحتويه ، وأن يخاطبوا العوام المسلمين على قدر عقولهم ومستوى علمهم ، وأن يكون ــ المبشر ــ واقفا على آيات القرآن والإنجيل عارفا بمحل المناقشة .. هذه بعض النصائح لتبشير العوام .

وختم المؤلف هذين الفصلين بأن أكثر المسلمين الذين تنصروا إنما هم من العامة والأميين . أي أن المقدمات أدت إلى نتائج .

فهل أعددنا وسائلنا الاسلامية لتحصين المرأة من هجمات المبشرين بله المضللين .

ونتساءل : كم رجلا استطاع أن يعلم زوجته أو ابنته أمور دينها حتى على فرض أنه يعرف دينه ؟

ومما يحزن في قضية المرأة ــ كغيرها من القضايا التي واجهتنا مع حركة الاستغراب ــ أننا لا نعرف فيها ماذا نريد أن نوصله إلى فكر المرأة ، ولا المنهج الذي نسير عليه . فمنا من لا شغل له إلا توجيه السباب للمرأة وتحميلها وزر كل فساد وصل بالمجتمع . ومنا من قام يدافع عن المرأة وأن الإسلام جعلها كالرجل وأعطاها وأعطاها[1] . ولا يقف بالمعطيات عند حد ، فإذا ما التقى بآية أو حديث فسرها بهواه . ومنا من جعل المجتمع حكما على الشرع ، ما دام المجتمع

---

(١) ومما يملأ النفس حسرة أن بعض الدول الإسلامية خالفت الإسلام في الميراث صراحة فأعطت المرأة مثل الرجل .

يسير على هذا المنهج وعاداته أصبحت هكذا فإن الواجب هو مسايرة المجتمع . وليس من العجب أن تجد المرأة من يعطيها كل هذا باسم الغرب ومدنية الغرب ، ولكن العجب أن يعطيها هذا من يتكلم باسم الدين .

وإذا كان المبشرون قبل أن يوجهوا الحرب ضد المرأة قد اجتمعوا وعقدوا العديد من المؤتمرات ، إما علنية كالمؤتمرات التي تعقد باسم التبشير وإما تحت أسماء أخرى كالمؤتمرات الصحية والتعليمية .. إلخ . إذا كان المبشرون قد فعلوا هذا قبل أن يوجهوا الحرب ضد المرأة فهل فعلنا نحن مثلهم واتفقنا على رأي قبل أن نقوم بالدفاع أو الهجوم ؟ الواقع أن بعضنا أخذ يهدم بعضا ، وهنا حارت المرأة التي تريد الصواب ، أما التي لا تريد الصواب فقد تركت القوم يتقاتلون ومشت في طريقها .

ومن المحاولات التي تمت لإنقاذ المرأة المسلمة إنشاء كليات جامعية إسلامية للبنات في العالم الإسلامي .

ولكن لا زال الخوف موجودا من عدم قيامها بما هو مفروض أن تقوم به من خدمة الدين ، وليس هذا مكان بيان الأسباب لهذا الخوف .

وإنه لأمل كل مسلم أن يتحقق لهذا المشروع كل نجاح .

الشـــباب :

اهتم المبشرون بالشباب اهتماما كبيرا ، وكان اهتمامهم بالشباب المسيحي والمسلم على السواء . فبالنسبة للشباب المسلم نجدهم يحرصون على إرضائهم ولو أدى الأمر إلى تعديل خطتهم . ومثال ذلك ما جاء في كتاب « وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين » تأليف القسيس (فلمينغ) : ففي الفصل الرابع من هذا الكتاب يأتي ذكر الصعوبات التي تقف في سبيل تبشير المسلمين المتنورين . وهذه الصعوبات هي التي جعلت المؤتمر يترك المذاكرة في بادىء الأمر بمسألة

التنصير ، فخاض في البحث عن الوسائل التي يكون لها تأثير ـــ ولو قليلا ـــ على الناشئة لتدرك الأمور الاجتماعية والخلقية والأدبية . وهنا قال سكرتير المؤتمر إن الخطة العدائية التي انتهجها الشبان المسلمون المتعلمون اضطرت المبشرين في القطر المصري إلى محاولة إعادة ثقة الشبان المسلمين بهم . فصار هؤلاء المبشرون يلقون محاضرات في موضوعات اجتماعية وخلقية وتاريخية لا يستطردون فيها إلى مباحث الدين رغبة في جلب قلوب المسلمين إليهم ، وإظهار الود للمسلمين جاء ـــ كما يقول المبشرون ـــ بنتائج طيبة . « وبناء على هذا ساعد المبشرون الشبان المسلمين في تأسيس جمعية الغرض منها صلة وتقرب بين الطبقة المتعلمة والطبقات المتعددة التي تتألف منها الأمة وإنماء روح الاتفاق » . وهنا نجدهم يخططون لصيد الشباب ثم لاتخاذ الصيد كشباك لصيد غيره من طبقات الأمة .

ثم يبين الاهتمام بأمر الشباب وخاصة الذين تعلموا على الطريقة الأوربية ، وأن الهدف الحقيقي هو تنصيرهم فيقول :

« وكل ما خاض فيه المؤتمر من هذه المباحث يختص بالمجهودات التي يبذلها المبشرون لتبشير الشبيبة الإسلامية التي تعلمت على الطريقة الأوربية وفي المدارس الحكومية ، وما يلقونه من الصعوبات والفشل في تنصيرها » فنجد أن فكرة التنصير تتجه أولا إلى الذين تعلموا على الطريقة الأوربية وفي مدارس الحكومة . إنهم وجدوا أن تنصير الشباب صعب إلا إذا مر بعدة أدوار .

لقد حاولوا أولا أن ينقلوا الشباب من الإسلام إلى النصرانية وفشلوا وهنا أنشأت أمريكا معهدها في مصر وكان الغرض منه أن ينقل الشباب المسلم إلى مرحلة متوسطة بين الإسلام والنصرانية عند الشباب حتى يسهل بعد ذلك تنصيرهم . وهم هنا يتواصون بالصبر والانتقال بالمسلمين من حالة إلى حالة حتى يصلوا بهم ـــ وخاصة الشباب ـــ إلى ما يريدون .

جاء في تقرير « استورد كروفورد » إلى مؤتمر « لكنو » ما يلي : « وأما

الواجب الثاني فهو الصبر الذي يعرفه من عرف حكمة الإنجيل في النمو التدريجي ، وهي تبتدىء بالعشب ثم بالسنبلة ثم يتبعها انتظار طويل ريثما ينضج الحب . إلا أن النمو الأخلاقي طويل العهد خصوصا إذا كان متعلقا بأمة .

ثم قال :

« وما دامت الشعوب الإسلامية تتدرج إلى غايات ونزعات ذات علاقة بالإنجيل ، فإن الاستعداد لاقتباس النصرانية يتولد فيها على غير قصد منها .

وقد علقت مجلة العالم الإسلامي الفرنساوية على هذا القول بأنها تكتفي في بيان أهمية ما يقوله « استورد كروفورد » بتذكير القراء بالجملة التي اتخذتها جمعية الطلاب المتطوعين للتبشير شعارا لها منذ سنة ١٩٠٥ وهي « تنصير العالم قاطبة في هذا العصر » . فإن في هذا الشعار ما يدل على أن أقوال المبشرين تتدرج نحو الحقيقة » . .

وأما بالنسبة للشباب المسيحي من الطلاب : فإننا نجده هنا يتخذ لنفسه شعارا هو « تنصير العالم قاطبة » في هذا العصر . ومن هنا ندرك سر الاهتمام بإنشاء الجمعيات للشباب . « ففي سنة ١٨٥٥ أسست جمعية الشبان المسيحيين ، من الإنجليز والأمريكان ووظيفتها إدخال ملكوت المسيح بين الشبان . وعقد تلاميذ المدارس النصرانية في « نور ثفيلد » مؤتمرا اجتمع فيه مائتان وخمسون مندوبا عن ثمانين مدرسة تكفلت بتقديم مائة شاب للتطوع في نشر الدين المسيحي . ومن هؤلاء تألفت « جمعية الشبان المتطوعين في البلاد الأجنبية » ويقول المؤلف إنها لعبت دورا مهما في تبشير المسلمين على الخصوص لأن شعارها كان نشر الإنجيل بين الجيل الحاضر »[1] .. « وفي سنة ١٨٩٥ تأسست جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين في العالم ، وهي تهتم بدرس أحوال التلاميذ في كل الأقطار وبث روح « المحبة » بينهم فالتحق بها مائة ألف طالب وأستاذ

(١) يرجع في كل ما سبق إلى كتاب الغارة على العالم الإسلامي .

يمثلون أربعين قوما فنشأ عن وجود العدد العظيم ميل إلى الانتفاع به . لذلك تأسست سنة ١٩٠٢ « جمعية تبشير الشبان » . ومن وظائف هذه الجمعيات الأخيرة استمالة النساء والبنات والطلبة إلى استماع صوت المبشرين » .

بهذا نجد الشباك تنصب للشباب الإسلامي على يد نظيره النصراني ، وما هي النتيجة إذا كانت جمعية مثل « جمعية اتحاد الطلبة المسيحيين في العالم يبلغ عدد أعضائها مائة ألف طالب ثم ينتفع بهذا العدد الضخم في التبشير ؟ وبالطبع هؤلاء الطلبة المسيحيون أصبح منهم علماء احتلوا مراكز علمية في العشرينات تقريبا من القرن العشرين الميلادي وهي الفترة التي اتجه فيها شبابنا إلى أوربا بكثرة للتتلمذ على يد الغرب . لقد كانت النتيجة ما رأيناه من تخلخل عند بعض من تعلموا في أوربا وشغلوا الأمة فترة طويلة ولا زالوا .

تعقـيـب

الشباب المسلم في ضياع ، هذا الأمر لا يشك فيه عاقل .

المبشرون هم السبب أو بعض السبب . هذا أمر لا شك فيه كذلك .

ولكن على من يقع اللوم ؟

هل نلوم الشباب ؟ لا أعتقد أن منصفا يقول هذا إلا إذا قلنا إن الشاة تلام لأن الذئب أكلها .

إن الشباب وجد نفسه كالكرة تخرج من يد الوالد لتتناولها يد المبشر فأي اختيار له في هذه العملية ؟ فلما بلغ دور الرشد وجد نفسه في وسط معين ولا يد تمتد إليه .

فهل نلومه على أنه لم يخرج ؟

هل نلوم المبشرين ؟ أعتقد أن هذا ممكن إذا كان من الممكن لوم الذئب على أنه أكل الشاة .

إن المبشر حمل أمانة فأداها سواء كان ذلك لعقيدته أم لمنفعته .

عل من يقع اللوم إذاً إذا لم يقع على الذئب ولا على الشاة ؟

اللوم يقع على الحارس الذي تشاغل ولهى عن الشاة حتى وصلها الذئب .

من هم الحراس ؟

العلماء والدعاة .

من السهل جدا أن تبدي عذرك للناس وستجدهم يسكتون إما لتصديقهم لك ، وإما لأن عندهم ما يشغلهم ، وهذه القضية لا تهمهم .

إن إقناع الناس هنا ممكن ، ولكنه ليس المطلوب .

إن المطلوب هو كيف سيكون الجواب أمام الله تعالى ؟

إن هذا هو المشكل حقيقة .

ولا أظن أن العلماء والدعاة في نجاة من هذا .

إن شبابنا وقع فريسة في يد من أوهموه بأن الدين خداع .

يقول « ك. ك. برج » « والعلم في طبيعته من روح النقد ومن عدم اختصاصه بجماعة ما أظهر الأندونوس على نقائض الإسلام وكثرة خداعه الديني . ومن ثم كان تمسكهم ببعض التقاليد الإسلامية لا يعدو كثيرا مجرد عادات باقية .

وأنا لا أنكر أن علماء أفاضل قد ردوا على كل هذه الافتراءات . ولكن الشباب هل يمكن القول بأنه رجع إلينا ، أو لا زال نافرا منا وإذا كانت الثانية فهل عرفنا السبب الذي أدى إلى هذه الظاهرة ؟

ثالثا : في ميدان الوحدة

محاولة زرع الفرقة بين المسلمين

من أهم ما يحرص عليه الإسلام الوحدة بين المسلمين ، وسد أي ثغرة يمكن أن تؤدي إلى تفرقهم ، قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[1] .

ولو تتبعنا ما جاء في الإسلام لتوحيد الأمة لخرجنا على منهج هذا البحث ، ولكن نكتفي ببعض قليل مما جاء في هذا . فهو سبحانه وتعالى يخبرنا بأن تأليف القلوب نعمة من الله لا يستطيعها الإنسان مهما أنفق في سبيلها . قال تعالى : ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[2] . والرسول ﷺ يرينا أن الشحناء تمنع الإنسان من رحمة ربه يقول ﷺ : « تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال : انظروا هذين حتى يصطلحا ، انظروا هذين يصطلحا »[3] . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » وفي رواية « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ؛ المسلم أخو المسلم لا يسلمه ، ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا ـــ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـــ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه »[4] .. وقال ﷺ :

---

(١) الحجرات آية ١٠ .
(٢) الأنفال آية ٦٣ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه مسلم .

« إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي »[1] .

وليست الأخوة التي يريدها الإسلام معنى سلبيا بل هي أخوة إيجابية توجب على المسلمين التعاون .. يقول ﷺ :

« من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة »[2] .

والإسلام يحرس هذه الأخوة ، فيأمر بالتعاون على البر والتقوى والإنفاق في سبيل الله ، وملاطفة اليتيم ، والإصلاح بين الناس ، وقضاء حوائج المسلمين ، ويحرم الظلم والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل ، ويوصي بالجار وتوقير الكبير ورحمة الصغير وزيارة المسلم أخاه في الله .

هكذا نجد الإسلام يحمي هذه الأخوة من كل ما يؤذيها وكانت النتيجة ما أقر به الأعداء وأدهشهم في الوقت نفسه من تلك الرابطة التي لا توجد في أمة أخرى .

لقد جاء الإسلام إذاً لينقذ العالم مما تردى فيه من خلافات كادت تقضي عليه .

وأصبحت ترى العرب والعجم قد انصهروا في المجتمع الإسلامي الجديد ، وامتزجوا متعاونين فيما بينهم ، ولم يكن الخوف من سلطان هو الذي يجمعهم بل كان يجمعهم الحب الحقيقي على نحو فريد لم ينعم به مجتمع من قبل .

وأضحى العربي والمصري والفارسي والرومي والهندي والصيني وقد نسي كل واحد منهم عصبيته ولم يذكر إلا شيئا واحدا هي عقيدته .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

وبعد أن كان الواحد قبل الإسلام يحب ويبغض لعصبية جاهلية أصبح يحب ويبغض لله . وإذا أخذنا الأمر من وجهة نظر أعداء الإسلام وجدناهم يعرفون هذه الحقيقة ، وأنها من أهم أسباب نصرهم . يقول « فيليب حتى » في هذا :

ولا نزاع في أن الإسلام ألف بين المسلمين ووحد أهدافهم ، وخلق لهم شعارا جديدا فكان نبراسا لأمانيهم القومية . فزالت المشاحنة والبغضاء ، والتحمت العناصر المتنافرة ، فنشأت بين العرب قوة محركة فعالة »[1] .

ويصور « جوستاف لوبون » الإسلام وجمعه بين الشعوب التي تدين به . فيقول « ويدين بالإسلام في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون شخص واعتنقته جزيرة العرب ، ومصر وسورية وآسيا الصغرى ، وجزء كبير من الهند وروسيا والصين ، ثم جميع أفريقيا إلى ما تحت خط الاستواء تقريبا . وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورا لها وحدة اللغه والصلات التي يسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي . وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان ، واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشارا على ما يحتمل . وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام »[2] .

وفي مؤتمر لكنو التبشيري سنة ١٩١١ قال القسيس (ويتيرخت) في تقريره :

« ولنتذكر أيضا أنه وإن يكن الإسلام بقي دين الشعوب التي هي دوننا في

---

(١) تاريخ العرب ص ١٩٥ .

(٢) حضارة العرب ص ١٢٦ ولا شك أنه أخطأ في جعل عدد المسلمين مائة مليون فقط والجدير بالذكر أن عدد المسلمين الآن يربو على ألف مليون مسلم في العالم .

المدنية فإن أنصاره نجحوا أكثر من المسيحيين بإزالة الحواجز التي تفصل بين الأجناس »[1] .

إن ما وصل إليه الإسلام من إزالة الحواجز بين الأجناس قد عجزت عنه الشعوب غير الإسلامية ، بل إن إزالة الحواجز بين أبناء الأمة الواحدة منهم لم يخطر ببالهم إلا أخيرا ، وبعد أن تأثر المفكرون الأوربيون بالإسلام ، وبدءوا يعرضون ما هم فيه على عقولهم التي استنارت ورأوا أنه « يجب أن يخضع كل قانون أو عادة أو فكرة لقانون العقل والمحاكمة » وعندئذ يمكن طرح هذا السؤال ونتيجته « فهل صفة النبل الوراثية معقولة ؟ وإذا لم تكن كذلك فالواجب يحتم علينا استئصالها ومحوها من المجتمع . وعندما طرحت قضية ألقاب الشرف والنبل الوراثية على بساط البحث .. وجد أن هذه الفكرة خاطئة من أساسها وغير معقولة ، ولذا فقد كانت أوائل أعمال الجمعية الوطنية الفرنسية دعوة الفرنسيين إلى محو فكرة الألقاب الوراثية من الوجود »[2] .

هذا هو رأي الأعداء في الرابطة التي أنشأها الإسلام بين شعوبه . ويرى الأعداء أن هذه الرابطة تقوم على أسس ثابتة من العقيدة الإسلامية . وأن هناك عوامل لها الفضل في توطيد هذه الوحدة ودوامها . هذه العوامل ـــ بعد عقيدة التوحيد ـــ كثيرة . نأخذ منها الحج إلى بيت الله الحرام واللغة العربية .

---

(١) عن كتاب الغارة على العالم الإسلامي ص ٧٢ .
(٢) منشأ الفكر الحديث ص ١٥٤ .

الحج إلى بيت الله الحرام

يعطي أعداء الإسلام اهتماما كبيرا للحج ويجمعون على أنه من أكبر العوامل في جمع المسلمين . ثم بعد ذلك يتدارسون فيما بينهم ماذا يجب أن يعملوا ليمنعوا تأثيره عليهم فالحج ـــ كما يقول د. كامبفماير ـــ يلعب دوره في المزج الروحي بين مختلف شعوب الإسلام[1] .

ويتناول « جب » الحج في أكثر من موضع مبينا فضله على الأمة الإسلامية في اختلاطها ووحدتها فهو ـــ كما يرى ـــ أقوى عامل في توثيق عرى هذا الاختلاط لأنه فرض محتم مرة على الأقل في العمر على كل مسلم يستطيع إليه السبيل » . ثم قد يظن البعض أن الحج فقد ميزته في العصور الحديثة . لهؤلاء يقول « جب » : إن الحج لا يزال حافظا ميزته الأولى عاملا على إحياء الحمية الدينية وتقوية الإيمان بالوحدة الإسلامية[2] .

ثم بين « جب » أن الحج أعظم فروض الإسلام تأثيرا في تغذية روح الوحدة الإسلامية ، ولا يمكن لمسلم أخذت روحه حظا في تعظيم عبادة يشارك فيها عشرات[3] الألوف من إخوانه المؤمنين من كل جنس وطائفة (ففي مكة ـــ كما يقول ـــ تهدأ أشد العداوات الطائفية حدة ، وإن بدا تعصب أحيانا) أن ينسى تلك اللذة العليا التي ذاقها ، وما تميط عنه اللثام من قوة باطنة لدينه ، ومن انتشاره العظيم في الآفاق وكل من رجع من الحج يشهد لدى جماعته بالوحدة[4] العامة التي تترفع على القوميات الصغيرة ، ويصير مركزا تشع منه حماسة دينية لمثل الإسلام العليا التي تسمو على القومية » .

هذا هو رأي « جب » في الحج : يذوق المسلم من اللذة ما لا يمكن أن ينساه . والأهم أنه بمجرد أن يجد نفسه في وسط هذه الأجناس المتعددة قد

---

(١) وجهة الإسلام ص ٦٩ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .
(٣) الصواب مئات الملايين .
(٤) المرجع نفسه ص ٢٢٩ .

جمعهم الحج في مكان واحد دون تمييز ، بمجرد هذا ينسى المسلم ما قد يكون في نفسه من عصبية لجنس أو لون أو لغة ، ويترفع على القوميات الصغيرة منتقلا إلى الوحدة العامة التي يمثلها هذا الموقف .

ونفس المعنى شعر به « ك. ك. برج » ؛ في كتابه عن أندونيسيا ولكنه يضيف للحج مزايا أخرى هي ميزة التعليم يقول :

« والحج المفروض على كل مسلم أن يقوم به مرة في حياته ـــ إن استطاع إليه سبيلا ـــ والذي أداه ملايين من الأندونيسيين ـــ رغم أن الشريعة تعفيهم منه لعدم قدرتهم عليه ـــ واستيطان عدد عظيم من الأندونوس أو الجاوى » ـــ كما يقول أهل جزيرة العرب ـــ في مكة التي هي المركز المشاع للعلوم الإسلامية والتي حمل الأندونوس إليها حماستهم للحج . وأثر اللغة العربية في العمل على الوحدة ، وتشابه طريق التعليم في كل العالم الإسلامي . هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقية في المكان الأول حتى بعد أن تم تمزق امبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة[1] .

إن « برج » هنا يذهب ـــ بحق ـــ إلى أن الوحدة الروحية حفظت للعالم الإسلامي وحدته رغم انعدام الوحدة السياسية بتمزق الامبراطورية الإسلامية . وعلى رأس عوامل الوحدة الروحية الحج واللغة .

ولكنه يضيف للحج فائدة أخرى لا تقل عما سبق إن لم تفق ، وهو أن الحاج يرجع مزودا بمعرفة أساليب المبشرين ؛ فلم يعد الحاج ذلك الشخص الذي يضحكون عليه بقطعة قماش أو بعض الهدايا ، إنه أصبح يعرف كل الحيل التي يحتال بها عليه لاخراجه عن دينه ، ولن يضحك عليه أحد بعد اليوم ومن ناحية أخرى سيحذر قومه . وبذلك يصبح الذي أدى فريضة الحج ـــ كما يقول « ك.

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦١ .

ك. برج » ـــ راسخ القدم في معرفة الأساليب الماكرة التي تجري عليها حكومة هولندا ، وهو يعرف كيف يحذر أبناء وطنه من الخطر المسيحي حينما يرجع إلى أندونيسيا[1] .

بذلك وجد المبشرون أنفسهم أمام عقبات سببها لهم الحج بعد أن كانوا يظنون أنفسهم بدون رقيب على أكاذيبهم .

ويأتي « ستودارد » يبين أن المسلمين تجمعهم الخلافة ، والحج ، وأن البعض يظن أن الخلافة أبعد أثرا في وحدة المسلمين من الحج ، ثم بين أنه ليس مع هذا الرأي ، ويميل إلى أن الأمر على الضد ، وأن الحج أبعد أثرا ، ثم يأخذ في بيان أسباب حكمه هذا فيقول :

« إن الوحدة الإسلامية إنما هي قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما : الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، والخلافة .

وقد غلب على وهم الكثيرين من رجال الغرب وهم في هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة لا الحج العامل الأكبر والأشد الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف ، تشاركا مؤديا إلى اعتزاز الوحدة ، وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها .

على أن هذا لمن الوهم الصرف ، فالأمر حقا على الضد منه . إن الله قد فرض الحج على من استطاعه وأكده نبينا محمد ﷺ ، فرضا مقدسا ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعا يجتمع فيه كل عام أكثر من مليوني حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الإسلامي .

وهناك أمام الكعبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتباثون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشئون

---

(١) المرجع نفسه ص ١٩٨ .

الإسلامية ، ثم ينقلبون إلى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » لقبا يعرف صاحبه بالتقوى فيجله إخوانه المسلمون ، ويعلون منزلته بينهم ما دام حيا .

فالمقاصد والأغراض السياسية التي ينالها المسلمون على يد الحج الممهد لها السبيل إنما هي معلومة ، لا تحتاج إلى كبير إيضاح . بل يكفي أن نقول : إن الحج إنما هو المؤتمر الإسلامي السنوي العام . فيه تتباحث الوفود الإسلامية ، والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الإسلامي كافة ، في مصالح الإسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الإسلام ، والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة . وفي هذا المؤتمر العظيم كانت قلوب قادة اليقظة الإسلامية وأبطالها ، تشعر بجلال الواجب الإسلامي المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الإسلام والمسلمين »[1] . هذه بعض الفوائد التي ينالها المسلمون من الحج . إن الحج إلى بيت الله الحرام يفيد العامة من الناس كما يفيد الزعماء . حول الكعبة التقى الزعماء فازدادوا معرفة بواجبهم الملقى على عاتقهم والتقى العامة فعرفوا من أنباء العالم الإسلامي ما كان ممنوعا عنهم وهم في بلادهم ، حيث تقييد الحريات ، ومراقبة الكلمة . وإذا ما جلس المسلم وسمع حكايات النصر قديما وحديثا تفاءل بنصر قريب . من هنا نجد الأعداء يصرحون علنا بأن الواجب إنما هو منع الحج إلى بيت الله الحرام حتى يضمنوا عدم القلاقل في مستعمراتهم . ومن أصحاب هذا الرأي « روجر لابون » يقول مناديا بمنع الحج مبينا السبب : « ولا تنس حج مكة ، فإنه في الآونة الحاضرة يؤثر تأثيرا مضرا بين رعايانا المسلمين . ومع هذا فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا إلى مكة ، وعما يحدثه هذا السفر من أسباب تشويش أذهانهم ، لما يستمعون فيه من الأخبار الملفقة عن وقائع البلاد الإسلامية . فمتى آبوا إلى ديارهم عادوا أقل ميلا إلينا . فإن الحاج يسمع في الحجاز أنباء عن جميع العالم لم تطبع في صحيفة ، والأوربي مصور فيها بشكل ظالم

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٨٩ جـ ٣ .

غاصب (أستغفر الله ..) لا تحصى سيئاته . والمسلم مصور بشكل غالب ظافر ، لابد أن يأخذ بثأره . كما أن الطوائل التي أحرزها بعض الشرقيين تروى هناك بالمبالغة والغلو . ويتفاءلون فيها بعودة الأيام التي كان فيها العلم الأخضر منصورا خفاقا فوق رءوس الأمم المغلوبة . وكل هذه الوقائع تبرز فيها قوة المخيلة الشرقية بشكل رائق رائع . فيذهب الحاج من مستعمراتنا أمينا لنا ، ويعود غير ما ذهب : بل تتبدل نفسه ويصير مبتهجا بنصرة أبناء ملته ، وتقوى فيه روح التضامن الإسلامي فيفرح بفوز أتباع محمد ، ويتمنى لهم الظفر النهائي . وبعد إيابه إلى وطنه يستحيل ألا يلقي إلى بعض أهل بلده ـــ ولو نجيا ـــ ما سمعه في مكة . وحيث يكون نال لقب حاج فلابد له من الاجتهاد في إثبات أهليته لهذا اللقب ، هذا عدا ما يحمله من القصائد ، والجرائد والحماسيات التي يوزعها على أبناء وطنه ؛ وإن كان يعرف الكتابة راسل من تعرف بهم من الحجاج مكررا لهم آيات الكتاب المقدس حول الحجر الأسود »[1] .

هذه ـــ في رأيه ـــ هي الفوائد التي توجب منع المسلمين من الحج إلى بيت الله الحرام . ونحن قد لا نلقي إليها بالا ، بل ربما شاركنا في الحملة ضد حجاج بيت الله الحرام مسندين إليهم من الصفات السيئة ما هم براء منه . والفوائد التي تعود على المسلمين بعد الحج هي نفسها سيئات في نظر « لابون » وبني جنسه ، ولذلك تراه يعاتب قومه على عدم منع الحج . ويبدو من كلامه أن المعظم يوافقه على رأيه ولا يخالفه إلا البعض الذين يقول عنهم : (ومع هذا فالبعض غافلون عن منع حج رعايانا إلى مكة) .

وإذا كان رأي الأجانب في الحج هكذا فإن الإنسان تأخذه الدهشة عندما يرى تلاميذ الغرب يهاجمون الحج . وسبب الدهشة ليس لأنهم هاجموا ركنا من أركان الإسلام ، فقد سمعنا منهم في هذا الكثير ، ولكن سبب الدهشة أنه بينما

---

(١) المرجع نفسه ص ٣١٩ جـ ٢ .

يحاول أسيادهم منع الحج لفوائده على المسلمين وإضراره بأعدائهم نرى تلامذتهم من بني جلدتنا يوافقونهم ، وإذا سألت ما هو السبب الحقيقي تجد : لا جواب ، وإذاً فالسبب الحقيقي أنهم مأجورون للاضرار بدينهم عن عمد إرضاء لأسيادهم .

اللغة العربية

قبل الإسلام كانت اللغة العربية تكاد تكون محصورة في الجزيرة العربية . ولما جاء الإسلام ـــ وكتابه القرآن الكريم ـــ وجدنا اللغة العربية تنتشر مع انتشار الإسلام حتى أصبحت الآن وقد تجاوزت ما بين المحيط والخليج وأصبحت شعوب هذه المنطقة تتفاهم بلسان واحد . فالمغربي والعراقي إذا التقيا لا يجدان صعوبة في التفاهم ولا يحتاج أحدهما إلى لغة أخرى كي يتفاهم مع صاحبه .

وهذه ميزة كان الفضل فيها للقرآن الكريم . فالمسلم الجديد يريد أن يكون على صلة بقرآنه ، ويجد من دينه دافعا على ترك لغته الأولى ، وتعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم ، مهما كانت أصالة هذا المسلم في حضارته . وقد أقر الأعداء بهذا معترفين بفضل الإسلام في هذه الناحية وميزة العرب الذين أنشأوا ـــ كما يقول « جوستاف لوبون » ـــ بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها ، والذين تمكنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلا عن حضارتهم الجديدة »[1] . وحتى بعد أن تخلى العرب عن مركز الصدارة وخلفهم غير عرب وجدنا هؤلاء الخلفاء يعينون « على نشر نفوذ العرب ، وأن أمما قديمة قدم العالم كالمصريين والهنود اعتنقت ما جاءها به العرب ، أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة »[2] .

ولما كانت اللغة هي وسيلة نقل الأفكار وجدنا الأعداء يعترفون بسهولة وسرعة انتشار الأفكار في العالم الإسلامي ، وأن سبب هذه السهولة هو « أن العربية ـــ وهي لسان الإسلام غير مدافع ـــ كما يقول الدكتور « ج. كامبفماير » ـــ تدرس وتعرف حق المعرفة في العالم الإسلامي كله ، من المحيط

---

(١) حضارة العرب ص ١٣٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٠ .

الأطلسي إلى الهند وجاوة ، وبذلك تسهل انتشار الحركات الروحية انتشارا يتجاوز بكثير حدود البلاد التي تنشأ فيها »[1] . فابن العراق اليوم مثلا وإن لاقى بعض الصعوبة في فهم المراكشي العامية فهو لا يجد شيئا من الصعوبة في فهم لغة مراكش المكتوبة لأن اللغة التي يكتبها القوم سواء في العراق أو في مراكش ـــ أو في الشام والجزيرة ومصر أيضا ـــ هي اللغة الأدبية نفسها التي سن طريقها القرآن ، وسار عليها الكتاب العرب في كل مكان »[2] .

إن هؤلاء الأعداء يدركون أن المسلم من العراق حين يلتقي بمسلم من مراكش يستطيع أن يتفاهم معه . حقيقة قد يصعب التفاهم بالعامية ولكن هذه الصعوبة تزول باستعمال الفصحى . وإذا كان انتشار اللغة العربية هو سبب التقاء المسلمين وسهولة التفاهم هكذا فإن القرآن الكريم هو سبب انتشار اللغة العربية إذ بفضله وحده ـــ كما يقول « فيليب حتى » ـــ اتحدت اللهجات المختلفة للشعوب التي تتكلم العربية ، فهو الذي حال دون تطورها إلى لغات قومية مختلفة كما جرى للغات الرومانية المتحدرة من اللاتينية .

وفيليب حتى وأمثاله يدركون ما أصاب أوروبا من تعدد لغاتها إلى فرنسية وإنجليزية وألمانية .. إلخ . فقد أصبح لأوربا لغات بعدد دولها ، وقد سبب لها هذا مصاعب لا حصر لها فالألماني إذا مشى بضعة أميال ودخل فرنسا عجز عن التفاهم مع الفرنسي إن لم يكن أحدهما يعرف لغتين على الأقل لغته ولغة صاحبه .

والذين اضطرتهم ظروفهم إلى التنقل من دولة أوربية إلى دولة أوربية أخرى يشكون مر الشكوى من اختلاف اللغات ، فلغتهم تختلف مع لغة الدولة التي هاجروا إليها وعليهم أن يتعلموا لغة جديدة وهناك عقبات دون اتقان اللغة الجديدة

---

(١) وجهة الإسلام ص ٦٩ .

(٢) تاريخ العرب ص ١٧٥ جـ ١ .

كأهلها ، والأولاد الصغار ينشئون بين لغة آبائهم في المنزل ولغة إخوانهم في المدرسة ، يذهبون إلى المدرسة ليتلقوا علومهم بلغة المهجر فإذا ما رجعوا إلى المنزل تكلموا بلغة آبائهم .

وبمرور الزمن يبتعد المهاجر ـــ وخاصة أولاده ـــ عن لغته الأصلية فإذا ما أراد أن يرجع إلى وطنه الأصلي وجد نفسه ابتعد عن لغة قومه ، أما أولاده فقلما يستطيعون التفاهم مع أهليهم في الوطن الأصلي كالمهاجر السائح ، ومن هنا نجد الدول الأوربية تحاول التغلب على صعوبات تعدد اللغة بطبع مجلات إرشادية بعدة لغات تخاطب بها شعوبا أوربية .

ونقول إن الدول العربية قد كفيت شر تعدد اللغات ، هذه نعمة من الله شعر بها عدوها قبل أن تشعر هي بها .

محاولة القضاء على اللغة العربية

أولا : غربيون :

تقدم لنا أن الأعداء يعرفون الفائدة التي تعود على العرب باستعمالهم جميعا لغة واحدة ، وأن هذه اللغة سبب وحدتهم ، قد لا تكون السبب الوحيد ولكنها من أهم الأسباب . واجتماع العرب هكذا أمر لا يرضي الأعداء ، إنهم يريدونهم أمة مفرقة ولا يريدونها واحدة ، وهم أنفسهم يصرحون بهذا . ففي **المغرب** كانوا كما يقول الأستاذ « دومنير » :

« من الخطر أن نترك كتلة ملتحمة من المغاربة تتكون ولغتها واحدة وأنظمتها واحدة . لابد أن نستغل لفائدتنا العبارة القديمة « فرق تسد » .

أما كيف يستطيع تطبيق مبدأ « فرق تسد » فهو نفسه يشرح هذا بقوله : « إن وجود العنصر البربري آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي ويمكننا أن نستعمله ضد (المخزن) نفسه .

ويعترف هذا المؤلف نفسه بأن اللغة العربية هي اللغة الاقتصادية والدينية والإدارية بالمغرب . وأما البربري فيعتبرها لغات عليا ، ولذلك يجب أن تقوم اللغة الفرنسية لا البربرية مقام اللغة العربية كلغة مشتركة وكلغة للمدنية »[1] .

إنهم هنا يعرفون قيمة اللغة في حياة الأمم وأن بقاء اللغة العربية لغة للعرب والبربر معناه بقاء كيانهما محفوظا تحت وحدة جامعة هي وحدة اللغة .

---

(١) دفاع عن الشريعة ــ علال الفاسي ص ١٦٣ ــ ١٦٤ .

من هنا نجد « الفرنسيين ـــ كما يقول الدكتور « ج. كامبفماير » ـــ لا يحبون نهضة اللغة العربية في مراكش ولا سيما بين البربر . هؤلاء البربر الذين يخالفون العرب جنسا ولغة ، ويكونون كتلة قوية من السكان تبلغ سبعة ملايين يسكنون الأقاليم الجبلية من البلاد وهم مسلمون بالطبع ، بل قد كسبوا دورا هاما في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى »[1] .

وهم يعتبرون أن محاربة اللغة العربية أمر له وزنه . إنه بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت . فإذا ما نجحوا في قتل اللغة العربية فقد نجحوا في إزالة الخطر الذي يتهدد وجودهم . يقول : « روجر لابون » بعد أن عدد المخاوف التي تتهدد وجود الفرنسيين يقول :

« هذه على وجه الإجمال العوامل المضرة التي سلطنتنا الإفريقية معرضة لها . ولاتقاء ضررها وصف للناس أدوية كثيرة منها علاج جمع كل الآراء وهو : نشر اللغة الفرنسوية ، فهو أمر ضروري وهو رأي « لوشاتليه » الذي يقول يوم لا يبقى اللسان العربي هو لغة التجارة في أفريقيا لا يبقى خطر من جهة الإسلام لأن مدارسه تصير قفرة »[2] .

إنه هنا يرى أن نشر اللغة الفرنسية مكان العربية هو عامل الأمان والعجب أنه يخبرنا بأن هذا الدواء ـــ كما سماه ـــ حصل على جميع الآراء .

إنني أسوق هذا لهؤلاء الذين يريدون منا ترك لغتنا إلى اللغات الأوربية بحجة أن هذا يتفق والمدنية ، وإذا كان الدعاة إلى هذا الرأي منا فإنهم ليسوا إلا أبواقا لسادتهم ـــ كما سيأتي ـــ .

---

(١) وجهة الإسلام ص ٨١ والمراد بالمخزن الحكومة .
(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٢٩ جـ ٢ .

أما كيف تحل الفرنسية محل العربية فاقتراحات كثيرة منها :

انتهاز فرصة وجود الجنود المغاربة في المعسكرات وهي ـــ كما يقول « لوبون » ـــ « أحسن فرصة من كل المعلمين الذين يريد « بيتغر » إرسالهم إلى غربي أفريقيا ، والذي حصل اليوم من النجاح ـــ كما يقول ـــ في هذا الباب ليس بالقليل »[1] .

هذا في جانب العسكريين ، أما في جانب المدنيين فيخبرنا « علال الفاسي » عن ذلك بقوله :

« فيما يختص باللغة العربية فقد صدرت المنشورات « المقيمية » التي تفرض على أعضاء المحاكم العرفية استعمال اللغة الفرنسية في جميع الوثائق والمستندات . وقد صرح المحامي « بيكار » في جلسة عقدتها اللجنة المكلفة بدرس نظام العدلية البربرية بتاريخ ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٠ : أن أعضاء اللجنة متفقون جميعا على عدم تسجيل أحكام المحاكم العرفية باللغة العربية . وقد وقع في ذلك الحين أن المراقب المدني (بنوط) وخليفته (كورنبي) في ناحية (نازه) أخذا يمزقان الرسوم العدلية المكتوبة باللغة العربية إذا أدلى بها المتداعيان أو أحدهما ، وقيل ذلك وقع في عدة جهات أخرى حتى أصبحت رسوم الزواج نفسها تسجل باللغة الفرنسية »[2] . وبذلك يجد المدنيون أنفسهم مضطرين لتعلم اللغة الفرنسية لأن شئونهم أصبحت معلقة بهذه اللغة ولم تعد هناك حاجة للغة العربية .

أي إن الحرب كانت تسير ضد اللغة العربية في الوقت الذي يفسح فيه المجال للغة الفرنسية لتحتل أماكن جديدة لتخلي بالتالي اللغة العربية مكانها . وتوثيق عقد الزواج بالفرنسية يدل على أن هذه اللغة دخلت أخص شئون

(١) المرجع نفسه ص ٣٢٣ .

(٢) دفاع عن الشريعة ص ١٦٣ .

المسلمين ، والتي لا يستطيع أحد أن يستغني عنها .

وإذا كان القرآن الكريم هو الذي يحفظ اللغة العربية من الضياع ويزيد في انتشارها ، إذا كان ذلك كذلك فإن العدو قد وجه حربه ضد القرآن الكريم بترجمته من العربية إلى الفرنسية وليس لأهل فرنسا بل لأهل المغرب .

يقول (لويس ماسينيون) وهو يتكلم عن حركات إصلاحية في المغرب : « وهناك مثال آخر هام يدل على هذه المحاولة التي ترمي إلى جعل اللغة الفرنسية أداة الفكر الإسلامي لا في الناحية السياسية فحسب بل في الناحية الدينية أيضا .

ذلك هو ترجمة القرآن إلى الفرنسية التي قام بها حديثا (أحمد لميش) هذه الترجمة وإن لم تبلغ الذروة في الجودة تمتاز بترجمة للقرآن يحوطها التقديس ، وبشعور إسلامي صادق ينطقان بالفرنسية »[1] .

وبذلك تكون اللغة العربية قد غزيت في معقلها وأصبح من الممكن أن نقول ماذا بقي لها ؟

وكل هذا لم يكف أعداء العربية لأنهم وجدوا أن الباقي منها لا زال محافظا على جوهره لذلك فكروا في تغيير طريقة الكتابة من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ، إلا أنهم فشلوا هنا فشلا يعبر عنه (لويس ماسينيون) :

« إن روح المحافظة بها ـــ مراكش ـــ بما لها من صلابة ومن سلطان مطلق يسيطر عليها الفكر الإسلامي في المغرب ، تجعل أحدا لا يفكر في مسألة استعمال الحروف اللاتينية ، على أن هذه المسألة تعتبر في المشرق بل في الشرق العربي مسألة فيها نظر »[2] .

هذا بالنسبة للمغرب . وأما في بقية العالم الإسلامي فقد كانت تحارب

---

(١) وجهة الإسلام ص ٦٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٦٦ .

اللغة العربية بطرق مختلفة تختلف باختلاف الأماكن . ففي **تركيا** وجدنا المناداة باللغة التركية لتحل محل العربية في كل شيء . حتى في الآذان والقرآن يقول الشاعر (ضياء التركي) :

« إن الأرض التي يجلجل فيها صوت المؤذن للصلاة باللغة التركية ، والتي يدرك فيها المصلون معنى ما يتلون في صلواتهم .

والأرض التي يعلم فيها القرآن باللغة التركية .

وحيث يفهم كل إنسان فهما واضحا . كبيرا كان أو صغيرا ، أوامر الله يا ابن تركيا هذه الأرض هي وطنك[1] .

وكانت الدعوة إلى اللغة التركية وإحيائها شديدة إلى درجة أن أصحاب هذه الدعوة لا يطيقون أن يروا في لغتهم كلمة عربية ويدعون إلى تصفية اللغة التركية من هذه الكلمات والاعتياض عنها بألفاظ تركية مهملة لعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين .

وفي **مصر** كانت اللغة تحارب بإيجاد منافس لها وهو اللغة العامية . وكانت في نفس الاتجاه تسير الدعوة لاستعمال الحروف اللاتينية بدل العربية وما دامت الغاية للعدو محاربة الوحدة فإنه باتخاذ اللغة العامية تصبح البلاد عاجزة عن التفاهم مع بعضها لأن لكل شعب عاميته . والدعاة إلى العامية في مصر لم يكن فيهم صراحة الفرنسيين في المغرب ، فلم يصرحوا بأن دعوتهم من أجل تفكيك وحدة المسلمين كما قال الفرنسيون ، بل كانت حجتهم أنه باستعمال العامية يمكن مسايرة النهضة .

وقد بدأ الدعاة إلى العامية فعلا في تنفيذ ما يرون ، وإبراز المسألة في قالب علمي . فقد وضع الدكتور (ولهلم سبيتا) كتاب (قواعد العربية العامية في

---

(١) عن تجديد الفكر الديني محمد إقبال .

مصر) وفي هذا الكتاب انبعثت الشكوى من صعوبة العربية الفصحى . وفي هذا الكتاب أيضا اقتراح اتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العامية ، تلك الحروف التي نودي باستخدامها فيما بعد لكتابة العربية الفصحى »[1] .

وأراد المؤلف أن يبين إمكان هذا فجاء بعبارات عربية مكتوبة بحروف لاتينية ، وقد وضع جدولا يبين فيه الحروف اللاتينية التي اقترحها لكتابة العامية[2] ويدافع عن فكرته بحرارة ويدعي أن ذلك من أجل مصر فيقول : « وأخيرا سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طوال مدة جمع هذا الكتاب . وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ويمس أمرا هو بالنسبة إليها وإلى شعبها يكاد أن يكون مسألة حياة أو موت . فكل من عاش فترة طويلة في بلاد تتكلم العربية يعرف إلى أي حد كبير تتأثر كل نواحي النشاط فيها بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة »[3] . وبعد أن بين عذاب طالب الابتدائي والثانوي في اللغة يقول :

« وطريقة الكتابة العقيمة أي بحروف الهجاء المعقدة يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم في هذا »[4] .

وبالطبع هو يتظاهر بالعطف على طلبة الابتدائي والثانوي . وفي الحقيقة هو لم يقصد إلا القضاء على الفصحى وما ذكره من أسباب نوع من الخداع . وفي نفس الطريق سار « ميخائيل الصباغ » الذي كان يقوم بتدريس العربية ولهجاتها بباريس وقام بتأليف كتاب : (الرسالة التامة في كلام العامة والمناهج في أحوال الكلام الدارج) . فقد « استعان الأوربيون أولا بمن يعملون في بلادهم من

---

(١) تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ص ١٨ .
(٢) المرجع نفسه بتصرف هامش الصفحة المذكورة .
(٣) المرجع نفسه ص ١٠ .
(٤) المرجع نفس المصدر ص ٢٠ .

المصريين أو السوريين الذين عاشوا في مصر للتأليف في اللهجة المصرية »[1] .

وقام (ولكوكس) ـــ وهو مهندس إنجليزي ـــ بدور محموم في الدعوة إلى العامية فألقى محاضرة سنة ١٨٩٣ بناها على أن المصريين لم يتقدموا في الاختراع والسبب هو تمسكهم بالفصحى وأنهم لو تركوا الفصحى لأمكنهم التقدم مثل أجدادهم . وفي سنة ١٩٢٦ نشر (ولكوكس) رسالة بعنوان « سوريا ومصر وشمال أفريقيا ومالطة تتكلم اليونانية لا العربية » زعم فيها أن اللغة التي يتكلمها الناس من حلب إلى مراكش بما في ذلك مالطة هي اللغة الكنعانية الفينيقية أو البونية وخص مصر بالبونية لأن كلمة Punic تشبه كلمة Fenek التي كان يطلقها قدماء المصريين على الفينيقيين . كما زعم أن اللغة البونية التي هي أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى ، فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألفي سنة وأنها انحدرت إلينا من الهكسوس الذي قاموا في مصر نحو خمسمائة سنة والذين انتشرت لغتهم في أقطار عديدة حول مصر حتى بلغت مالطة ، وأخذ يتلمس الوسائل والشواهد لتدعيم زعمه هذا[2] .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨ ـــ ٣٩ ووليم ولكوكس هو الذي أشرف على عمل خزان أسوان سنة ١٨٩٨ ـــ ١٩٠٢ (عن تاريخ الشعوب الإسلامية بروكلمان ص ٧١٤) .

ثانيا : مستغربون

تقدم أن الأجانب لا يرضون أن يقفوا وحدهم في أي عمل ضدنا بل يجدون ــ وينجحون ــ في العثور على أصدقاء لهم من بيننا يتكلمون نيابة عنهم بما يريدون وهذه القاعدة لم تتخلف هنا . فقد وجدنا أن الدعوة إلى القضاء على اللغة العربية لم تكن خاصة بالأجانب بل عاونهم الكثير منا . ونضرب مثلا لهذا : ــ

سلامة موسى وعبد العزيز فهمي :

أقام سلامة دعوته على أسس أراد منها أن تكون جسورا على الخندق الموجود بين الغرب والشرق . من هذه الأسس :

(أ) أن المستعمر ليس كل الغرب وإنما هناك من الغربيين من يكره الاستعمار وأن « في الأمم الأوربية طوائف تعرف ولا تنكر أن الاستعمار جريمة . وقد كتبت ــ كما يقول ــ عن الطلبة الذين احتفلوا في باريس بيوم ٢١ فبراير وهو يوم نهوض الطلبة المصريين ، وانضمام العمال المصريين إليهم ، حين هبوا في مظاهرة تستنكر الاستعمار وتطالب بالاستقلال ، إلى أن وصلوا إلى ميدان قصر النيل ، فخرج إليهم الجنود الإنجليز فقتلوا منهم وجرحوا . وقد أصبح هذا اليوم ــ كما يقول ــ عيدا عالميا . هو رمز الكفاح من أجل الحرية ، والاستقلال ضد الأمم الاستعمارية . ثم يقول : إن في أوربا أناسا طيبين يستنكرون الاستعمار » .

(ب) التشكيك في القائمين على اللغة العربية وكان في تعليقاته هنا بعيدا عما يليق بكاتب يرعى المنهج العلمي . لا يستحق فعندما أراد أن يعترض على القدامى تعرض للدميري في « حياة الحيوان » ووجه عدة اعتراضات منها :

« إنه ــ أي الدميري ــ يرى أن الغاية الوحيدة للمعارف هي خدمة

الدين ، ولذلك لا ينسى عندما يتكلم عن البرغوث أو الصرصور أن يقول : هل أكلهما حلال أو حرام » . ثم يقول : « إن المعرفة عنده ليست ثقافة يقصد منها إلى غاية معينة وإنما هي حقائق تحتشد في ذهنه بلا نظام أو قصد . حتى لقد أدمج في حياة الحيوان تراجم الخلفاء ، وتكلم فيه عن الطب والشريعة والصرف والنحو والفلك » .

ومما يضايق سلامة موسى أن الدميري « ينظر إلى السلف كأنهم المثل الأعلى ويعتمد في معارفه على رواية الكتب القديمة » . ثم يصفه بالجري وراء الخرافات لأنه « يتكلم أحيانا عن السحر والعفاريت كأنها حقائق ملموسة »[1] .

وأعتقد أن أي نظرة إنصاف تبين أن سلامة موسى يضحك على العقول في كلامه ـــ ولا داعي لاستعمال ألفاظ لا تليق بالبحث العلمي كما فعل ـــ لأن الدميري والجاحظ مثلا كانت أشبه بدوائر المعارف الآن تتناول الموضوع من جميع نواحيه ، وهناك الكتب المنهجية التي لا تخرج عن المنهج فلم لم يذكرها ككتب عبد القاهر في البلاغة وسيبويه في النحو وأمثال ذلك كثير؟

ثم النظرة إلى السلف على أنهم المثل الأعلى أمر يشرف ونعتز به . أما قوله : « ويعتمد في معارفه على رواية الكتب القديمة » فهو مخطىء فقد اعتمدوا على الوسائل العلمية التي كانت ميسرة لهم ، والباقي اعتمدوا فيه على الغير ، مع الحرص الشديد ، فهل يريد أن يقارنهم بباحثي القرن العشرين الميلادي .

وأما قوله : إنه يتكلم أحيانا عن السحر والعفاريت كأنها حقائق

---

(١) ما هي النهضة ص ٢٤ وهو يتناقض مع نفسه لأنه حينما يتعرض لكتب المطالعة التي يجب أن تكون بأيدي التلاميذ يقول : « يجب أن تتناول كتب المطالعة في المدرسة والبيت موضوعات البيولوجيا والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة » .
وهذا ما يحويه ـــ على الأقل ـــ كتاب الحيوان للدميري ، فلماذا كل هذه الحملة ولكنه متضايق من ارتباط اللغة بالدين ويرى أن قصر دار العلوم على المسلمين دليل على أن الحكومة المصرية رأت ارتباط اللغة بالدين . المرجع نفسه ص ٧٣ .

ملموسة . فإنني أقول له : إنه لم يصل إليه ما في أوربا الآن من خرافات في هذا الموضوع ، أو وصل وكتمه عنا .

فإذا ما انتقل إلى القائمين على اللغة العربية في العصر الحديث فإنه يستعمل العبارات التي أترك للقارىء الحكم بأنها هل تليق ببحث علمي ؟ إنه يرى أن هناك طبقة تحاول بعث اللغة العربية على « حين كان يجب عليهم ـــ لو كانوا على وجدان بالعصر الحديث ـــ أن يدفنوها . ومعظم هذه الطبقة من معلمي اللغة العربية في مدارسنا »[1] .

ثم يبين أننا تركنا القفطان والملابس الفضفاضة إلى البنطلون ولكن « كما أن عندنا ناسا لا يزالون يتعلقون بالملابس الشرقية الفضفاضة لأنهم يحبون حياة الدعة ولا يحتاجون إلى نشاط ، كذلك عندنا ناس يكرهون الحروف اللاتينية ، لأنهم لم يقرءوا كتابا واحدا في العلم طيلة حياتهم ، فلا يفهمون معنى الدقة العلمية في التعبير . وهؤلاء أيضا عبء علينا ، وحجر طاحون معلق بأعناقنا يعوق ارتقاءنا »[2] .

وهكذا ، إما أن يوافقوه على ترك لغتهم وإما أن يرميهم بهذه الأوصاف ، ثم يقول : « ولأننا نجهل العلم نجد ناسا فارغين يتحدثون عن الأدب كما لو كان شعوذة ولهوا بل إن منهم من يجد العلم في تصغير محطة إلى (محيطة) . وقلب الواو ياء ووصف الخادمة بأنها خادم فقط بلا تاء . وكأن هذه الشعوذة هي رسالة حياتهم في هذه المدنية . أما صنع طائرة تستوي في السماء ، أو الاستعداد لغزو القمر ، أو إطالة عمر الإنسان إلى مائتي سنة أو إلغاء حرارة الصيف وبرودة الشتاء من المدن أو زراعة البحر ، أو صنع اللحم من الخشب ، كل هذا عندهم

---

(١) البلاغة العصرية ص ٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٩ .

هراء صبيان ، وإنما الجو الخطير في حياتنا أن تعرف أن تصغير محطة هو محيطة »[1] .

والرد على هذا الكلام ببساطة : كل عالم يبحث في تخصصه ولم نر مدرسي اللغة العربية يقولون لمدرسي العلوم إن عملكم هراء . وأما الباقي : هل يريدها لغة بلا قواعد في الوقت الذي يقولون فيه إن كل شيء له قواعد حتى الرقص والطعام وتناول الطعام ومقابلة الضيف .. إلخ . إنه يريد أن يلغي النحو فلا داعي إليه ويقول : يجب أن نقتصر من تعليم اللغة العربية في مدارسنا الابتدائية على تمكين التلميذ من المطالعة والفهم بلا حاجة إلى أية قواعد خاصة بالنحو . وليس عليه من حرج أن يقرأ فيرفع المفعول وينصب الفاعل ما دام يفهم ما يقرأ . حسبه أن يسكن آخر الكلمات كما نفعل نحن حين نقرأ ، وبدلا من هذه القواعد اللغوية يجب أن يتعلم الصبي أكبر مقدار مستطاع من الكلمات التي ترد في الجريدة أو المجلة والمتجر والمصنع والدكان والمنزل أما في المدارس الثانوية فنشرع في تعلم أقل ما يستطاع من قواعد النحو ، ولا تبالي بالإعراب الذي أثبت الاختبار أنه لا فائدة منه بتاتا[2] .

وأي إنسان يقوم بمحاولة لإحياء اللغة العربية هو متهم « من سلامة موسى » وحيثيات الاتهام تختلف : فإذا كان المجمع اللغوي يتجه إلى ترجمة الكلمات العلمية إلى عربية فهو مجهود ضائع . بل اتهم من يحاول هذه الترجمة بأنه يعمل من حيث لا يدري على تأخير نهضتنا العلمية . وهذا ما يفعله المجمع اللغوي . ألم ينشأ المجمع اللغوي في عصرنا الزراعي الاقطاعي[3] .

ثم يقول عن المجمع أيضا : « نحن في نهضة كبيرة أو صغيرة في كل شيء

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٢ ــ ١٦٣ .

(٢) نفسه ص ١٣٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٦٤ .

إلا في العلم ، لأن مجمع اللغة العربية يقاطع الكلمات العلمية ، ويصر على الترجمة دون التعريب وأيضا يعارض في جعل الهجاء العربي بالحروف اللاتينية . ثم يقول إن قلبي يبكي لهذه الحال »[٢] .

فإذا ما انتقل من المجمع اللغوي إلى مدرسي اللغة العربية فهم ــ على رأيه ــ قد وقفوا في أماكنهم وأخذوا يدافعون عن اللغة على وضعها ، لا لأنهم أصحاب مبدأ ، بل دفاعا عن وضعهم الاقتصادي في ذلك : وأعظم المعاكسين هم الذين تخصصوا في درس اللغة العربية ، مثل خريجي دار العلوم . فإن تخصصهم هذا قد حال بينهم وبين دراسات بشرية عديدة ، فضاقت آفاقهم ، وصاروا ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة في المعابد ، لا ينبغي تغيير كلمة أو حتى أسلوب التعبير فيها ، أو خطها . زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادي ، ووجدان طبقي ، ينهضان على استبقاء اللغة العربية في جمودها الحاضر ، ولذلك يخشون التغيير ويرون فيه هجوما على مصالحهم الاقتصادية . ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها »[١] .

والآن . ماذا يريد سلامة موسى ؟ والجواب أنه يريد أشياء لو تمت لكان فيها إنهاء وجود الأمة العربي الاسلامية .

ولكن الذي يهمنا هنا ــ ونحن نبحث في محاربة الأعداء للغة العربية ــ هو محاولته القضاء على اللغة العربية الفصحى . وهو يصرح بأغراضه صراحة . ومنها : ترك اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية . فإذا لم يكن هذا ممكنا فلتكن اللغة العامية مع كتابتها بالحروف اللاتينية . وإليك توضيح رأيه :

إنه يسوق الأدلة على أن اللغة العربية لم تقف بالحاجات العلمية .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٨ .

(١) المرجع نفسه ص ١١ ــ ١٢ .

ويستشهد بأن إيطاليا استدعت المهندس المصري (إسماعيل سري باشا) والد (حسين سري) ليكتب تقريرا عن الممكنات المائية لنهر « البو » . وقد ألف المهندس المصري كتابا علميا عن الزراعة والري لوادي « البو » وكان هذا الكتاب باللغة الإنجليزية[1] . ويقول أيضا إنه « لن يمكن التأليف العلمي باللغة العربية بحروفها الحاضرة ، ثقوا أن هذا محال . ومن يقل غير ذلك إما ضال ، وإما أنه مضلل . اسألوا كلية الطب ؛ اسألوا كلية الهندسة ؛ اسألوا كلية الزراعة ؛ اسألوا كليات العلوم جميعها .. إنها جميعها تدرس علومها بالإنجليزية . لماذا ؟ لأن لغتنا العربية بوضعها الحاضر ، واعتمادها على الحروف العربية لا يمكنها أن تؤدي هذه الخدمة »[2] .

ويقول في مقدمة الكتاب عن منهجه « وأكثرت من المقارنات بين لغتنا واللغة الإنجليزية ، لكي أبرز للقارىء عيوب لغتنا ، وإرهاقها للمتعلمين بقواعد وتقاليد لم تعد لها فائدة »[3] . ثم يرى أن العقبة الوحيدة في سبيل النهضة هي اللغة بوضعها الحالي فنحن ــ كما يقول ــ « عندنا الرجال ، عندنا الكفاءة ، عندنا الحاجة إلى التأليف . ولكننا لا نعرف كيف نكتب سطرا واحدا من الطب وغير الطب باللغة العربية .

ثم يوضح أن استعمال الحروف اللاتينية ينقلنا إلى الأمام فيقول : « إننا نستطيع أن نترجم بمتوسط كتاب في العلوم كل يوم »[1] .

---

(١) المرجع نفسه انظر ص ١٦٧ ــ ١٦٨ . من ضمن ما يدعو إليه أن نغرس في أذهان جميع العرب أنهم أوربيون وأن اطلاق اسم الشرق على مصر خطأ فاحش . لسنا في حاجة إلى رابطة تربطنا بأهل جاوة بل نحن في حاجة إلى رابطة غربية ، لا أمل أن نشرب اللغة العربية لأنها بعيدة عن مزاجنا ، يجب أن نولي وجهنا شطر أوربا .. إلى غير ذلك مما وقف حياته للدعوة إليه وموجود في كتبه .

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٠ ــ ١١ .

(١) المرجع نفسه ص ١٦٠ .

وهو لا يقف أمام اللغة الفصحى في الكتابة فقط ، بل أيضا يقف ضد الفصحى ذاتها ، إنه يدعو إلى إلغائها واللجوء إلى العامية ، إذا لم تكن الأوربية ممكنة . فعندما يعترض العقاد على الاشتراكيين الذين يدعون إلى العامية يقول له :

« وقد حسب عليهم ــ أي العقاد ــ هذه الدعوة في قائمة رذائلهم لأنه هو يعتز بفضيلة اللغة الفصحى ، ويؤلف عن خالد بن الوليد ، أو حسان بن ثابت ، ولكنه غفل عن التفسير لهذه الظاهرة الاجتماعية ، وهي أن الاشتراكيين شعبيون يمتازون بالروح الشعبي ، ويعملون لتكوينه . وهم لهذا السبب أيضا مستقبليون وليسوا سلفيين . ولذلك يحملهم احترامهم للشعب على إيثار لغته الحاضرة على لغة السلف ، في حين هو سلفي الذهن ، في لغته ، وأسلوبه ، وتفكيره ، وسلوكه »[٢] .

ويستشهد على كلامه بأوربا حين اتجهت إلى اللغة العامية تاركة اللغة اللاتينية . وذلك أنه عندما وجدت الأمم الأوربية أن اللغة اللاتينية التي كانت وسيلتها الثقافية مدة القرون الوسطى ، قد أصبحت لا تتفاعل مع المجتمع الأوربي في نهضته الجديدة ولا تسايره تأثرا وتأثيرا ، عمدت إلى نبذها ؛ واتخاذ لغاتها العامية »[٣] .

ونقول له : وهل عندما اتخذت أوربا اللغة العامية حلت المشكلة ؟ إن اللغة العامية نفسها تنقسم إلى لهجات ، وإن الاختلاف بين لهجات المتكلمين بالفرنسية في فرنسا نفسها أكبر من الاختلاف بين لهجات المتكلمين بالعربية في الوطن العربي على اتساعه . وذلك بشهادة الفرنسيين أنفسهم يقول « جوستاف لوبون » :

---

(١) المرجع نفسه ص ٩ .

(٢) ما هي النهضة ص ١٨ .

« واللغة العربية من أكثر اللغات انسجاما ، وهي لا ريب مختلفة اللهجات في سورية ، وجزيرة العرب ، ومصر ، والجزائر ، وغيرها ، ولم يكن هذا الاختلاف في غير الأشكال . فترى المراكشي يفهم بسهولة لهجة المصريين ، أو لهجة سكان جزيرة العرب مثلا ، وأن سكان القرى الشمالية الفرنسية لا يفهمون كلمة من لهجات سكان القرى الجنوبية في فرنسا »[1] . هل تنقسم اللغة الفرنسية إلى شمالية وجنوبية وتترك الكتابة باللغة الأم حتى يمكن لهذه اللغة أن تتفاعل مع المجتمع ؟ أعتقد أن « سلامة موسى » قد نفّس عما في صدره وعما يكنه فقط . وإذا سألته لماذا لم يتبعك الكثير ما دمت تريد المصلحة وغيرك لا ينقصه التفكير ولا حب الوطن ؟

أجاب بما تقدم ، وهو أنهم يدافعون عن العربية ، إما لأنهم يدافعون عن مصالحهم الاقتصادية لأن رزقهم من هذا الطريق ، وإما لجبنهم ويقول : « والقلق عام ، ولكن الجبن عن الابتكار أعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الإصلاح الجريء إلا في رجال نابهين لا يبالون الجهلة والحمقى مثل قاسم أمين ، أو أحمد أمين ، حين يدعو كلاهما إلى إلغاء الإعراب ، أو مثل عبد العزيز فهمي حين يدعو إلى الخط اللاتيني »[1] . ونقول له بهدوء لقد قمت بدعوتك واستعملت من الألفاظ ما استعملت ، ماذا أصابك . هل اعتقلت هل اعتدى عليك أحد ، هل يضيق عليك في رزقك ؟ الجواب بالنفي طبعا .

ثم بحث عن عيب آخر للغة العربية فوجده — كما يزعم — في أنها مدينة

---

(١) حضارة العرب ص ٤٣٩ .

البلاغة العصرية ص ١٤٣ وفي حقيقة الأمر لم يكن سلامة موسى يبغي الإصلاح ولكنه كان يسعى — كما يقول فيليب حتى — إلى إثارة « شبح القبطية المصرية القديمة في مصر » الإسلام في نظر الغرب ص ١٩ .

ومن أقباط مصر من لا يزال يحافظ على اللغة القبطية يقول جوستاف ص ٨٢ . ومع نص كثير من المؤلفات على أنه لا يتكلم أحد اللغة القبطية في الوقت الحاضر فقد سمعت أقباطا يتكلمون بها فيما بينهم ، ويكتب الأقباط لغتهم بالحروف اليونانية في الزمن الحاضر .

لليونانية واللاتينية واللغات تأخذ من بعضها[٢] وأن كلمة أوربا نفسها ــ كما يقول ــ سامية . أوربا أي غروب » . ولكنه عند المقارنة خلا من الانصاف ، لأنه أتانا بكلمات في اللغة العربية وزعم أننا أخذناها من الإغريقية واللاتينية ولم يأتنا بالكلمات التي أخذتها أوربا عن العربية ، ولو رجع إلى ما قاله جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب[٣] لغير رأيه ، وعرف أننا أعطينا لأوربا الكثير من إصطلاحات العلوم ، وأغلب الظن أنه اطلع على هذا . وإذا كانت اللغة العربية قد اتسعت لهذه الاصطلاحات ــ كما يقر الغرب ــ عندما كانت النهضة العلمية العربية ، فإنه لم تعد له حجة عندما يقول : « إن العلوم تحتاج إلى الدقة ، وقبل كل شيء الدقة ولغتنا بنقص حروف العلة وأيضا بخلوها من الزوائد والأصول المشتقة بين اللغتين اللاتينية والإغريقية لا يمكنها أن تفي بحاجتنا في التعبير العلمي »[١] . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرى أنه بالعلاقة التي كانت بين العرب والإغريق والرومان « صار العرب يصطنعون مئات الكلمات الإغريقية اللاتينية »[٢] . ثم أخذ يرجع كلمات عربية كثيرة إلى أصلها اللاتيني والإغريقي . من هذه الكلمات التي ذكرها (الميراث) المشتق من الأصل (إرث) وهي الكلمة الإغريقية (أريس) والقاضي التي هي لفظا ومعنى لاتينية .

وأنا هنا بدوري أسأل إذا كان ذلك كذلك ، وكما قال كانت هناك صلات بين العرب واليونان والرومان قديما . فما المانع أن تكون هذه الكلمات عربية الأصل ، ووجودها في الإغريقية أو اللاتينية لا يدل على أننا أخذناها منها بل يدل على أنها أخذت من عندنا خاصة وأن هذه الكلمات تخضع للاشتقاق العربي فكلمة القاضي التي ذكرها نجد أصالتها في العربية لا تحتاج إلى دليل . فالقضاء

---

(٢) ما هي النهضة ص ٩٣ ــ ٩٧ .

(٣) ص ٤٤١ ــ ٤٤٢ .

(١) البلاغة المصرية ص ١٠٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٦ .

الحكم ، وقضي يقضي قضاء حكم ، وهكذا . هل بمجرد أن نجد هذه الكلمة في اللاتينية نقول إننا أخذناها منها ؟ ولماذا لا تكون الأخرى ، أي أنهم أخذوها عن العربية ؟ ولماذا لا يكون الأمر كما حصل عندما اتصل العرب بفرنسا مثلا بعد الإسلام . فقد أخذت الفرنسية والأسبانية والبرتغالية كثيرا عن العربية « وقد ألف دوزي وانجلن معجما في الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية »[٣] . هل يأتي سلامة موسى لمجرد أنه يجد كلمة في الفرنسية والعربية ليقول إن الأخرى أخذت من الأولى ؟

عبد العزيز فهمي :

وهذا هو الذي وصفه سلامة موسى بأنه وأحمد أمين وقاسم أمين من الرجال النابهين الذين لا يبالون الجهلة والحمقى . نقول إن عبد العزيز فهمي كانت دعوته إلى الخط اللاتيني . وقد عقب سلامة موسى على هذه الدعوة بقوله « والواقع أن الخط اللاتيني هو وثبة إلى المستقبل ، لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها ، وفتح لها أبواب المستقبل »[١] . وتقدم عبد العزيز فهمي بمشروعه إلى مجمع اللغة العربية في جلسة ٣ مايو سنة ١٩٤٣ . وإذا كانت هذه الطريقة ـــ وهي اتخاذ الحروف اللاتينية ستقطع الصلة بيننا وبين الإنتاج العلمي للسلف ـــ فإن عبد العزيز فهمي يقترح طبع أمهات الكتب بالرسم الجديد .

ويهمنا هنا أن ننقل ما قاله في نقد الفصحى ، لنرى كيف يردد كلاما سبقه به الأجانب . فبعد أن بين الصعوبات التي تتعلق بالنحو والصرف وغيرهما يقول : « وهذه المشقة تحملني على الاعتقاد بأن اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين ، لأن قواعدها عسيرة ورسمها مضلل . فمن تحدث في نفسه فكرة مفيدة

---

(١) حضارة العرب ص ٤٤١ .

البلاغة العصرية ص ١٤٣ ـــ ١٤٤ .

للناس يحب نشرها فيهم بالكتابة أو الخطابة ، يأخذه خوف انتقاد عبارته فيكتم فكرته في نفسه ويميتها ، أو هو ينشرها بلغة من اللغات الأجنبية التي أصبحت عند كثير من الشرقيين أيسر عليهم من لغتهم العربية[٢] .

وهكذا كان اتهامه للفصحى ولكنه كالسابق لم يستطع أن يقنع نفسه وضاعت كل دعوة ضد الفصحى لأنها قائمة على غير أساس ، وانتصرت الفصحى ، لا لأنها وجدت من يدافع عنها ، بل لأنها تحمل في ذاتها عناصر النجاح مع حفظ الله لها بكتابه الذي نزل بلسان عربي مبين . ولا زالت الفصحى تكسب أنصارا حتى اليوم .

(٢) عن كتاب تاريخ الدعوة إلى العامية ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

محاولة إحياء القوميات والعداوات القديمة

جاء الإسلام ليقضي على كل عصبية جاهلية[1] واستجاب المسلمون ونسوا كل ما كان لهم من عصبية قبل الإسلام وأصبحوا أمة واحدة بفضل دينهم .

إن الدين إذا فهم على حقيقته كان عامل جمع ، وهذا ما كان في عهد رسول الله ﷺ والمدة التي تلت ، قبل الخلافات التي أصابت المسلمين في أواخر عهد عثمان بن عفان رضي الله تبارك وتعالى عنه . وأما إذا لم يفهم الدين على حقيقته ، وأخذ كتعصب لرأي معين ، دون النظر في هذا الرأي أهو حق أم باطل . إذا أخذ الدين على هذا الوجه فإن المسلمين يحملون أنفسهم مسئولية التفرقة فيما بينهم .

وعلى هذا فلكي يبقى الرباط قويا بين المسلمين لابد أن يحتفظوا بنزعة دينية واحدة وهي الاسلام فحسب .

أما إذا أثرت الأفكار الدخيلة ـــ كما حصل بالفعل ـــ في إيجاد نزعات مختلفة ، فإن الدين لا ذنب له في هذه التفرقة والانقسام .

وهذا الأمر الأخير هو ما حصل للمسلمين كما حصل لغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . وهنا كانت مأساة المسلمين ، حينما اختلفوا على أنفسهم وتعددت فرقهم .

إذ في معظم مناطق العالم الإسلامي تجد هذا التعدد ، كما تجد تعصب أتباع كل مذهب لمذهبهم ، وكأنهم قد رأوا ـــ وكثيرا ما صرحوا ـــ أن الحق وقف عليهم . وما من أتباع مذهب من هذه المذاهب إلا كان لهم مع أتباع المذهب

---

(١) ارجع إلى ما قلناه عند الكلام على محاولة زرع الفرقة بين المسلمين

الآخر معارك دموية في بعض الأحيان وجدلية في كل الأحيان ، وإن كانت تختلف شدة وضعفا من فرقة لأخرى ، ومن وقت لآخر .

وهذه الفرق لم ينشئها العدو الحديث ، بل جاء ليجد سلفه في عداوة الإسلام قد مهد له الطريق . وجاء العدو الحديث ليدرس أولا دراسة متأنية ثم يجد أن مما يوصل إلى إضعاف المسلمين ـــ علاوة ما تقدم ـــ إحياء الخلافات القديمة مع الدعوة إلى القوميات ، مع ما جدّ من تابعين للغرب ومعادين له . فإذا ما اعتز كل مسلم بفرقته الدينية وبقوميته فلن يبقى للمسلمين وحدة تجمعهم .

والآن مع العدو وأفكاره التي دعا إلى العمل بها . وهذه الأفكار ـــ رغم اختلافها في الظاهر ـــ هدفها واحد وهو القضاء على الوحدة الإسلامية . وأما الاختلاف فقد كان بسبب أن ما يصلح لمنطقة لا يصلح للأخرى . فإذا كان في العراق التفرقة بين السنة والشيعة فإن هذا لا يصلح في مصر حيث لا يوجد الاختلاف الديني ، وإذاً فلتكن التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، وهكذا .

وتبدأ بـ**شمال أفريقيا** .

قدمنا بعض المحاولات التي بذلها العدو للقضاء على الوحدة بين العرب والبربر من ناحية اللغة بإماتة اللغة العربية وإحياء البربرية أو الفرنسية وهنا ستكون المحاولة بإحياء القومية البربرية . وما دام الهدف هو تثبيت الفرنسيين في المغرب . فإن « لويس ماسنيون » يقول عن الحلول التي كانت تقترح : « أما الحل الثاني فهو بعث أمة مغربية تقوم على فكرة جنس أصلي هو الجنس البربري »[1] . ثم يأخذ في عرض العوامل التي تقف مع أو ضد فكرته فيقول : « ولا يؤيد هذا الحل الآن في الدوائر الإسلامية إلا شرذمة قليلون متفرقون بين البربر . وماذا سيكون حظ هذه الفكرة من النجاح ؟ إن البربر يكونون تسعة وعشرين في المائة من الجزائر ، ولكنهم لا يزيدون عن خمسة في المائة في ليبيا ، وعن واحد ونصف في

---

(١) وجهة الإسلام ص ٦٢ .

تونس . والبربر والجزائريون ـــ كما يدعي ـــ يفخرون أشد الفخر بأنهم ليسوا من الجنس العربي » ثم يقول :

« ونستطيع أن نجد حل المسألة في مراكش حيث يبلغ البربر ستين في المائة من السكان ولكن السيادة العربية فيهم لا تلوح عليها علامات الضعف . ولما كان البربر تعوزهم لغة بربرية ثابتة يرجع إليها فإنهم لم يشعروا ـــ بعد ـــ بمثل أعلى يجمعهم[٢] .

ولكن عدم ثبات اللغة البربرية وبالتالي عدم شعور البربر بمثل أعلى يجمعهم ، نقول إن هذا لم يثن الفرنسيين عن عزمهم ، بل حاولوا وكانت محاولتهم ـــ كما يقول لويس ماسينيون ـــ « إن الإدارة الفرنسية حاولت أخيرا أن تشد أزر الروح الجنسية بين بربر مراكش باستصدار الظهير السلطاني (١٦ مايو سنة ١٩٣٠) الذي قضى بتنفيذ القانون العرفي البربري ، وقانون الأحوال الشخصية في تلك الناحية بدل الشريعة الإسلامية . ولهذا السبب أثار الظهير احتجاجا صارخا ووجهت إليه حملات عنيفة في كل بقعة من العالم الإسلامي . وربما يذيع المثل الأعلى البربري بين مسلمي المغرب بعد ثلاثين عاما »[١] .

ويبين أن الكتاب الأوربيين يعملون جهدهم لتشجيع هذا المبدأ . ثم انظر إلى الفقرة الأخيرة من كلامه وهي (ربما يذيع المثل الأعلى البربري بين مسلمي المغرب بعد ثلاثين عاما) . إنهم يضعون البذرة ولتكن الثمرة بعد مدة طالت أم قصرت لكن المهم أن تكون ثمرة .

ومعنى الثلاثين سنة أنهم يرون أن الجيل الحالي له قيم معينة ، وبعد هذه المدة ينتهي الجيل ، ويخرج جيل آخر له قيم جديدة هي هنا القومية البربرية التي تعتمد على الجنسية البربرية والشرع البربري ، وإن كان قد فاتها وجود لغة تعتز بها .

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٢ ـــ ٦٣ .

(٢) المرجع نفسه ص ٦٣ .

وعن موضوع فصل البربر عن العالم الإسلامي يقول الدكتور « ج. كامبفمايز » عن البربر : إنهم مسلمون بالطبع ، بل قد لعبوا دورا هاما في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى . ولكنهم إلى جانب لغتهم البربرية احتفظوا بقوانين عرفية خاصة بهم .

وقد حاولت فرنسا سنة ١٩٣٠ تذرعا بهذه القوانين أن تدخل بين البربر قوانين جديدة تشمل كل المسائل المدنية والتجارية ، وتشمل خاصة المسائل الاجتماعية القانونية في الأحوال الشخصية ، وفي حقوق الميراث فلم يكن بد من إلغاء الشريعة الإسلامية . وصار رئيس القبيلة هو الذي يمارس السلطة القضائية بدلا من القاضي .

وجعل تنظيم القضاء من حق السلطات السياسية ، أي من حق فرنسا ، هذا المشروع الذي وضع في صورة (ظهير) في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ هو الذي أثار سخطا عم بلاد الإسلام كلها ، لأنه فضح ما تنويه فرنسا من فصل بربر مراكش ـــ وهما جماعة إسلامية لها خطرها ـــ عن العالم الإسلامي ومما زاد السخط ورود أنباء الوسائل التي اتخذت في نفس الوقت لتنصير البربر[1] . والفرنسيون كانوا « لا يكتمون أنهم يتخذون التنصير وسيلة للتجنيس »[2] . هذا بالنسبة للمغرب كان من ظروفه ـــ بوجود العرب والبربر ـــ أن يكون العمل بإحياء القومية البربرية لتجعل من البربر ندا للعرب .

أما في **مصر وسوريا ولبنان** فإن العمل يتخذ شكلا يتفق مع ما في المغرب في النتيجة ولكنه يختلف عنه في الوسيلة . النتيجة المطلوبة هي إيجاد الفرقة . وأما الوسيلة فهي إحياء قوميات قديمة ، وثقافات تتجه ناحية الغرب ونظرا لأن الغزو الفكري في هذه المناطق كان مبكرا فإن تلاميذ الغرب كانوا على

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٢ .

(٢) دفاع عن الشريعة ص ٣١

درجة من النضج تمكنهم من القيام بهذه الدعوة ، وأغلبهم كانوا ينفسون عما في صدورهم من حقد . يقول فيليب حتى في هذه المجموعة :

« وفي القرن الثامن عشر ــ وهو الذي ابتدأت الحديث عنه ــ أخذ كلا السبيلين ــ أي سبيل الغرب المتحرك علميا وسبيل الشرق الراكد ــ يدنو من الآخر وقد عاش في لبنان الشاعر « شارل قرم » والشاعر « سعيد عقل » والمحامي « يوسف السودا » والأديب « فيكتور خلاط » الذين ظلوا يعلنون سنوات : أن الثقافة اللبنانية لا تنتمي إلى آسيا ، بل لا تنتمي إلى العالم العربي وإنما هي جزء من ثقافة الأبيض المتوسط . وقد أثاروا شبح الفينيقية . كما أثار سلامة موسى شبح القبطية المصرية القديمة في مصر . على أنه لم يحدث إلا سنة ١٩٣٨ أن ظهر مسلم مشهور ــ وأولئك كانوا جميعا مسيحيين ــ وأديب ممتاز هو « طه حسين » وزير معارف مصر الآن ، ونشر كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » موضحا أن الثقافة المصرية ليست جزءا من الثقافة الآسيوية ، بل جزءا من ثقافة الأبيض المتوسط . ومنذ ذلك الحين لاحظت عددا كبيرا من المقالات بقلم باحثين مصريين يعلنون فيها : إننا لنشعر بألفة حين نجتمع بإنجليزي أو فرنسي أو أمريكي أكثر من الألفة التي نشعر بها حين نجتمع بهندي أو صيني أو ياباني »[1] .

---

(١) الإسلام في نظر الغرب ص ١٩ ــ ٢٠ .

ويقول فيليب حتى : ــ مساعدا على إيجاد فرقة بين المسلمين ــ « وعبارة « الدول الآسيوية والعربية » التي تشيع في مناقشات الأمم المتحدة هي لغو .

فالدول العربية ليست جزءا من آسيا . وهذا لا يمس ثقافة آسيا والهند والصين بحال من الأحوال . فالدول العربية ــ تلك الدول التي نبحث شئونها هذا الصباح ــ كانت في جميع أدوارها التاريخية تقريبا عدا مراحل قصيرة جدا ضمن الحدود الثقافية الأوربية .

والآن على الغرب أن يقنع تلك الدول التي ترغب في توطيد التفاهم مع الغرب أنها تنتسب إلى تلك الثقافة التي كانت تنتسب إليها على الدوام » (الإسلام في نظر الغرب ص ٢٠) .

وكان مما عمله جورست الذي خلف كرومر في مصر للوقيعة بين المسلمين والأقباط في مصر أن عمل « إلى تحريك الأقباط عليه ــ الحزب الوطني ــ بحجة أن مؤسسه (مصطفى كامل) كان يقول بالجامعة الإسلامية التي عمل لها السلطان العثماني فلما استقال رئيس مجلس النظار مصطفى فهمي حل=

وزادت الدعوة إلى القومية المصرية خاصة بعد اكتشاف مقبرة « توت عنخ آمون » ، إذ شجع كشف هذه المقبرة ــ كما يقول جب ــ بعض الدوائر الأدبية في مصر على إحياء الحضارة الفرعونية ، وهي حركة لم تمت بعد[1] .

فالغرب حينما كان يكشف بعض الآثار ، كان يتبع ذلك بدعايات للمدنيات القديمة وأصالتها ، وعندئذ لا يلبث أهل هذا الإقليم أن يتخذوا من هؤلاء القدماء قدوة لهم ، مدافعين عن هذه الحضارات ، معتزين بالانتساب إليها . وإذا كان الاعتزاز بالحضارات القديمة أثرا من آثار الغرب والغرب لا يؤثر إلا في الطبقات المثقفة غالبا وهي التي بيدها الأمور إذا كان كل هذا عرفنا أي ضرر يعود على المسلمين من هذا التأثير .

وليس التأثر بالاكتشاف الجديد خاصا بمصر ، بل حدثت مثل هذه النتائج أيضا ــ كما يقول جب ــ في **أندونيسيا** بسبب العثور على الحضارة الهندوكية ــ الجاوية . وربما تحدث الحضارة السومرية أو البابلية تأثيرا كهذا في **العراق** كما فعل ذلك ــ لا ريب ــ العثور على الحضارة الفارسية القديمة في **فارس**[2] .

وإن احتفال إيران منذ عامين بذكر الملك « قورش » هذا الاحتفال العالمي الذي كان فريدا في نوعه ، إن هذا الاحتفال يعتبر دليلا على ما للمدنية القديمة من تأثير في فارس وعلى اعتزازهم بهذه المدنية وهم المسلمون .

ومن المفيد هنا أن ننقل رأي « ك. ك. برج » ، في الكشوف التي قام بها

= جورست الخديوي على إسناد المنصب إلى رجل قبطي هو بطرس غالي باشا ناظر المالية السابق فما كان من الوطنيين إلا أن شنوا عليه حملة شعواء أدت إلى مصرعه في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٩١٠ . وإلى قطيعة بين المسلمين والأقلية النصرانية فهددت البلاد بنشوب حرب أهلية دامية » .
(كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٧١٩) .

(١) وجهة الإسلام ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٢ .

الغرب في أندونيسيا وأثرها في إحياء القوميات القديمة وانصراف كثير من الأندونيسيين ـــ بسبب هذا ـــ عن تقاليد دينهم . إنه يرى[1] : أن بعض التقاليد الهندوكية وجدت ما يؤيدها من نتائج البحث العلمي الأوربي . وتكوين تاريخ امبراطورية « ماجا باهت » أحيا لهم مجدا قديما يفخرون به وإن غلوا أحيانا في تقدير ذلك المجد . والضرر الذي عاد على مسلمي أندونيسيا أنهم كانوا يأخذون مثلهم العليا من المسلمين ، وبذلك كانوا يقتدون بالمسلم ، سواء كان صحابيا أم غيره ، في كل ما يتعلق بالإسلام وهذا يربطهم دائما بدينهم . أما بعد هذه الاكتشافات فقد تغير الأمر « واتخذ الشبان الجاويون ـــ كما يقول ـــ مثلا عليا في البطولة من شخصيات التاريخ الغابر العظيمة ، كالملك « ارلانجا » والملك « أيام وروك » و « جاجا مادا » الوزير الأكبر لامبراطورية « ماجا باهت » الذين بعثهم علماء اللغات من ثرى التاريخ بعد أن كادوا يصبحون نسيا منسيا » .

ولم يقتصر الأمر على هذا بل إن بعض المدارس التي نشأت في ظل الاستعمار أرادت أن ترضي سادتها برفع شأن المدنيات القديمة فوجدنا (مدارس) « تامان سسوا » التي أنشأها « كي أجارديو انتارا » تلقن الطلبة إيثار المدنية الجاوية القديمة . أعني المدنية الهندوكية الجاوية على الإسلام . أنشئت هذه المدارس أولا في الإمارات الوطنية ، وهي محاولة نادرة ـــ كما يقول ـــ تستلفت النظر للقبض على ناصية التعليم . وأخيرا فلا عجب أن تفلح الصوفية بما فيها من نزعة هندوكية قوية ـــ كما يقول ـــ في تثبيت قدمها إلى حد ما في جاوة الوسطى . ونظرا لكثرة طلبة جاوة الوسطى بين طلبة الجامعات تسربت هذه الأفكار المناصرة للهندوكية الجاوية إلى جمعيات الطلبة أيضا وأثرت في شعورهم بالجامعة الأندونيسية التي يمثلونها » . وبذلك يجري تأثير القومية المحلية بين المسلمين .

وبالطبع لو أن الدرس في دور التعليم يقوم على أسس دينية لما استطاعت

---

(١) ارجع الى البحث الذي كتبه في هذا في كتاب وجهة الإسلام خاصة ص ١٩٢ ـــ ١٩٤

أي مدنية قديمة أن تغزو الفكر الإسلامي . ولكن مساعدة الأجنبي على نشر الفكرة العقلية التي لا تتقيد بالدين ساعد على هذا . كل هذه العوامل أدت إلى أن يعلن المثقفون حيادهم في الأمور الدينية ، كما أكد أخيرا[1] رئيس حزب « جمعية أندونيسيا » في اجتماع للطلبة الهولنديين في ليدن تأكيدا شديدا . وبالطبع كانت هذه النتيجة متوقعة من هذه الجمعية حيث أسست في هولندا وحيث كان الاجتماع في هولندا أيضا .

وبينما كان اشعال نار الفرقة يسير في الجانب الفكري هكذا نجد كذلك العسكرية المسيحية تسعى من جانبها لإيجاد هذه الفرقة عمليا . ونضرب الآن مثالين : أحدهما من فرنسا والآخر من إنجلترا ، عما كانت تتبعه هاتان الدولتان مع جنود المسلمين الذين أصبحوا تابعين لهما .

أما **فرنسا** فقد أخبرنا « روجر لابون » عما كانت تتبعه فيقول : « ومما جرت عليه القيادة اجتناب تكتيب الكتائب على صورة يكون فيها العنصر الإسلامي غالبا . فنجد السنغاليين بين الجماعات « الفيشية » و « المسيحية » . وهاك على ذلك مثالا : في فليفيل بالجزائر يرابط الآلاي الخامس عشر السنغالي الذي عدده ١٧٠٩ جنود ؛ فنجد فيه ٥٤٢ مسلما و ١٣٢ مسيحيا والباقي فتيشيا أو غير تابع لمذهب خاص . والتابور ١٣٦ بمدينة الجزائر الذي عدده ٤٨٩ جنديا فيه ١٤٥ مسلما و ١٨٢ مسيحيا والباقي فتيشيا ثم يقول : فازدياد عدد المسيحيين من يوم إلى آخر هو ثمرة مساعي المبشرين والمؤسسات الخيرية[1] .

وأما **إنجلترا** فيقول اللفتنانت كولونيل « م. ل. فرار » عما فعلته بالهند

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٢٣ جـ ٢ .

(١) وجهة الإسلام ص ٢١٥ . والسادة سلالة النبي ﷺ و (المغل) سلالة المغول المسلمين و (الباتان) سلالة الأفغانيين و (المشايخ) سلالة الصحابة .

« دهش مسلمو الهندستان أشد الدهشة حينما رأوا أنهم مضطرون أن يسجلوا أنفسهم : « سادة » أو « مغل » أو « باتان » أو « مشايخ » وما كان يجرؤ أحد على أن يسمي نفسه « سيدا » إلا إذا كان سيدا بحكم ميلاده . وكثيرا ما يلقى الإنسان كثيرا من المغل الذين لا يعرف بأي طائفة يلحقهم . وكانت مئات من الطوائف « الأهير » و « الجوجار » تحتار أشد الحيرة مترددة بين أن تمسي نفسها « باتان » أو « مشايخ »[1] .

وبهذا نجد الإنجليز يحاولون تعميق الفوارق ــ إن كانت موجودة بين المسلمين ــ وإيجادها إن لم تكن موجودة . ن الإنجليز لما نزلوا الهند وجدوا السكان ينقسمون إلى مسلمين وغير مسلمين . أما غير المسلمين فقد كانوا مقسمين ــ تبعا للديانة البراهمانية ــ إلى طبقات أربع :

الطبقة الأولى طبقة رجال الدين والبراهمة وعلى زعمهم خلقوا من رأس الإله براهما .

الطبقة الثانية الجند « كشتر » وعلى زعمهم خلقوا من مناكب براهما .

الثالثة طبقة الزراع والتجار « بيش » وعلى زعمهم خلقوا من ركبتي براهما .

الرابعة طبقة الخدم والأساري « شودر » وهم أهل البلاد الأصليون وعلى زعمهم خلقوا من قدمي براهما وهم طبقة المنبوذين . هذه هي حال الهندوكيين .

أما المسلمون فإن الإسلام قد قضى على نظام الطبقات أيا كان لونه . فعندما يدين الإنسان بالإسلام يجد نفسه أخا لجميع المسلمين بقطع النظر عن لونهم وجنسهم وبلدهم .

ولكن هل هذا يرضي الإنجليز ؟ إنهم لابد أن يبحثوا عن ثغرة ينفذون منها . هذه الثغرة هي إيجاد نظام الطبقات كما أخبرنا الكولونيل « م. ل. فرار » وكان هذا مفاجئا للمسلمين كما قال : وبالطبع اعتمد الإنجليز على ما جرت به

العادة من مناداة المسلمين لمن هم من سلالة الرسول ﷺ من ابنته فاطمة بكلمة « السيد » . كما يقال السيد أحمد البدوي . وهكذا بالنسبة لأولاد الصحابة وغيرهم كما قال : والغرض الحقيقي هو تفريق المسلمين .

وأوربا التي رمت المسلمين بسهم التفرقة وسمومها تشكو مما أصابها من هذا ومفكروهم كانوا يتمنون أن تنجو أوربا من هذه السموم « فقد نادى عصر العلم والمعرفة (عصر النور) — كما يقول المؤلف — بمبدأ المساواة بين الأفراد ، رغم اختلاف طبقاتهم ، أو ألوانهم ، أو مذاهبهم ، كما فتح باب الثقافة والحياة الحرة السعيدة على مصراعيه لجميع الناس ، وهكذا كان عالميا في نظرته إلى الحياة والناس .

أما القرن التاسع عشر فقد سقط في مصيدة العقائد الوطنية وبذلك يكون قد خان أجداده ، وانحرف عن تعاليم أسلافه من معاصري عصر العلم والمعرفة ، وسمح بنمو القومية ، أو قل العنصرية المفرقة المشتتة التي ما زلنا نقاسي ويلاتها حتى الآن »[1] .

هذه هي أوربا التي تتألم لظهور القوميات والعنصرية المفرقة المشتتة ونحن — بعد أن رمتنا بها — نتجرع هذا السم باختيارنا ، على ناس منا ، مبتعدين بذلك عن ديننا .

---

(١) ص ١٨٢ منشأ الفكر الحديث تأليف د. كوهن برنيتون ترجمة عبد الرحمن مراد .

مستغربون

على عادة الأعداء لا يمكن أن ينجحوا في أي عمل إلا إذا كان لهم من يساعدهم على هذا من أبناء المسلمين . وهذا ما وقع هنا .

إذ نجد أن هذه الأفكار التي ما قامت إلا لتفكيك الوحدة الإسلامية ، قد وجدت لها من بعض المسلمين سندا ومشجعا ، وكان هذا البعض حربا على الأمة وعامل هدم في بنائها . يبدأ الأمر بأفكار واردة من خارج فتجد لها مستقبلين من العالم الإسلامي فإذا بهذه الأفكار بعد اعتناقها تفكك المسلمين .

يقول « ك. ك. برج » :

« إن أفكارا أوربية مخالفة في جوهرها للأفكار التي كانت سائدة قبل ذلك وجدت لها مكانا خفيا في مراكز العالم الإسلامي ، ونبتت في زعماء المسلمين ، وأحدثت عملية انحلال انتهت إلى ميدان السياسة بتكوين ممالك صغرى مشربة بالروح الأوربية ، تعترف بالإسلام دينا بل تعترف في بعض الأحيان أنه أكبر الأديان شأنا ، ولكنها لا تزيد على ذلك . وأصبحت الأمة الإسلامية التي تتسامى على القوميات على وشك التمزق إلى قوميات تعتز بقوميتها . ولابد لأفراد هذه الأمة أن يفصحوا عما سيؤثرونه في المستقبل : الإسلام أم القومية . وهناك علامات تدل أنهم سيؤثرون الطرف الثاني في المستقبل القريب »[1] .

هذا هو رأي غيرنا فينا ، ولابد أن نواجه أنفسنا بالواقع حتى نقف على أبواب العلاج ما دمنا قد عرفنا الداء . وأعتقد أن الغير يعرفنا أكثر مما نعرف نحن أنفسنا ، لأننا في كثير من الأحيان نتناسى حتى نبلغ درجة النسيان . والتناسي إنما يكون لغرض ، فقد فتح كثير من الشرقيين أعينهم على ما جاء من الغرب وظنوا أن

---

(١) وجهة الإسلام ص ٢٠٠ .

الإصلاح إنما يكون بهذا الوارد ، ولم يكن بد من ترك الدين جانبا لأنهم أصبحوا من ضعف الشخصية إلى درجة الانبهار أمام سادتهم وهنا قبلوا ما جاءهم عن هؤلاء السادة من « آراء الغرب السياسية الحديثة وأهم ما فيها مبدأ السيادة القومية . واضطروا فوق هذا أن يقبلوا أصول هذه السيادة ، ولواحقها فيما يختص بتكوين الدولة وماهية القانون ووظيفته ، وحقوق المشتركين في الوطن وواجباتهم »[1] .

وهكذا ما داموا قد قبلوا عن الغرب فكرة معينة عليهم أن يقبلوا توابعها . وهنا ينسلخون عن الإسلام شيئا فشيئا . وقد لا يسكتون عند حد الانسلاخ إذ قد يرجعون إلى الإسلام ليكيفوه ويخضعوه للوارد من الأفكار بدل أن يخضعوا الوارد لحكم الإسلام .

والآن إلى تلاميذ الغرب في بعض المناطق الإسلامية كمثال لتعرف اتجاههم .

ففي **المغرب العربي** نرى مجموعة تحاول فصل الدين عن الدولة « ويقود هذه الحركة ـــ كما يقول لويس ماسنيون ـــ طلبة من المدارس الفرنسية ومعلمون في المدارس الابتدائية . وموظفون يحذقون الفرنسية أيما حذق ، ويجيدون استعمالها وسيلة لتنظيم حركتهم عن طريق الصحف التي ينشرونها بالفرنسية »[2] .

ونجد هذا الفريق التابع لفرنسا ثقافيا جاء بالحل الذي يراه صالحا . هذا الحل لو اتبع لكان فيه القضاء على الأمة ، إذ يرى هذا الحزب ـــ كما يقول ماسينيون أيضا ـــ « حل المسألة في اتخاذ الجنسية الفرنسية اتخاذا تاما بما في ذلك استعمال كل الحقوق المدنية استعمالا كاملا »[1] .

---

(١) جب : وجهة الإسلام ص ٥٠ ـــ ٥١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٦٠ .

(١) المرجع نفسه ص ٦٢ .

وماذا ستكون النتيجة لو اتبعنا هذا الطريق ؟ إذاً لانتهت الأمة الإسلامية إذ لو اتخذ المغربي جنسية فرنسية ، والليبي جنسية إيطالية ، والمصري جنسية إنجليزية ، وهكذا كل بلد يأخذ جنسية المستعمر لها مع السير على قوانينه حتى في الأحوال الشخصية ، أقول لو اتبعنا هذا هل يبقى مسلم على وجه الأرض ؟ بعد أن تبين أن هذا الذي اتخذ جنسية مستعمره سيعامل بقانونه وستكون أحواله الشخصية على غير الشريعة الإسلامية .

وأما في **تركيا** فقد كان اتجاه كثير من المثقفين ـــ خاصة رجال الحزب الوطني ـــ إلى الأخذ عن أوربا سببا في نمو فكرة الفصل بين الدين والدولة ثم توجيه الاهتمام إلى الدولة لا إلى الدين . وبمرور الأيام ، وتحت وطأة الحاقدين على الإسلام ، بدأ المثل الأعلى الإسلامي يتوارى ويظهر مكانه المثل الأعلى المحلي « التركي » . أما العالم الإسلامي فقد خسر واحدا من أجزائه . وبالطبع خسرت تركيا كما خسر العالم الإسلامي من هذا . وأما تركيا فقد أصبحت كما يقول « بروكلمان » دولة قومية منكمشة على نفسها[٢] .

ومن الحق القول بأن تركيا ليست كلها كذلك ، لأن الشعب التركي مسلم ولا زال أكثره يرى أن الترك مسلمون أولا ، وترك ثانيا . إلا أن الفئة المتغلبة هي التي تدعو إلى القومية التركية ، وتنزع من اللغة التركية كل لفظ عربي وإحلال آخر ـــ أما من اللغة التركية القديمة أو اللغة اللاتينية ـــ محله .

والواقع أن القومية بلغت ـــ كما يقول « جب » ـــ « أقصى حد في تركيا حيث حلت أثناء السنوات القليلة قبل الحرب فكرة تتريك الشعوب المختلفة في الامبراطورية العثمانية محل الجامعة الإسلامية . وأيقظت شعورا معاديا لها من القومية العربية في سوريا والعراق بل في جزيرة العرب »[١] .

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٠٢ .

(٢) وجهة الإسلام ص ٥٢ .

أليس من العجب أن ينشغل المسلمون قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها وبعدها بقضايا أقل ما يقال عنها : إن فيها هلاكهم مثل هل ينضوون تحت القومية التركية أو القومية العربية ويطول النقاش وإذا بالحرب تعلن ، وإذا بهم يقاتلون بعضهم ، والعدو يغذي نار العداوة بينهم ، وتنتهي الحرب ، ويجد المسلمون أنفسهم ، وقد خسروا كل شيء ، وقدموا بلادهم هدية لعدوهم ؟

وفي الوقت الذي كانوا مختلفين فيه ويسفكون دماءهم بأيديهم ، كان اليهود يؤسسون لهم وطنا في بلاد إسلامية . ويفيق المسلمون ـــ إن كانوا قد أفاقوا ـــ ليجدوا اليهود يذبحون من بقي منهم ذبح الشاة . وإذا كان المسلمون يريدون أن يخفوا واقعهم عن عدوهم فهم مخطئون لأن عدوهم يعرف أنهم أصبحوا يفضلون القومية بمفهومها الضيق .

يقول « بايرد دودج » :

« واليوم أصبحت القومية ذات الصبغة المادية عنصرا قويا في الفكر الإسلامي ، وهذا يؤدي بالطبع إلى مناهضة فكرة الوحدة الإسلامية أو الخلافة ، وكون الإسلام وحدة منظمة .

فالقومية قد حلت محل المظهر الديني للوحدة الإسلامية إلى حد كبير »[1] . ويصور « جب » عمل الإسلام البناء ، ثم محاولة بعض المسلمين الاتجاه إلى القوميات فيقول :

« كان الشعور الإسلامي ينزع على الدوام إلى هدم الفوارق الجنسية حتى ليصعب التصديق أن هذه الفوارق ستسهل الآن إقامتها من جديد ، ولكن هناك شرذمة من المفكرين في بعض البلاد استهواهم التعصب الجنسي »[2] . ثم يعدد

---

(١) الإسلام في نظر الغرب ص ٣١ .

(٢) وجهة الإسلام ص ٢٢٢ .

الآثار السيئة التي جرتها هذه الشرذمة على المسلمين في تركيا والمغرب وغيرهما .

وأما « ولفرد كانتول سمث » فإنه يرى أن الشرق لا ينهض بدون الدين الإسلامي فيقول : « وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض بالواجب الشاق البناء » . ثم يقول :

« وما لم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود البتة »[٣] . وعندما سلك المسلمون هذا المسلك من تفتيت وحدتهم ، وراء عنصرية قاتلة ، لم يكونوا في ذلك ـــ كما تقدم أكثر من مرة ـــ إلا منفذين لأفكار أجنبية عنهم ؛ وردت إليهم من عدوهم ، فاستقبلوها بالرضا ، ودافعوا عنها وكانت النتيجة أن الغرب الذي كان يظن أن المسلمين أمة واحدة أصبح يجد نفسه أمام أمم متنافرة متقاتلة تحاول كل أمة أن تنقض على الأخرى . ولم يضيع العدو الفرصة التي رآها ذهبية بالنسبة له « إذا أنشأت الدول الغربية الواحدة تلو الأخرى تنقض ـــ كما يقول ستودارد ـــ عندما تلوح لها سانحة الشقاق بين أمة وأمة شرقية فتنتاش بلادا ثم تجعلها حانية عنقها إلى نير الاستعمار »[١] .
وعلى الرغم مما وجد المسلمون من نتيجة الجري وراء القوميات ، وأنهم أصبحو من المهانة إلى حد أن عدوهم أصبح يلعب بمقاديرهم ، على الرغم من هذا لا زال يمكن توجيه هذا السؤال :

هل أفاق المسلمون ؟

---

(١) الإسلام في نظر الغرب ص ٥٧ .

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ١٣ ـــ ١٤ جـ ٤ .

تعقـيـب

إن المسلمين أدركوا ما أصابهم وعرفوا أن السبب هو تفرقهم ، وليس يفصلهم عن طريق النجاة إلا خطوة واحدة نحو دينهم ، فإذا ما رجعوا إلى دينهم فلن يجدوا ليبيا ولا مصريا ولا فارسيا وإنما سيجدون مسلما .

عند ذلك ستجمعهم عقيدتهم ، وسيكونون الأمة التي مثلها الأعلى مجلس رسول الله ﷺ عندما كان يضم ـــ بدون فرق ـــ أبا بكر العربي وصهيبا الرومي ، وسلمان الفارسي ، وبلالا الحبشي . وأنهم لا جنسية لهم إلا دينهم ولا وطن لهم إلا دار الإسلام وقلوبهم لا تعلق بالجنس ولا بالأرض ، ولا بقرابة النسب وإنما تعلق بالإسلام فقط .

ويقيني أنه ليس من الإنصاف وصف المسلمين بأنهم تركوا وحدتهم الدينية نهائيا ، إذ إن الدين لا زال يربط بين المسلمين ؛ والحادثة تنزل بإحدى البلاد الإسلامية فإذا بالمجموعات المتمسكة بدينها من جميع البلاد الإسلامية تهتز لهذه الحادثة .

حقا إن العدو قد استطاع أن يشغل كل بلد إسلامي بمشاكله الخاصة ، وأن هناك فريقا من المسلمين ـــ خاصة أصحاب الثقافات الأجنبية ـــ أصبح لا يهتم بالقضايا الإسلامية .

ولكن على الرغم من هذا لا زالت الوحدة الإسلامية موجودة ، وأن هذه الوحدة لا زالت تعبر عن نفسها بوضوح في المواقف التي تتطلبها .

وكل ما هو مطلوب من المسلمين أن يعلموا أن هذه الوحدة كالشجرة التي تحتاج إلى من يتعهدها بالسقي والرعاية وعندئذ يجنون من شجرة الوحدة أطيب الثمار .

يقول « جب » في أن الحياة لا زالت تسري في جسم العالم الإسلامي :

وليس عهدنا بعيدا بالجزء الأكبر من العالم الإسلامي حينما يخيل لمن يراه أنه في سبات عميق حتى حسبه البعض قد فقد الحياة .

فأما اليوم فإن حادثة صغيرة مثل قتل الشهيد « عمر المختار » تهز ما بين مراكش وجاوة كأنها صدمة كهربائية ، وتولد تيارا من السخط الملتهب .

حقا إن ذلك الشعور المتولد يخمد سريعا ، ولكن تراكم أثر تلك الصدمات سيجعل رد الفعل أكثر قوة وسيزيد العالم الإسلامي شعورا بوجوده .

---

(١) وجهة الإسلام ص ٢٢٨ .

الفصل الرابع
طعنهم في القرآن

في هذا الفصل سنعالج ونناقش أحد المطاعن التي توجه إلى الإسلام في أساسه وهو قولهم : إن القرآن ليس وحيا . وقبل أن نبدأ في الموضوع نقول :

إن طعن الأجانب في الإسلام كدين شيء لا يوجب الدهشة لأنهم لو آمنوا به كدين لكانوا مسلمين : وأما ذكرنا لما قالوا فلأمور :

أولا : هل كانوا على مستوى البحث العلمي في هذا النقطة ، أو أن التعصب أعماهم عن اتباع المنهج العلمي في هذه النقطة أيضا كغيرها مما تقدم .

ثانيا : كي يعرف المسلم رأي عدوه فيستطيع أن يدافع عن دينه .

ثالثا : كي يعرف المسلم أن هذه الفئة التي تنتسب إلى الإسلام ثم تهاجم الدين ليست لها أصالة فكر ، وإنما هي مقلدة . وأنهم حين ينادون بحرية الفكر ليسوا أحرارا وإنما هم عبيد ساداتهم من الأجانب . وأنهم كي يقبضوا الثمن مالا ومناصب وشهرة لابد أن يصفوا المدافعين عن الدين بعدم الفهم وبالرجعية وبالدفاع عن كراسي الوظيفة[1] .. إلخ .

---

(١) قال الأستاذ أمين الخولي في تقديم كتاب « الفن القصصي في القرآن » للدكتور محمد أحمد خلف الله والذي كان مفروضا أن يكون رسالة دكتوراه ثم اعترض عليه لمخالفته للدين . قال الأستاذ الخولي يهاجم من هاجم الرسالة ويدعو لحرية الري : « إن ملاحدة اليوم هم قديسو الغد . وبدعة الحاضر هي تقوى المستقبل وإلا فلا تقدم ولا تطور » .

« أيها المحققون حكمة الناموس : امضوا قدما على قدم الأبرار الذين عبروا الطريق الحق أمامكم . امضوا فقد أضاءوا لكم الطريق باحتراقهم بالنار المقدسة ، لقد ألقوا فيها جحيما مسعرة ، وقودها الأبدان والأوراق والحطام ، لكنها كانت على أرواحهم بردا وسلاما » . =

والآن إليك ما يردده أعداء الإسلام .

يقول « جولد تسيهر » :

« فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية ، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرا عميقا ، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه »[1] .

ويأتي « كارل بروكلمان » بعد « جولد تسهير » ليكرر نفس الدعوى فيقول :

« وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى ، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد[2] :

هذه هي الدعوى التي يوجهونها ضد الإسلام : « إن ما فيه ليس وحيا وإنما هو مأخوذ عن اليهود والنصارى » .

ولكننا نلاحظ في نص بروكلمان ، عدم الجزم بشيء : فيقول في بدء النص : «وتذهب الروايات .. » وفي وسطه : « فلعله اتصل بجماعات من النصارى .. »[1] ، ولم يتحمل نتيجة الجزم برأي .

= هذا ما قاله الأستاذ أمين الخولي . وأنا أقول : أي جحيم ؟ إن الأستاذ كان يستطيع أن يقارن بين حياة المدافعين عن الدين وحياة المهاجمين ونحن نرضى حكم أي حكم في الموضوع .

يقول محمد أحمد خلف الله ــ وهو ما يظن أنه تجديد ــ « إن الأحداث والأشخاص في القصص القرآني من المواد التي يكون بها البناء . وهي مواد قد تكون تاريخية ، وقد تكون خيالية ، وقد تكون صورا لما في الأذهان أي « معتقدات ومسلمات » هذا ما ظنه تجديدا .

وأنا أقول له لم تأت بجديد ، فقد قيل هذا الكلام في البيئة الإسلامية ورد عليه العلماء ولكن الأجانب تلقفوه وأخذته أنت من الأجانب وظننت نفسك مجددا فما جئت به ليس من الدين ولا من الأصالة في شيء .

(١) العقيدة والشريعة ص ٥ ــ ٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤ .

(٣) تاريخ العرب ص ١٧١ جـ ١ .

وأما « فيليب حتى » فينص على أنه لا يمكن القطع برأي في هذا الموضوع فيقول :

« ولأخبار القرآن التاريخية أمثلة تقابلها في التوراة ، خلا بعض الأنباء التي هي عربية محضة ، كذكر عاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل ، وخلا قصتين ترمزان إلى الإسكندر ، وإلى أصحاب الفيل »[٢] .

ثم ـــ بعد أن يعقد مقارنة بين ما في القرآن وما في التوراة ـــ يقول :

« وإن دراسة القصص القرآنية السابقة ، ومعارضة آياتها بما في التوراة ، لا تثبت أن هنالك اقتباسا صريحا »[٣] .

ثم يقول : « وإليك العبارات التي تتوازى في الكتابين المقدسين » .

ويعقد مقارنة بين أكثر من عشرين آية وما يشابهها ـــ كما يرى ـــ في التوراة أو الأناجيل .

وقد يكون التشابه ـــ كما يقول ـــ في اللفظ مثل « سم الخياط » .

ثم ينتهي من الموازنة إلى أن هذا لا يدل على أن القرآن مأخوذ من التوراة أو الأناجيل ويقول عن هذا التشابه :

« فالظاهر أنها من الأمثال السامية القديمة ، وجوامع الكلم المألوفة في العبرانية والعربية معا »[١] .

وبذلك نرى الأجانب لا يتفقون على التهمة فيما بينهم .

---

(١) المرجع نفسه .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه ص ١٧٢

إن الأعداء في الحديث يشبهون الأعداء في القديم من أهل مكة ، حين وقفوا حيارى يقلبون الرأي ، ويبحثون عن وصف يصفون به القرآن الكريم ، وكلما وصلوا إلى رأي انتقلوا منه إلى غيره حيث لا يجدون لهم سندا من واقع ، ولا دليلا من عقل . وإننا هنا نترك أحد الأجانب ليبين لنا تناقض بني قومه في موقفهم من محمد ﷺ والحكم عليه .

يقول « أميل درمنغهم » في تناقض المستشرقين في حكمهم على الرسول ﷺ :

« وقد وجدت مع الأسف تدقيقات المحدثين ناقصة إلى الآن . وكثيرا ما وجدتها سلبية محضة ومتناقضة .

فالمستشرق الفلاني يحكم بأن محمدا كان أعلى من أبناء عصره ، والآخر يقول : إنه كان شبيها بهم من كل وجه . وهذا يقول إنه توفي على أثر تخمة . وآخر يقول : إنه أصابته حمى منشؤها كثرة الصوم .

وقال « لامارتين » إنه لم يكن إلّها ، ولكنه كان أكثر من رجل ، أي كان نبيا .

وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة . ولكن « باينسكي » هدم هذه النظرية تماما .

و « ماسنيون » نفسه صرح بأن محمدا كان على تمام الاعتدال في مزاجه .

وأما « لامنس » ـــ وهو وإن كان من أحدث المستشرقين العصريين ، وأكثرهم اطلاعا ـــ فلا ينكر أنه من أشدهم تعصبا ، وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الإسلام ونبيه »[1] .

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٤٥ ـــ ٤٦ جـ ١ .

إن الغرب توارث هذه الأكاذيب ، وأن البغضاء قد استمرت من قديم .

ولكن الملاحظ أن هؤلاء كلما مر بهم الزمن اقتربوا من الحقيقة . وتستطيع أن تقارن بين القديم والحديث ، فتراهم في القديم يذهبون إلى « أن محمدا كان صنما من ذهب وأن مساجد المسلمين هي هياكل ملأى بالتماثيل . وقد ورد في أغنية اسمها « أغنية أنطاكية » ما يفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى في تلك الهياكل محمدا بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكبا على فيل .. ثم إن الأغنية المسماة بأغنية « رولان » والتي تمثل فرسان شرلمان ، وهم يحطمون أصنام المسلمين ، فيها أن المسلمين يعبدون ثالوثا مؤلفا من « ترفاغانت » و « محمد » و « أبولون »[1] .

هكذا كان تفكير القوم كما يصوره واحد منهم هو « درمنغهم » .

وبمرور الزمن وتكشف الحقائق وجدنا من يثوب إلى رشده وينسى عصبيته من الحق ويرد على بني قومه .

يقول « درمنغهم » :

« ولما كان لكل نبي معجزة كانت معجزة محمد القرآن » .

ومما لا يقبل المراء أن في القرآن من سحر البيان ما لا يوجد في كلام غيره على الاطلاق ، وأن فيه من قوة التأثير ، والعمل في القلوب ما لا يبرح إلى اليوم سرا مغلقا ، حتى إنه ليقذف بالخشوع في قلب أقل الناس خشية وأبعدهم عن التقوى . وكان محمد يتحدى عبقرية العرب أن يأتوا بسورة من مثله .

ولم يكن إعجاز القرآن في مزيته اللغوية من جهة ما يسمى اليوم بالأدب ، بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد ، وكان يكره الشعراء ، ويبرأ أن يكون منهم .

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٤ .

وإنما إعجاز القرآن في شدة التأثير وعجز الناس عن الإتيان بمثله »[1] .

وليس « درمنغهم » وحده هو الذي يرد على بني قومه . بل نجد غيره يرى العار في الإنصات لتقولات الغرب على محمد ﷺ يقول « كارلايل » :

« لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة .

فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مائتي مليون من الناس من أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا .

أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا . فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها ألا تخلق » .

هذا هو رأي غربي في بني قومه . هل يقال بعد ذلك إن القوم كانوا يتبعون منهجا علميا في معالجتهم للقضايا الفكرية أو العقائدية ؟

إن بدء البحث عندهم كان من أجل باطل ، فما أنشئت أقسام اللغة العربية في جامعاتهم من أجل العلم ، بل من أجل معارضة القرآن وتفنيده . لقد بدأت دراساتهم من خطأ وهو اعتقادهم أنَ القرآن ليس سماويا ثم بعد ذلك كان البحث عن مصدر للقرآنَ ، ومن المصادر التي توهموها اليهودية والنصرانية .

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٤ هذا هو رأي « درمنغهم » ولكنه في مواضع أخرى يردد بعض ما يردده بنو قومه ولم نأت به اكتفاء بما ذكرناه مما يماثله .

وككل باطل بدأت فكرتهم تنهار بمرور الأيام ، وبدأ المنصفون منهم يرون من العار ترديد هذه الأباطيل ، بل وأخذ كثير من كبار مفكريهم يدخلون في الإسلام ويهبون حياتهم للدعوة إليه .

وبعد أن تقدم لنا رد الأجانب بعضهم على بعض نبدأ في الرد عليهم . ومن أجل هذا سنحاول معرفة حال اليهودية والنصرانية وقت البعثة .

لقد كانت الديانتان وقت بعثة المصطفى ﷺ قد حرفتا ، وأصبحتا بعيدتين عن أصلهما السماوي ، بحيث يمكن القول بأنهما أصبحتا ديانتين وضعيتين فجاء القرآن لتبيين الدين الحق .

وإليك البيان .

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٦٥ ــ ٦٦ جـ ١ .

اليهودية

يقول « ول ديورانت » :

« إن العلماء مجمعون على أن أقدم ما كتب من أسفار التوراة هما القصتان المتشابهتان ، المنفصلة كلتاهما عن الأخرى في « سفر التكوين » تتحدث إحداهما عن الخالق باسم « يهوه » على حين تتحدث الأخرى عنه باسم « الوهيم » . ويعتقد هؤلاء العلماء أن القصص الخاصة بيهوه كتبت في « يهوذا » وأن القصص الخاصة بالوهيم كتبت في « إفرايم » . وأن هذه وتلك قد امتزجتا في قصة واحدة ، بعد سقوط السامرة » . ثم يقول عن سفر الشريعة : « وفي هذه الشرائع عنصر ثالث يعرف بالتثنية ، أكبر الظن أن كاتبه أو كتابه غير كتاب الأسفار سالفة الذكر . وثمة عنصر رابع يتألف من فصول أضافها الكهنة فيما بعد . والرأي الغالب أن هذه الفصول تكون الجزء الأكبر من سفر الشريعة الذي أذاعه « عزرا » . ويبدو أن هذه الأجزاء الأربعة قد اتخذت صورتها الحاضرة حوالي عام ٣٠٠ ق. م »[1] .

وقد عقد « ول ديورانت » مقارنة بيّن فيها أن سفر الشريعة الذي قرأه « يوشيا » الملك في القرن السابع قبل الميلاد ، غير الذي قرأه « عزرا » الكاهن سنة ٤٤٤ ق. م .

فالأول أبلغ عنه الكاهن « حلقيا » أنه وجده في سجلات الهيكل ، وأن ما فيه هو قضاء موسى نفسه .

والثاني قرأه « عزرا » وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه ، (سفر شريعة موسى) . وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرءون عليهم

---

(١) قصة الحضارة ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨ من الجزء الثاني المجلد الأول .

ما تحتويه ملفات هذا السفر »[1] .

ثم يقول في المقارنة : « لا شك أن الذي قرأه « يوشيا » غير الذي قرأه « عزرا » ؛ لأنه جاء صريحا بالنسبة للأول أنه قرىء على اليهود مرتين كاملتين في يوم واحد . على حين أن قراءة الكتاب الآخر قد احتاجت إلى أسبوع »[2] .

وهكذا يشهد واحد ــ وستأتي في شهادة غيره ــ من غير المسلمين بأن التوراة الموجودة ليست هي المنزلة على موسى .

وكان من أثر تعدد الواضعين وجود تناقضات صريحة في داخل التوراة ويعدد « رحمة الله الهندي » هذه التناقضات ، ثم ينقل عن علماء اليهود سببا فيقول :

« وعلماء اليهود يقولون : إن عزرا الذي كتب هذا السفر ــ التكوين ــ ما كان له علم بأن بعض هؤلاء بنون أو بنو الأبناء . .

ويقولون أيضا : إن أوراق النسب التي نقل عنها « عزرا » كانت ناقصة[3] .

ويستدل اسبنوزا بأدلة كثيرة على أن التوراة اكتملت كتابتها بعد موسى مثل السفر الذي يقول : « لقد مات موسى خادم الله ولم يقم من بعد نبي في إسرائيل كموسى » (التثنية ١٣ : ١) وبعد أن يأتي اسبنوزا بأكثر من دليل يقول : من هذه الملاحظات كلها يبدو واضحا وضوح النهار أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة ، بل كتبها شخص عاش بعد موسى بقرون عديدة[4]

اتضح لنا بهذا أن التوراة الموجودة الآن ليست هي التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وبذلك لا تكون الشرائع الموجودة فيها من الشرائع السماوية .

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٦٦ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦٦ .
(٣) إظهار الحق ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، جـ ١ .
(٤) رسالة من اللاهوت والسياسة ص ٢٧١ .

وبعد التغيير نجد اليهود وقد آمنوا بعقائد لا يمكن أن تتفق وأي دين سماوي .

لقد جعلوا الإله « يهوه » خاصا بهم وهم شعبه المختار ؛ ففي الإصحاح الرابع — خروج — يقول الإله لموسى : « فتقول لفرعون : هكذا يقول الرب : « إسرائيل » ابني البكر » .

وفي الإصحاح الخامس — خروج — عن طلب موسى وهارون من فرعون أن يطلق بني إسرائيل :

« وبعد ذلك دخل موسى وهارون ، وقالا لفرعون : هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية .

فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل ؟

لا أعرف الرب ، وإسرائيل لا أطلقه .

فقالوا : إله العبرانيين » .

وفي الصحاح السادس — خروج — يقول الرب لموسى :

« لذلك قل لبني إسرائيل : أنا الرب ، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتهم ، وأخلصكم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لي شعبا ، وأكون لكم إلها » .

وكانت نظرة بني إسرائيل لأنفسهم على أنهم شعب الله المختار ، سببا في كثير من المشاكل بالنسبة لهم ، وللإنسانية .

فمنعت من قلبهم الرحمة بالشعوب ، وأصبحوا يسارعون في الحروب .

ومن الناحية النفسية سببت لهم عقدة شعب الله المختار ازديادا في الكبرياء

واعتزال غيرهم من بني الإنسان .

وبالتالي لم ينظروا إلى الأمور نظرة تعمهم وجميع الأمم ، بل انظروا إليها من زاوية خاصة بهم .

وقد أضافوا ـــ بزعمهم ـــ صفات للإله لا تليق بذاته .

فهو ـــ كما يزعمون ـــ إذا حكم حكما يمكن أن يرجع فيه ، نادما على ما فعل .

فبعد أن فكر الإله في إهلاك اليهود كلهم لعبادة العجل ، راجعه موسى ، قائلا : « ارجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك » .

فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله لشعبه .

وهكذا نجد اليهودية عقيدة مبدلة ، لا يمكن أن تسعد العالم ، بل كانت سببا في إشقائه .
العالم لهم شيئا بل كانوا هم ثورة شر وما فعلته النازية الألمانية بهم لا يساوي عشر ما فعلوه بالمسلمين ف فلسطين ومصر وسوريا ولبنان من جرائم غابت عن ذهن النازيين الأمر الذي بجعلهم يوضعون في محلهم ويسمحون حقيقة بالنازيين الحمر .

النصرانية

لم تكن المسيحية أسعد حالا من اليهودية فقد كانت الظروف التي مرت بالنصارى أسوأ ظروف مرت بأمة فقد اجتمعت عليهم عوامل أفسدت عليهم دينهم ، وبدلته من دين سماوي يعتمد في أصوله وأحكامه على الله إلى دين محرف غذي بأفكار بشرية وثنية .

أي أنه بدل أن يرتفع بالبشر ويأخذ بيدهم إلى السماء ، نزل هو إلى البشر يأخذ منهم .

وبعد أن كان البشر وثنيين باسم الوثنية أصبحوا وثنيين باسم المسيحية .

وأهم العوامل التي انحرفت بهذا الدين هي :

أولا : الاضطهادات التي نزلت بالنصارى فأدت إلى ضياع الإنجيل الصحيح .

ثانيا : الوثنيات والفلسفات التي كانت تملأ العالم في ذلك الوقت والتي كان يمكن أن يقل أو ينعدم تأثيرها لو كان هناك الإنجيل الصحيح .

ثالثا : أهواء رجال الدين كانوا دائما يعطون على حساب الدين ليأخذوا هم دنيا .

وإليك التفصيل :

أولا : الاضطهادات :

جاء المسيح عليه السلام رسولا إلى بني إسرائيل بعد أن حرفوا شريعة الله التي جاءهم بها موسى — كما تقدم — يقول المسيح ، « لم أرسل إلا إلى خراف

بني إسرائيل الضالة » ص ١٥ : ٢٤ وبعد أن رفض بنو إسرائيل رسالة المسيح اتجه بها إلى غيرهم .

ولكن دعوة المسيح قوبلت بعداء شديد كان سببه الأول هم اليهود الذين حرضوا عليه وعلى أتباعه .

وإن نهاية المسيح بمحاولة الصلب ــ لولا أن نجاه الله ــ لتدل دلالة قاطعة على الجو العدائي الذي كان يعيش فيه ، ومقدار المؤامرات التي كانت تحاك ضده سواء من اليهود أم من الوثنيين .

وبعد المسيح لم تهدأ هذه الاضطهادات بل زادت ، بحيث يمكن القول بأن أشنع أنواع التعذيب والوحشية قد جربت فيهم . فقد تركوا للكلاب تنهشم وللحيوانات تدوسهم ، ودهنوا بالمواد الملتهبة ثم أشعلت فيهم النيران وأضيئت بهم الطرق . واستمر التعذيب مدة تجاوزت الثلاثمائة سنة .

وقد فكر عدد من ملوك الروم في هذه المدة استئصال المسيحيين نهائيا وبدءوا فعلا في تنفيذ الفكرة ، وساروا فيها شوطا بعيدا . وبالطبع كانت الكتب أول شيء تمتد إليه يد المخربين .

وفي عهد أحد هؤلاء الملوك (مكسيمن سنة ٢٣٧) صدر الأمر بقتل العلماء لأنه قدر أنه لو قتل العلماء فإن أمر العامة يصبح سهلا . وقلده غيره في قتل رجال الدين وهدم الكنائس .. إلخ .

في هذا الجو لا يمكن المحافظة على الكتب ولا التحقق من صحتها . وبذلك فقد الكتاب الديني سنده المتصل الذي هو الأساس فيه . « إنه لا بد لكون الكتاب سماويا واجب التسليم ، أن يثبت أولا بدليل تام أن هذا الكتاب كتب بواسطة النبي الفلاني ووصل بعد ذلك إلينا بالسند المتصل ، بلا تغيير ولا تبديل . والاستناد إلى شخص ذي إلهام بمجرد الظن والوهم لا يكفي في إثبات

أنه من تصنيف ذلك الشخص ، وكذلك مجرد ادعاء فرقة أو فرق لا يكفي فيه .. فإذا كان الأمر كذلك فلا نعتقد بمجرد استناد كتاب من الكتب إلى نبي أو حواري أنه إلهامي أو واجب التسليم ، وكذلك لا نعتقد بمجرد ادعائهم بل نحتاج إلى دليل . ولذلك طلبنا مرارا من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه . واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم[1] .

فقال إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة . وتفحصنا في كتب الاسناد بهم فما رأينا فيها شيئا غير الظن والتخمين .

يقولون بالظن ويتمسكون ببعض القرائن وقد قلت إن الظن في هذا الباب لا يغني شيئا[2] .

لقد عاش القوم وسط الاضطهادات ، فكانت التعاليم سرية ، ولا يستطيع إنسان أن يتأكد مما يسمع . إن الواحد منهم ـــ بلا شك ـــ كان يعتقد أن كل من حوله جاسوس عليه ورقيب يحصي حركاته وسكناته . وإذا كانت هذه حاله فكيف يتمكن من سؤال غيره عن شيء في دينه المحظور ؟ لعل من يسأله يكون جاسوسا جاء يعرف سره .

وفي وسط هذا الجو دست على الدين كتب تحوي عقائد لم يتكلم بها المسيح ، ولا تمت إلى شريعته بصلة . ومن هنا تطرق الشك إلى كتبهم بما فيها الأناجيل المعتمدة عندهم .

ومن هذه الأناجيل التي تطرق إليها الشك إنجيل « متى » .

يقول الشيخ رحمه الله الهندي . قال « فاستس » الذي كان من علماء

---

(١) كما يقول الشيخ رحمه الله .

(٢) إظهار الحق ص ١٠٢ ـــ ١٠٣ جـ ١ .

فرقة « ماني كيز » في القرن الرابع : إن الإنجيل المنسوب إلى « متى » ليس من تصنيفه .

والبروفسور الجرمني قال : إن هذا الإنجيل كله كاذب . وهذا الإنجيل كان عند فرقة مارسيوني ، ولم يكن البابان الأولان فيه ، فهما عندهم الحاقيان .

وكذا عند فرقة « ابيونيه » هذان البابان الحاقيان . وتردهما فرقة « يوني تيرين » و « القسيس » و« ليمس » . وأنكرهما مع أكثر مواضع هذا الإنجيل « نورتن »[1] .

وينص علماؤهم على أن هذا الإنجيل ما كان متواترا في القرن الأول ، وأن التحريف كان شائعا في هذا القرن أيضا في المسيحيين ... فإذا لم يسلم الأصل فكيف يظن السلامة بالترجمة التي لم يعلم صاحبها أيضا بالسند الكامل بل الحق أنها كلها محرفة[2] .

وهكذا نجد الشك يتطرق إلى الكتب التي هي الأساس ، فكيف يمكن أخذ عقيدة من كتب هذا شأنها ؟

ثانيا : الوثنيات والفلسفات التي كانت تملأ العالم في ذلك الوقت .

استطاعت الأفكار الوثنية التي كانت موجودة في ذلك الحين أن تدخل النصرانية لتزيح غيرها من الأفكار الدينية الصحيحة . وساعدها على ذلك أن النصراني ـــ كما تقدم ـــ ما كان يستطيع أن يميز بين ما هو نصراني وما هو وثني .

وهذا التأثير للوثنية في النصرانية لم يستطع منصف إنكاره . يقول « ول ديوارنت » عن عبادة المصريين وأثرها في النصرانية :

---

(١) المرجع نفسه ص ٤٣٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٣٠ .

« ومن أعمق الأساطير أسطورة « إيزيس » الأم العظمى .. ذلك أن إيزيس ، ـــ كما تقول الأسطورة ـــ هي التي عثرت على القمح والشعير حين كانا ينموان بريا في أرض مصر وكشفت عنها لأوزيرس .

وكان المصريون يعبدونها عبادة قائمة على الحب والإخلاص ، فصوروا لها صورا من الجواهر لأنها في اعتقادهم أم الإله . وكان كهنتها الحليقون ينشدون لها الأناشيد ويسبحون بحمدها في العشي والابكار .

وكانت صورة قدسية لها تمثلها وهي ترضع في ريبة طفلها الذي حملت به بمعجزة من المعجزات ، توضع في معبد ابنها المقدس « حورس » « إله الشمس » في منتصف فصل الشتاء في كل عام ، أي في الوقت الذي يتفق ومولد الشمس السنوي في أواخر شهر ديسمبر .

ولقد كان لهذه الأساطير والرموز الشعرية أعمق الأثر في الطقوس المسيحية ، وفي الدين المسيحي حتى أن المسيحيين الأولين : كانوا أحيانا يصلون أمام تمثال « إيزيس » الذي يصورها وهي ترضع طفلها « حورس » . وكانوا يرون فيها صورة أخرى للأسطورة القديمة النبيلة ؛ أسطورة المرأة ـــ أي العنصر النسوي ـــ الخالقة لكل شيء ، والتي تصبح آخر الأمر أم الإله . وكانت هذه الآلهة ـــ رع (أو آمون كما يسميه أهل الجنوب) وأوزيريس ، وإيزيس وحوروس ـــ أعظم أرباب مصر . ولما تقدم العهد امتزج « رع » و « آمون » وإله آخر هو « فتاح » ، فأصبحت ثلاث صور لإله واحد أعلى يجمعها هي الثلاثة »[1] . وهكذا يظهر تأثير الوثنية المصرية في الديانة المسيحية .

وكما أخذت المسيحية التثليث عن المصرية القديمة أخذت كذلك عن الهندية التي كانت كذلك تقول بالثالوث . يقرر الأستاذ « مالفير » وجود تشابه

---

(١) قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الأول ص ١٥٩ .

كبير بين الثالوث الهندي والثالوث المسيحي .

ويضيف أنه ذكر في الكتب الهندية القديمة التي ترجمت إلى الإنجليزية شارحة عقيدة الهنود القدماء ما نصه : نؤمن بسافتري أي الشمس إله واحد ضابط الكل ، خالق السموات والأرض وبابنه الوحيد « آني » أي النار ، نور من نور ، مولود غير مخلوق ، تجسد من « فايو » أي الروح في بطن « مايا » العذراء ونؤمن بـ « فاير » الروح المحيي المنبثق من الاب والابن الذي هو مع الاب والابن يسجد له ويمجد »[٢] .

ومن هنا نجد أن الثالوث الهندي دخل إلى المسيحية كما دخل الثالوث المصري وللأسف لم يهتم دعاة المسيحية بتطهيرها من الوثنيات بل جعلوا همهم انتساب الناس إلى المسيحية ولو لم يتركوا عبادتهم الأولى . وهم حينما كانوا يتركون الناس يفعلون ما يفعلون ولكن تحت اسم المسيحية ، كانوا يظنون هذا نصرا للمسيحية من ناحية ، ومن ناحية أخرى أين هو المصدر الصحيح الذي يرجع إلى عيسى والذي يمكن الاعتماد عليه في حرب البدع ؟ الواقع أنه لا يوجد مصدر صحيح كما تقدم فأخذ الدعاة من الوثنية عقائد أدخلوها في النصرانية بدل أن يأخذوا من المسيحية للقضاء على الوثنية .

ثالثا : رجال الدين :

إن كل ما أصاب المسيحية من تشويه يقع وزره على رجال الدين المسيحي . لقد كان بإمكانهم أن يرفضوا الدخيل ، ولكن للأسف هم الذين قرروه يقول القس « بولس إلياس اليسوعي » « إنه في مفتتح القرن السابع الميلادي كتب البابا « غريغوريوس » الأول الكبير إلى القديس « أوغسطينوس » أسقف « كنتربري » ببريطانيا يقول :

---

(٢) عن كتاب الله واحد أم ثالوث ص ٨١ .

« دع البريطانيين وعاداتهم وابق لهم أعيادهم الوثنية واكتف بتنصير تلك الأعياد والعوائد ، واضعا إله المسيحيين موضع آلهة الوثنيين »[1] . وهو في ذلك يقتدي ببولس وأصحابه المبشرين الذين ألغوا الختان لما سمعوا بتضرر الوثنيين منه ، وبعثوا لهؤلاء الوثنيين يقولون :

« قد سمعنا أن أناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم ، وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس الذين لم نأمرهم » (أعمال الرسل ١٥/٢٤)[1] .

ولقد مرت النصرانية ـــ على رجال يد الدين ـــ بأدوار حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن .

فهي لم تعلن هكذا مرة واحدة ، بل كان كل مجمع من رجال الدين يضيف جديدا . لقد كان من الممكن أن تتجه النصرانية إلى توحيد الله ، وعدم القول بألوهية المسيح ، ولكن ـــ للأسف ـــ لم يرد لها رجال دينها هذا الطريق المستقيم إن الأناجيل ـــ برغم ما أصابها ـــ نجد فيها بقية دعوة إلى التوحيد .

ففي إنجيل متى « وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية ؟ فقال له لماذا تدعوني صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد هو الله » فهذا القول يقطع على القائلين بالتثليث أو ألوهية المسيح طريقهم .

وفي إنجيل مرقص : الباب الثاني عشر . « فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله أية وصية هي أول الكل فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد » .

---

(١) المرجع نفسه ص ٨٨ .

(١) المرجع نفسه ص ٨٦ ـ ٨٧ .

وقد يطلق عيسى على نفسه الابن ولكن هذا ليس خاصا به بل يجعله يشمل البشر جميعا ففي إنجيل يوحنا الآية السابعة عشر من الباب العشرين .

فهو يخاطب مريم المجدلية قائلا : « اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم » .

فتراه هنا يجعل الأبوة تشمله وجميع الناس ، فإما أن يجعلوا كل الناس آلهة ، وهو ما لا يقوله عاقل ، وإما أن يجعلوا الأبوة من أبواب المجاز ، وهو الذي يتفق والعقل والدين .

ثم نصوص التوراة التي يؤمنون بها تدعو إلى التوحيد ، فماذا يقولون في هذا ؟

كان الواجب إذاً أن يدعو رجال الدين إلى التوحيد وعلى فرض أنه وجدت نصوص توهم البنوة كان الواجب تأويلها لتتفق مع القاعدة العامة وهي التوحيد .

ولكن الأمر سار على غير هذا ، فعقدت المجامع ، وفي كل مجمع كان يخنق صوت التوحيد ليرفع صوت الشرك . ففي مجمع نيقيه (سنة ٣٢٥) كان الوقت قد حان ليتناقش النصارى علنا حول المسيح ، بعد أن زالت موجة الخوف وأمنوا الفتنة . واختلفت الآراء . فذهب البعض إلى أنه إنسان . وهذا مذهب « آريوس »[1] الذي يقول : « إن الله واحد فرد غير مولود ، ولا يشاركه شيء في ذاته تعالى ، فكل ما كان خارجا عن الله الأحد إنما هو مخلوق من لا شيء ، بإرادة الله ومشيئته .

أما الكلمة فهو وسط بين الله والعالم ، كان ولم يكن زمان ، لكنه غير

---

(١) فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ص ١٨٧ جـ ١ .

أزلي ولا قديم ، بل كانت مدة لم يكن فيها الكلمة موجودا .

فالكلمة مخلوق ، بل إنه مصنوع ، وإذا قيل : إنه مولود فبمعنى أن الله تبناه . ويؤدي ذلك إلى أن الكلمة غير معصوم طبعا ، ولكن استقامته حفظته من كل خطأ وزلل فهو دون الله مقاما ، ولو كان معجزة الأكوان ، خلقا بلغ من الكمال ما يستحيل معه خلق شيء ، أكمل منه رتبة وحالا » .

هذا ولقد كان مذهب « آريوس » مكتملا في مواده وأصوله منذ ظهوره وهو يقوم في أساسه على إنكار اللاهوت في المسيح ، وتصوره إنسانا محضا مهما كان عظيما[٢] .

وكان لآريوبيس معارضون ـــ في مجمع نيقيه ـــ يذهبون إلى تأليه المسيح ، بل منهم من كان يرى تأليه مريم . وبرغم قلة القائلين بتأليه المسيح في المجمع إلا أنهم انتصروا .

وكانت نتيجة المؤتمر « هو انتصار القول بتأليه المسيح والوقوف ضد القول بأنه رسول . والحكم بكفر آريوس ومن يذهب مذهبه .

وكانت هذه المقررات التي صدرت عن مؤتمر نيقيه هي الأساس الذي بنى عليه بعد ذلك ، واعتبر كل من خرج على هذه المقررات كافرا محروما .

« هذا وإن معظم الأساقفة في الشرق والغرب ما زالوا يردون على هؤلاء الخوارج جميعهم ـــ كما يزعمون ـــ ويدافعون عن العقيدة التي أجمعوا عليها في « نيقيه » ويوضحونها[١] .

وبعد تأليه المسيح بدأ البحث في تأليه الروح القدس ، وتمت الموافقة على

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٢٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٩ .

تأليه الروح القدس في مجمع القسطنطينية ، الذي كان أول الأمر مجمعا محليا ثم تحول إلى مجمع مسكوني بعد موافقة بابا روما على ما قرر فيه .

وكان قد عقد سنة ٣٨١ لتكفير قوم أنكروا أن الروح القدس إله . ولقد كفروا جميعهم في مجمع القسطنطينية المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) الذي حدد آباؤه أن الروح القدس هو :

« الرب المحيي المنبثق من الآب والذي تجب عبادته مع الآب والابن »[٢] .

وبذلك انتهوا إلى عقيدة الثالوث التي لم تزل عليها الأجيال النصرانية .

وفي مجمع « أفسس » (٢٢ حزيران ــ أيلول ٤٣١) حددت « وحدة الأقنوم في المسيح ، وأن العذراء مريم أم الله » .

هذه هي الحالة التي انتهت إليها النصرانية واليهودية .

فكان من فضل الله على العالم أن أرسل محمدا ﷺ ، وأنزل عليه القرآن الكريم وحفظه من كل ما أصاب الكتب السابقة من التغيير والتبديل .

والله تعالى يبين موقف القرآن الكريم من الكتب السابقة فيقول سبحانه :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾[١] .

إن الإسلام جاء ليبين الدين كما أراده الله تعالى ، وكان كتابه « القرآن الكريم » آخر الكتب المنزلة .

ومن هنا كان هو الحكم عليها بالصحة أو الفساد .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) المائدة : ٤٨ .

فالمراد بالكتاب الأول : القرآن الكريم ، فاللام فيه للعهد ، والمراد بالكتاب الثاني جنس الكتب فالتعريف فيه للجنس ، أو للعهد ، ويكون المراد منه نوع معلوم ، وهو ما أنزل من السماء سوى القرآن الكريم .

و« مهيمنا » أي رقيبا على سائر الكتب ، يشهد لها بالصحة والثبات فالصحيح فيها ما وافق القرآن والباطل ما خالفه .

إن الكتب الأخرى ـــ وإن كانت سابقة على القرآن الكريم ـــ قد طرأ عليها ما زعزع الثقة بها فجاء القرآن لها مصححا .

هذه هي رسالة الإسلام .

ولقد تعرض الرسول ﷺ للكثير من أنواع التكذيب واتهمه المشركون بأنه أخذ القرآن من غيره .

قال تعالى :

﴿ ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾[1] .

هذه فرية على رسول الله ﷺ ، زعموا فيها أن واحدا من البشر هو الذي يعلمه .

من هو هذا المعلم ؟ لقد اختلف فيه قيل عائش أو يعيش الذي كان غلاما لحويطب ، أو غلام رومي يدعى جبرا كان لعامر الحضرمي . وقد رد القرآن الكريم على هؤلاء بقوله :

﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

---

(١) النحل : ١٠٣ .

كيف يمكن لأعجمي لا يكاد يبين أن يعلمه القرآن الكريم الذي هو في غاية الفصاحة وبهذا الرد البسيط الواضح يرد القرآن الكريم هذه الفرية .

وجاء خلفاء لمشركي مكة ليرددوا نفس التهمة ، في العصر الحديث وتناسى هؤلاء أن كفار مكة كانوا أول من يعلم أنهم على باطل .

فلو كان هناك غلام أعجمي يعلم الرسول ﷺ لكان في استطاعة سادته أن يمنعوه من الاتصال بمحمد ، وهم الكفار الذين كانوا على استعداد لعمل أي شيء في سبيل إنقاذ آلهتهم .

ثم إن هؤلاء المحدثين لم يوفقوا إلى دراسة بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ .

[فقد كان الرسول ﷺ في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء . قال ـــ ﷺ ـــ فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهد .

ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد .

ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال :

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم ﴾ .

فرجع الرسول ﷺ ، يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : زملوني زملوني .

فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر ، « لقد خشيت على نفسي » .

فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسيد ابن عبد العزى ، وابن عم خديجة ، وكان امرءا تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني . فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .

وكان شيخا كبيرا قد عمي .

فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك .

فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى .

يا ليتني فيها جذعا . ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : أومخرجي هم ؟

قال : نعم . لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي .

وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي][1] .

فلو أن الرسول ﷺ يأخذ عن معلم لعرف ذلك ورقة ؛ لأنه كان خبيرا بكتب الأديان الأخرى .

ولكن ورقة تمنى أن يكون حيا حتى يكون من أتباع الرسول ﷺ ، ثم إن

---

(١) أخرجه البخاري في : ١ ــ كتاب بدء الوحي . ٢ ــ باب حدثنا يحي بن بكير والحديث مذكور في كتاب « اللؤلؤ والمرجان فيما تفق عليه الشيخان » رقم ٩٩ ص ٣٢ باب ٧١ .

أهل مكة لو كانوا يوقنون حقا أن هناك من يعلم رسول الله ﷺ ، لثبتوا على هذه التهمة ، ولم ينتقلوا منها إلى غيرها .

ولكن الواقع غير هذا .

لقد انتقلوا من تهمة إلى تهمة .

قال تعالى :

﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون * أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون * قل تربصوا فإني معكم من المتربصين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * ﴾[1] .

مرة يقولون : كاهن ، ومرة ثانية مجنون ، وثالثة شاعر .

وحقيقة الأمر أنهم وقفوا مبهوتين أمام القرآن الكريم ، فلو كانت نفوسهم صافية لآمنوا ، ولكن الدنس الذي أصاب فطرتهم بسبب حقد أو تقليد الآباء أو حرص على دنيا ، هذا الدنس منعهم من الإيمان .

وهنا بدءوا يلتمسون للقرآن مصدرا .

والمصدر عندهم كان أحد اثنين .

بشر ـــ كما تقدم في الآية السابقة .

أو جن كما هنا ؛ لأن الكاهن يتلقى من الجن والساحر يستعين بهم ، والشاعر له رئي منهم ، والمجنون به مس من الشيطان .

والله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ ﴿ فذكر ﴾ امض في طريق الدعوة

---

(١) الطور : ٢٩ ـــ ٣٤ .

لا تلتفت لأباطيلهم .

ثم يقول لهؤلاء الذين وجهوا التهمة أنتم يا من توصفون بالعقل والحكمة أعقولكم تسوغ لكم هذا ، أم أنكم طغاة ظالمون تجاوزتم حدود العقل .

إن أقرب المقربين لرسول الله ﷺ وهو « أبو بكر » بادر إلى الإسلام بدون تردد ، ولو كان محمد يمكن أن يكون موضع تهمة لأدرك ذلك أبو بكر ، ولكن الحقيقة أن أبا بكر نجا من العلة التي أصابت هؤلاء المفترين . إن العلة تكمن فيهم ، حيث عميت بصائرهم عن إدراك الحقيقة في هذا القرآن الكريم .

ثم يكون التحدي .

﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ .

الشعر ، الكهانة ، السحر وبالإجمال استيحاء الجن في متناول يدهم فإن كانوا صادقين في دعواهم فليبرهنوا عليها بالإتيان بحديث مثله .

وهذا أيضا يرد به على التهمة الأولى « إنما يعلمه بشر » .

فما دام المعلم موجودا وهم أصل فصاحة فليأخذوا منه .

وقد حاولوا وظهر عجزهم .

والحيرة التي وقع فيها القدامى من الأعداء ، وقع فيها المحدثون منهم .

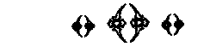

بعد ذلك ننتقل إلى الرد عليهم برد آخر .

وهو أنه كان يجب عليهم أن يقارنوا بين ما في القرآن وما في غيره من كتب اليهود والنصارى .

كان الواجب عليهم ـــ بدل أن يقولوا إن القرآن أخذ من السابقين ـــ أن

يقولوا إن القرآن بيّن لهؤلاء السابقين أن عقائدهم ضلالات ، وأن ما ظنوه علما هو الجهل .

إن ما في القرآن مخالف لما في التوراة والإنجيل .

وإذا أخذنا جانب العقيدة كمثال نجد هذه المخالفة واضحة .

فالعقيدة التي جاء بها الإسلام :

الله واحد لا شريك له ، وهو رب العالمين والناس جميعا عباده .

لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

إذا عصى العبد فالله هو الذي يحاسبه ، وإذا تاب فالله هو الذي يقبل توبته ولا يحتاج الأمر إلى وسيط بين الله وعبده .

وآدم أكل من الشجرة ، وتاب فتاب الله عليه .

والمسيح عبد الله ورسوله خلقه بقدرته وأجرى على يديه المعجزات فأحيى الموتى وأبرأ الأكمة والأبرص بإذنه سبحانه ، ولولا معونة الله لما استطاع عيسى أن يحفظ نفسه فضلا عن غيره[1] .

وأما في اليهودية والنصرانية فهو هذا الخليط الذي تقدم .

فاليهود يرون أنهم شعب الله المختار وأن الله في نظرهم إله خاص بهم والنصارى عندهم التثليث .

وأن خطيئة آدم بقيت معلقة برقاب البشر حتى جاء عيسى وحملها .

ولقد اعترف النصارى أنفسهم بنعمة الإسلام قديما وحديثا . ونكتفي بشهادة أحدهم .

وهو الدكتور نظمي لوقا .

---

(١) موقف القرآن من اليهودية والمسيحية تحتاج إلى كتاب خاص ونسأل الله التوفيق .

يقول تحت عنوان « الله » .

« لا يدع القرآن شائبة من ريب في مسألة وحدانية الله فجاء في سورة الإخلاص « قل هو الله أحد ﴾ .

ولا في تنزيهه عن الشرك والتعدد .

﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

وفي ذلك نقض لعقائد الشرك ، وتصحيح لعقائد أهل الكتاب أيضا .

فقد صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته ، وأنه ابن الله ، وأن الإله الواحد جوهر واحد ، له ثلاثة أقانيم ، هي الله الاب والله الابن ـــ وهو المسيح ـــ والروح القدس .

وشبهوا ذلك السر الإيماني المسيحي بالشمس ، وكيف أنها حقيقة واحدة ، تقع على الحواس ، قرصا ، ونورا ، وحرارة ..

وقد أدى هذا اللبس إلى فتنة ، بل فتن بين صفوف أتباع المسيح والمنتسبين إليه .

وجمعت المجامع ، ووقعت المذابح ، وصار الإيمان سبيلا إلى اللدد والفرقة ، لا إلى الألفة ، واجتماع العقول ، والقلوب ، على عقيدة يطمئن الجميع إليها .

وناهيك بعقيدة لباسها المحبة حتى للأعداء تكون مثار ذلك كله ..

لابد من رد الناس إلى بساطة الاعتقاد ، ولابد من نفي اللبس ، وشوائب الريب عن جوهر هذه العقيدة .

وهو التوحيد مطلق التوحيد .

إذا تعين أن يأتي الدين الجديد بحسم هذا الخلاف الوبيل .

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد * ﴾ ..

وهكذا بدت العقيدة الإلهية في الإسلام ناصعة صافية ، في تجردها من الشرك ، وشبهاته ، ومن النقص وشوائبه ، على نحو حاسم كانت البشرية قد باتت في حاجة ماسة إليه ، بعد الذي انتاب المؤمنين بالأديان من اختلاف وبلبلة[1] .

ويقول تحت عنوان « الإنسان » :

أما الإنسان ، فوقف بعد اليهودية والمسيحية موقفا لا يحسد عليه كثيرا بسبب ما التصق به من وزر أبيه الأول آدم .

ذلك الوزر الذي اعتبر خطيئة أولى ، وخطيئة باقية موروثة لابد لها من كفارة فداء حتى لا يذهب بجريرتها أبناء الجنس البشري كافة ..

وإن أنس لا أنس القلق الذي ساورني وشغل خاطري عن ملايين البشر قبل المسيح أين هم ؟ وما ذنبهم حتى يهلكوا بغير فرصة للنجاة .

فكان لابد من عقيدة ترفع عن كاهل البشر هذه اللعنة ، وتطمئنهم إلى العدالة التي لا تأخذ البريء بالمجرم ، أو تزر الولد بوزر الوالد وتجعل للبشرية كرامة مضمونة .

ويحسم القرآن هذا الأمر حين يتعرض لقصة آدم ، وما يروى فيها من أكل الثمرة المحرمة فيقول في سورة « طه » :

﴿ وعصى آدم ربه فغوى *ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾[2] .

وهكذا نجد نعمة الإسلام يقر بها غير المسلمين .

وفي النهاية أقول لأعداء الإسلام هل أنتم تصدقون أنفسكم حين تفترون على القرآن الكذب ؟

---

(١) محمد الرسالة والرسول (٢) المرجع نفسه .

خاتمـــة :

وبعد فإن العقيدة الإسلامية كان لها جنودها في كل عصر .

والمكتبة الإسلامية مليئة بإنتاج هؤلاء العلماء ولا زالت العقيدة لها جنودها في هذا العصر وهم ـــ والحمد لله ـــ كثير لا ينقصهم الإخلاص .

ولكن العدو أصبح له خطره ، وما كان يصلح للدفاع في الماضي قد لا يصلح الآن وإنني أختم هذا الكتاب ببعض الأسئلة :

هل وقفنا من الشباب موقف الطبيب من المريض يحفظ عليه صحته ما دامت موجودة ويحاول ردها إليه إن فقدها ؟

وكلما كان الجو المحيط بالمريض مملوءا بأنواع الميكروبات كلما بالغ الطبيب في تحصينه حتى يأمن إصابته ؟

هل أدركنا الحرب الموجهة ضد المرأة فحاولنا علاجها بما يتفق مع الحرب المعلنة عليها ؟

فإذا ما انتقلنا من الشباب والمرأة بوجه عام إلى الطلبة والطالبات في داخل الأزهر بوجه خاص نسأل :

هل استطعنا أن نعمق المفهوم الديني عندهم ؟ وهل جعلناهم يرون العزة في الانتساب إلى الدين والدفاع عنه ؟

ثم هل بدأنا العمل الجماعي ، أو لا زلنا نعمل فرادى ؛ يدافع هذا عن رأي ، ويقف الآخر ضده ؟

هل عرف كل من يتكلم باسم الدين ـــ سواء أزهريا أم غير أزهري ؟ ـــ أن الكلمة التي يكتبها باسم الدين ستقرؤها الأجيال القادمة ـــ كما قرأها الجيل الحالي ـــ وسيعرضونها على كتاب الله وسنة رسوله . وسيقرؤها صاحب الكلمة

نفسه حين يجدها في صحيفته يوم القيامة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[1] وعند ذلك تكون هذه الكلمة شاهدة له أو عليه ؟

هل أصبح لنا عرف عام ، عند الكلام في أي مسألة تتعلق بالدين ؟

بحيث تدرس هذه المسألة من جميع نواحيها . ثم يبين الواجب على العلماء بالنسبة لها ، لا فرق بين من هم في مصر وبين من هم في أي بلد إسلامي .

وهل يلتزم الجميع بالعمل في داخل هذا الإطار العام ؟

هل عرفنا بيقين أن الله سبحانه جعل الإسلام ليحكم به لا عليه ؟

وبذلك نتجنب ما وقع فيه البعض من الجري وراء تقاليد المجتمع ومحاولة إخضاع التعاليم الإسلامية لها .

إنني أسأل هذه الأسئلة وأنا على يقين أن علماء الأزهر ـــ ومعهم يقف جميع علماء الأمة في مشارق الأرض ومغاربها سواء تعلموا فيه أم لا ـــ قادرون على حمل الرسالة والدفاع عن الإسلام كدفاعهم عنه منذ نشأته .

وأن العلماء الذي أخافوا الأعداء حتى عقدوا المؤتمرات للبحث في كيفية حربهم ، هؤلاء العلماء لا زالوا ، ولن يزالوا ، قادرين على حمل الرسالة ، وقهر الأعداء ، أعداء الدين بإذن الله .

وإن العلماء والمسلمين جميعا سيخرجون من هذه الحرب الفكرية ـــ كما خرجوا مما قبلها ـــ منتصرين محافظين على دينهم الذي رضيه الله لهم .

﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

تقديم المركز العالمي للتعليم الاسلامي : دكتور محمود حسين زيني ٥

مقدمة المؤلف ١٣

الفصل الأول :

الإسلام والفكر المعادي .

تمهيـــد ٢١

الإسلام وعلاقة المسلم بغير المسلمين ٢٤

(أ) ليست هناك فرصة للقاء بين المسلم وغيره ٢٥

(ب) أساليب الأعداء ٢٧

١ ــ محاولة التشكيك ٢٧

٢ ــ فرق تسد ٢٨

٣ ــ التظاهر بالإسلام ثم الكفر ٣٠

٤ ــ اتخاذ مراكز داخل المسلمين ٣١

٥ ــ النفاق ٣٢

٦ ــ المقاطعة الاقتصادية ٣٣

٧ ــ الكذب وشهادة الزور ٣٤

٨ ــ السخرية بأركان الإسلام ٣٦

(جـ) توجيهات الإسلام ٣٨

(د) علاقة موالاة العدو ومنعها ٤٣

علاقة تبادل المصالح وإباحتها ٤٨

الفصل الثاني :

عداوة أوربا للإسلام ٥١

الخوف من الإسلام ٦٠

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث :

في ميدان القتال

الدعوة لاستعمال القوة مع المسلمين ٧٤

في ميدان الفكر

الغزو الفكري ٨٤

الغزو الفكري قديما وسببه ٨٩

الغزو الفكري حديثا

المستشرقون مع تلامذتهم ١٠١

إنشاء المدارس داخل البلاد الإسلامية ١٠٨

محاربة الأزهر ١٢٠

في ميدان العقيدة

محاولة تنصير المسلمين ١٢٣

محاربة الشريعة ١٢٨

تعقيب ١٣٦

التبشير والطوائف التي تشارك فيه ١٣٩

الأغنياء والسياسيون ١٤٠

رجال الدين المسيحي ١٤٢

الآباء البيض ١٤٤

الأطباء ١٤٦

المرأة مسلمة وغير مسلمة ١٥٠

تعقيب : ١٥٣

الشباب ١٦١

تعقيب : ١٦٥

في ميدان الوحدة

محاولة زرع الفرقة بين المسلمين ١٦٧

الحج إلى بيت الله الحرام ١٧١

اللغة العربية ١٧٧

الموضوع	الصفحة

محاولة القضاء على اللغة العربية ١٨٠
غربيون ١٨٠
مستغربون ١٨٧
محاولة إحياء القوميات والعداوات القديمة ١٩٨
مستغربون ٢٠٨
تعقيب ٢١٣

الفصل الرابع :

طعنهم في القرآن الكريم ٢١٥
اليهودية ٢٢٢
النصرانية ٢٢٦
خاتمـــة ٢٤٥

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com